



فریدریش کریستیان دلیوس

قاتل لمدة عام

ترجمة سمير جريس

قاتل لمدة عام

تأليف

فريدريش كريستيان دليوس

ترجمة

سمير جريس



Mein Jahr als Mörder

قاتل لمدة عام

Friedrich Christian Delius

فريدريش كريستيان دليوس

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبيت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إن مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٨ ٥٨٨ ٣٤٥٢٣ ١ ٩٧٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الألمانية عام ٢٠٠٤.

صدرت هذه الترجمة عام ٢٠٠٧.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.

جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ سمير جريس.

المحتويات

٩	دليوس الكاتب الذي لا يُهادِن، المهموم دومًا بتاريخ بلده
١٧	صوت حُر من العالم الحُر
٢١	قاتل والد الصديق
٢٥	حكمة صفائح الزبالة
٢٩	قطع الرأس
٣٥	هذيان الساخطين
٣٩	ملاك لندن
٤٣	مواعيد العيادة
٤٩	كتاب الاغتيال
٥٥	سبت طويل
٦١	أقوى المدافع
٦٧	القلب الكبير
٧١	زيارة عدو الدولة
٧٧	يثرثرون كثيرًا عن المقاومة
٨٣	أنقاض ووجوه
٨٩	القضاء يقول كلمته
٩٥	بيرة في فريدناو
٩٩	الطبيب الذي لا يقدر على رؤية الدماء
١٠٥	أبقراط يقاوم
١٠٩	دائرة الجحيم الأولى

١١٥	لا تخافوا
١٢١	عمل رمزي
١٢٧	جريمة السلام
١٣٣	شغل، شغل، شغل
١٣٧	الرومانسية الغربية العنيفة في شارع هاردنبرج
١٤٣	الخامس عشر من أغسطس
١٤٩	على المائدة الصغيرة
١٥٥	الجستابو في مطبخ الفلاحين
١٥٩	مبدأ الولاء
١٦٥	قهوة وجاتوه وآباء
١٦٩	الرغبة في الطيران
١٧٣	الضوء، أو جورينج مرتدياً زي «بابا نويل»
١٧٧	كم رأساً للأفعى؟
١٨٥	شليزفيج ضد المكسيك
١٨٩	رجلان في ضوء القمر
١٩٣	كم نوعاً من السُّم تَبَيَّنَ الأفعى؟
١٩٩	أوسكار وكوبونات الزبد
٢٠٣	سراب على «جبل الشيطان»
٢٠٩	الإضرار بالحياة، الإضرار بالحرية
٢١٥	بكاء الأمهات لدى رؤية الدبابات
٢١٩	زيادة قدرة الإنجاز البدني أثناء العمل بقناع الغاز
٢٢٥	دفاع أيمن
٢٢٩	بين طواحين أجهزة المخابرات
٢٣٥	سعداء معاً
٢٣٩	في الغرب أعرف أعدائي
٢٤٣	لا بد للأمر من نهاية
٢٤٩	متقاعد ومعه كلب في شليزفيج
٢٥٣	مهم للحرب

المحتويات

٢٥٧	لا تكن جباناً مثل شتاوفنبرج
٢٦١	الطعن مرفوض
٢٦٥	مفاجأة من هامستيد
٢٦٩	الثامن من مايو
٢٧٣	وابل من السُّباب ينهال على برلين
٢٧٧	أكسل شبرينجر شاهداً على عدم تواجدي في مكان الجريمة
٢٨١	ثلاث أرامل في حديقة شبه ظليلة يتحدثُن بولَع عن همفري بوجارت
٢٨٥	إنهاء الحرب الباردة
٢٨٧	في بحر من الهدوء
٢٩١	ولا طَلقة حتى الآن
٢٩٣	خاتمة شبه سعيدة
٢٩٥	خاتمة
٢٩٧	هوامش الترجمة

دليوس الكاتب الذي لا يُهادِن، المهموم دومًا بتاريخ بلده

عندما حصل فريدريش كريستيان دليوس في عام ٢٠١١ م على جائزة بوشنر، أهم الجوائز الأدبية في ألمانيا، مثَّل الأمر مفاجأة لكثيرين؛ ليس لأن دليوس مجهول لدى القُرَّاء أو النُّقاد، على العكس إنه يحظى باحترام النُّقاد وإعجاب جمهور القراء معًا، لكن دليوس ليس بالكاتب النجم، وجائزة بوشنر تذهب في كثير من الأحيان إلى كُتَّاب نجوم راسخين، كما أنه ليس بالكاتب الطليعي المجدِّد مِمَّنْ تَتَزَيَّنْ بهم الجائزة أحيانًا، إنه بالأحرى كاتب ملتزم في عصر فَقَد فيه الالتزام بِرِيقه وألَّقه، كاتب لا يعرف المهادنة، ما زال يؤمن بالكلمة وبدور الأدب في إصلاح المجتمع.

يمكن اعتبار الروائي الألماني فريدريش كريستيان دليوس (من مواليد ١٩٤٣م) «صنع الله إبراهيم الأدب الألماني»؛ مثل الروائي المصري اشتهر دليوس برواياته الوثائقية والتسجيلية النقدية التي لا تتصالح مع المؤسسة السياسية الحاكمة، ومثله هو كاتب يساري يرى للأدب — أيضًا — دورًا سياسيًا، وَمَنْ يُطالع عمل دليوس الوحيد المنقول إلى العربية حتى الآن — رواية «قاتل لمدة عام» — يعرف كيف يضفر هذا الروائي الأحداث التاريخية بكل تفاصيلها المِملَّة أحيانًا (الفترة النازية وما أعقبها من انشطار ألمانيا إلى نصفين، ثم الحرب الباردة والثورة الطلابية) مع سيرته الذاتية ناسجًا منها رواية شيقة تمزج الواقع بالمُتَخَيَّل، هذه الرواية اعتبرها الروائي جميل عطية إبراهيم «درسًا لمن يريد أن يكتب رواية تاريخية»، مثلما قال لي على هامش معرض القاهرة للكتاب في عام ٢٠٠٨ م، أما الروائية منصورة عز الدين فقد غَيَّرت هذه الرواية من ذائقتها الأدبية، مثلما كتبتُ في مقالاتها بأخبار الأدب عقب صدور الطبعة الأولى من الترجمة العربية: «الرواية الجيدة

هي — بصورة من الصور — تلك التي تُربك قناعات قارئها وتُغيّر من رؤيته لذوقه في القراءة، ورواية دليوس نجحت في هذا لحد كبير (على الأقل معي)؛ إذ لا أميل كثيرًا للروايات الوثائقية التي تستند بقوة إلى أحداث ووقائع تاريخية مجردة، غير أنني نسيت هذا مع الجملة الأولى المزلزلة التي افتتح بها دليوس روايته: «كُلِّفْتُ بالقتل في ساعة الغسق، مساء عيد القديس نيقولاوس».

التاريخ الألماني هو شُغل دليوس الشاغل وهُمه المُقيم، ربما منذ أن بدأ الوعي بما حوله بعد مولده في غمار الحرب العالمية الثانية، كان مولده في روما، حيث كان أبوه، القس البروتستانتي، يعظ الجنود الألمان الذين يحاربون على الجبهة الإيطالية، ونشأ في منطقة هسن في قلب ألمانيا، وتلقّى تعليمه هناك في الفترة التي حاول فيها الألمان أن ينسوا الماضي النازي قليلًا، وأن يتركوا الماضي يمضي، وأن يبنوا دولتهم بعد أن حوّلتها حرب هتلر إلى أنقاض.

مقاومة تناسي الماضي أو تجاهله سيصبح أحد الموضوعات المهمة لأدباء اليسار في تلك الفترة، كما سيشغل دليوس في أعماله اللاحقة، وعندما نقرأ في «قاتل لمدة عام» مناجاة الشاب الذي يريد أن يقتل قاضيًا نازيًا، نعرف أن الروائي إنما يتحدّث عنه نفسه: «لماذا لا أحيّا حياة حرّة بدون أوساخ التاريخ وشياطينه؟ لماذا لا أوصل الكتابة بلا إزعاج من أحد؟ أن أسطر جملاً طويلة جميلة، رشيقة وأنيقة، ثم يأتي الوقت، بعد عشرين أو ثلاثين عامًا، بعد أن يكون الألمان قد اندثروا، أو على الأقل تخلّوا عن فظاظتهم، وبعد أن يكون النازيون قد وأدوا الروح النازية، عندئذٍ يكتشفونني ويحتفون بي، وعندئذٍ أجلس مثل إلياس كانيتي في إحدى مقاهي هامستيد هيث، وبنظرة باسمه أقرأ الصحف الألمانية.» ربما هذا ما خامر دليوس في شبابه، غير أنه اختار طريقًا آخر.

التحق دليوس عام ١٩٦٣م بجامعة برلين، ودَرس هناك الأدب الألماني، واختتم دراسته عام ١٩٧٠م بالدرجة. وفي برلين عايش دليوس فترة الانتفاضة الطلابية التي تفجّرت عام ١٩٦٨م بكل زخمها، وهي الفترة التي سيكتب عنها لاحقًا، كما سيكتب عن جماعة «بادر-ماينهوف» اليسارية الإرهابية التي تولّدت من رحم الاحتجاجات الشبابية. عمل دليوس محرّرًا في إحدى أشهر دور النشر اليسارية (دار كلاوس فاجنباخ) من عام ١٩٧٠م حتى ١٩٧٨م. وفي تلك الفترة نشر كتابًا توثيقيًا ساخرًا بعنوان «عالم سيمنس». كتاب احتفالي بمناسبة مرور ١٢٥ سنة على تأسيس شركة سيمنس» ١٩٧٢م، شُنّ فيه هجومًا أخلاقيًا عنيفًا على الشركة المشهورة؛ ما تسبّب في رفع عدة قضايا عليه وعلى دار

النشر، خرج منها الكاتب منتصرًا، ولكن بعد أن كادت الدار تُشهر إفلاسها. وفي عام ١٩٧٨م تفرَّغ للكاتب وراح يعيش متنقلًا بين برلين وروما، وابتداءً من مطلع الثمانينيات بدأ دليوس يلفت الأنظار برواياته الوثائقية التاريخية مثل «بطل الأمن الداخلي» ١٩٨١م، و«مقديشيو، مقعد بجانب الشباك» ١٩٨٧م، و«يوم الأحد الذي أصبحت فيه بطل العالم» ١٩٩٤م.

يقول دليوس: إن الكتابة هي التي حرَّرتُه من سطوة أبيه، كما عتقته من التَّهتُّة وإحساسه بالخرس في طفولته الريفية، وفي جملة دالَّة صرَّح بها إلى صحيفة «فرانكفورتر ألمان» ذات مرة قال: إنه لجأ إلى الكتابة؛ لأنه فشل في إجادة السباحة، فهو شخص لا يستطيع أن يطفو على السطح. دليوس كاتب يغوص في العمق، يرسم بقلمه شخصيات روائية جذابة، لكنها ليست أحادية البعد، يُهاجم النازية، ولكنه يسلط الضوء أيضًا على المقاومين في تلك الفترة، يَشن حربًا شعواء على إحدى كبريات الشركات الرأسمالية في ألمانيا، ولكن دون أن يقع في الأيديولوجية اليسارية المُبسَّطة الساذجة، يكتب عن الثورة الشبابية التي شارك فيها، ولكن دون تمجيد، بل بسخرية هادئة من الشاب المتحمس الذي كانه يومًا.

في رواياته ينجح دليوس في إحياء الفترة التاريخية التي يتناولها بحيث يجد فيها القارئ كثيرًا من التشابهات والتقاطعات مع الحاضر، وخصوصًا مع حاضرنَا العربي. في «قاتل لمدة عام» على سبيل المثال يلقي دليوس ضوءًا كاشفًا على حقبة النازية التي تُعد من أشد فترات التاريخ الألماني ظلامًا، وسرعان ما يتبين القارئ أن النازيين الجناة ليسوا بالضرورة وحوشًا آدمية، بل إن الشرَّ عادي، مثلما قالت الفيلسوفة هنَّه أرنت، كما تبين الرواية أن الديمقراطية عمليَّة طويلة وصعبة، وأن شعبًا سائر الديكتاتور سنوات طويلة وآمن به، لن ينقلب شعبًا حرًا ديمقراطيًا بمجرد إسقاط الطاغية.

سمير جريس

ملحوظة: ترد في الرواية إشارات إلى فترات وشخصيات في التاريخ الألماني قد لا يعرفها القارئ العربي؛ ولأن بعض هذه الإشارات والأسماء تتكرر في أكثر من مكان، وحتى لا تعوق الهوامش سلاسة النص الروائي، رأيت أن تُجمع الهوامش كلها في نهاية الرواية بحيث يمكن الرجوع إليها كلما اقتضت الضرورة. (المترجم)

ما لا يُعقل وما لا يُفسر ليس هو الشر، على العكس: إنه الخير.
إمري كيرتيس

صوت حر من العالم الحر

كُفْتُ بالقتل في ساعة الغسق، مساء عيد القديس نيقولاوس.^١ بين لحظة وأخرى أعلنتُ موافقتي بعد أن حملتني الرعونة على أجنتها. تناهى إلى سمعي صوت قوي لرجل حرّضني على القتل؛ صوت من الأثير اللامتناهي، ليس شيطاناً ولا إلهاً. صوت مذيع نشرة الأخبار الذي قرأ خبراً، وفي ثناياه سمعتُ مَنْ يُوسِسُ في أذني مُطالباً بأن أصبح قاتِل السيد «ر». صوت من إذاعة القطاع الأمريكي، وفوق ذلك في عيد القديس نيقولاوس. وعندما أَعترف اليوم بعملية الاغتيال المتقادمة فإنّني أَتفهّم مَوقف كل من يعتبرني، أو يعتبر الذي كنْتُه آنذاك، مجنوناً.

لا أحد يعرف سرّي، لا الشرطة لاحظتُ شيئاً عن نَوَازِعي الإجرامية الخَفِيَّة ولا أفضل أصدقائي؛ ولأنني في نظر الناس إنسان هادئ ومُسالِم، فإن إحصائي عن الكلام في موضوعات القتل والعنف لم يثر ريبه أحد في يوم من الأيام، لكن الرغبة نَمَت تدريجياً في داخلي كي أفتح الباب الآن على مصراعيه لأشباح الذكرى، وأتركها تأخذني معها إلى الشقة الصغيرة في الدور الأرضي، حيث كان أحد الطلاب يُشغِّل جهاز الراديو، ويمد المدفأة الحجرية بقطع الفحم، ويُسخِّن الماء لعمل فنجان من القهوة، ولا يستطيع مقاومة شذا كعك عيد الميلاد المتصاعد من العُلبَة التي أهدَّته إياها أمه بمناسبة فترة «الأدفنت» السابقة لعيد الميلاد.^٢

لا أحد سيصدقني على الفور عندما أقول: إني قاتل؛ لذلك لا بدُّ من الرجوع قليلاً إلى الوراء، فالمدفأة والكعك هما أيضاً جزء من سلسلة القرائن والأدلة، وما دمتُ لا أستطيع أن أستبعد أن كعك «الأدفنت» قد أثار عندي شهوة القتل، فإنني لن أتجاهله في اعترافي المكتوب. التحقيق لا بدُّ من أن أجريه أنا مع نفسي، هذا هو سوء حظ مَنْ لا يُقبض عليه

متلبساً، ومثلما هو الحال في كل رواية بوليسية جيّدة فإن الدوافع والملابسات والخجل من الجريمة لا يمكن الكشف عنها إلا تدريجياً.

تتابعت الأنباء من الراديو. جمل عادية مُصاغة بلغة الأخبار المعتادة. لم أكن أصغي لما يُقال، كنت أشعر بالتعب الذي تراكم خلال شهر ديسمبر الرمادي المطير، ولا تزال الغرفة باردة، فالمدفأة الحجرية تحتاج إلى بعض الوقت، وهكذا تركت نفسي أَدفأ بصوت المذيع، هذا الصوت الأليف من طبقة «الباص»، الذي كان يتحوّل كل ساعة إلى الصوت الحُر من العالم الحُر. قطع الكعك كانت قاسية ولها حلاوة بائسة. أخذت أنتظر النشرة الجوية، ثم موتسارت أو بيتهوفن قبل أن أغلق الجهاز.

مثل كل المحطات في برلين لم تَحُلْ إذاعة القطاع الأمريكي من البروباجندا، غير أنها كانت تضم أفضل المذيعين ذوي النبرات الموحية والذبذبات العميقة، أصوات رجال مدافعة وحاسمة مثل قوات الدفاع نفسها، كنتُ مستغرقة في الاستماع إلى أنغام الصوت العميق القوي أكثر من انتباهي إلى الأخبار نفسها، إلى أن تناهى إلى سمعي النبأ المألوف:

أصدرت هيئة المحلفين بمحكمة ولاية برلين حكماً ببراءة القاضي السابق بمحكمة الشعب العليا، هانز يواخيم ريزه، من تهمة القتل الموجهة إليه في سبع حالات.^٢

لم يكن في النبأ ما يثير الاهتمام، كما أنه لم يكن مفاجئاً، ولا حتى في تلك الفترة؛ أي حكم آخر كان سيمثل مفاجأة؛ فرجال القانون لن يُدينوا أبداً رجال قانون، حتى لو كانوا من النازيين الذين أصدروا ما يزيد على مائتي حكم بالإعدام، وبهذا أكدت المحكمة رأياً شائعاً. رغم ذلك كان هذا النبأ يخفي خبراً آخر هامساً، كأنني سمعت بأذن ثالثة، بأذني الباطنية حيث تظل المتناقضات عالقة، سمعتُ عبر الأثير واستشَفْتُ من مقاطع الحروف التي تناهت إليّ ذبذبات رسالة سرية تُطالب في وضوح: لا بُدَّ من أن يقوم أحد بعمل رمزي، لا بُدَّ من أن يقتل شخص هذا القاتل، وستكون أنت هذا الشخص.

كلا، لم أشرب خمرًا، ولم أكن تحت تأثير المخدرات، ولم أترنح من سكرة الحب في فراش صديقة. كنت في منتهى الوعي والانتباه عندما وصلتني الجملة، متعباً قليلاً فحسب: لا بُدَّ من أن يقوم أحد بعمل رمزي، لا بُدَّ من أن يقتل شخص هذا القاتل، وستكون أنت هذا الشخص!

وبينما كان المذيع يقرأ توقّعات الأرصاد الجوية لطقس نهاية الأسبوع، كان خيالي قد انطلق من عقاله: أنا ومعني مسدس، طلقة، رجل يسقط بلا حراك، هذا هو الأمر ببساطة،

هذه هي التكملة المنطقية لنشرة الأخبار. لم يكن ليثير استغرابي لو سمعت من الراديو النبأ العاجل التالي: علمنا لتَوْنًا أن طالبًا برلينياً اتخذ قرارًا باغتيال القاضي «ر». أنت تحَرِّف! أنت بالذات! انس الأمر! هكذا حاولتُ أن ألجم خيالي، لم يكن الأمر مضحكًا، كلا، بل مثيرًا للسخرية فحسب، سخيًّا، لا يستحق مجرد التفكير فيه. خلاص، انتهينا!

إن الشجاعة تعوزني كي أمسك حجرًا بيدي، ناهيك عن أن أرميه. أنا جانيًا، قاتلًا، هذا التصور لم يكن متهورًا فحسب، بل مستحيلًا ومجنونًا وأحمق، ولكنني أُخَمِّن اليوم أن هذا التصوُّر أطلق الشرارة داخلي بسبب عُبْثِيَّتِهِ تحديداً، فألهب خيالي المُرْهَف الذي راح يُقَدِّم الصور المناسبة. وجدت نفسي أُمثِّلُ الدور الرئيسي، فأقف متكئًا إلى مدخل أحد المنازل في «فيتسليبن-شتراسه» أمام محكمة الاستئناف في انتظار الذي قُتِلَ باسم العدالة، لم أنتظر طويلاً حتى رأيته خارجًا من البوابة الرئيسية، رجلاً طاعناً في العمر لا يلفت النظر، هبط درجات عدة، ثم سار في اتجاه سيارته، ولحظتها، وبعد أن أحكمتُ التصويب، أَرَدَيْتُهُ قتيلاً برصاصات ثلاث، وبخطوات هادئة وَلَيَّتُ الفرار في اتجاه بحيرة ليتسن حيث رأني العابرون جميعاً، ورغم ذلك لم يوقف أحد مشيتي الواثقة المختالة: شاب، بين العشرين والخامسة والعشرين، نحو ١٨٠سم، رشيق، أشقر، يرتدي جاكته زرقاء غامقة واقية من الرياح وبنطلون جينز أزرق، إلى أن أعلنتُ أبواق سيارات الشرطة من اتجاه الكاندرائية اعتقالاً على نحو احتفالي مُنْهِيَةً دوري في الفيلم.

فيلم قصير بسيط: نذل وشاب وطلقة. فيلم «مسلوق»، هذا واضح، إلا أنني شعرتُ على الفور بالتأثير المدغدغ للحواس: سعادة أن تكون — للحظات قليلة — بطلاً ومنتقماً للعدالة.

تأخر الوقت كثيراً، ولم يعد أمامي اختيار؛ إذ إن هذا كله — وهو ما يمثل صعوبة إضافية للأمر — قد حدث عام ١٩٦٨م.^٤

قاتل والد الصديق

لا أتذكر إلا ما حدث بعد ذلك بساعات، عندما كنت راقداً بجوار كاترين التي استدارت على جنبها راضية مرضية، ثم استغرقت في النوم. كلا، لم تكن فرنسية، بل مصورة ألمانية، لا بأس بقدراتها، هربت من ماركتردفيتس إلى برلين؛ حيث منحت اسمها الألماني «كاتارينا» بعض النبل، وحوّلته، مُسايِرةً في ذلك موضة العصر، اسماً فرنسياً، وذلك بمطّح حرف الياء مطاً طويلاً عند نطق الاسم. مع كاترين كنت أسير في الشارع، وأنا في الفراش، كان حباً، إذا لم أكن مخطئاً، قد استغنى عن كلمة «الحب»، كنا نخوض النقاشات المعتادة في السياسة وعلم الجمال، لكنني لم أسمح لها بأن تعرف كلمة واحدة عن مستقبل المهني كقاتل.

حسدت كاترين على نومها، ومع الحسد استيقظت داخلي وساوس وهلوسات الأسمية السابقة، ومثلما يحدث في الفترات التي تسبق القرارات الحاسمة أو الامتحانات والمغامرات، لم يستسلم المخ للنوم. أخذت المشاعر المتضاربة تتأرجح بي، ورُحت أنا أعذب نفسي بأحاديث مع الذات، لقد دبر لك أحدهم مقلباً، قلت لنفسي: هذا كمين، من يفعل اليوم بسبب النازيين القدامى؟ فلتترك ذلك لصبية الكشافة المُستعدين دوماً للغضب والاستياء، سوف يعترضون على الحكم بأصوات مُتعبة مبسوطة، فليفعلوا ذلك، هذا جيد، حتى لو لم يؤدّ إلى أي نتيجة. سيرسمون علامات التعجب في الهواء، وسيشعرون كالعادة بالإهانة وقلة الحيلة، هؤلاء هم آخر الصالحين على وجه الأرض، بعدها سيذهبون إلى بيوتهم، إلى أن تجيء القضية التالية، ولن ينتظروا طويلاً حتى يصدر حكم بالبراءة على قاتل نازي. كانت كاترين تتنفس بانتظام، لمستُ بحذر كتفها، شممتُ جسدها المُشتهى، وحاولت أن أهدئ من روعي: نم، فلتنم، هناك ما هو أفضل من ضرب أعداء أمس الأول أو قتلهم،

ما هو أفضل من التخلُّص من واحد من مئات آلاف المجرِّمين الذين يسرون في الشارع دون أن يعترض سبيلهم أحد. فليواصل عواجيز الصليب النازي المعقوف رحلاتهم إلى العمل بالسيارة التي يقودها السائق الخاص، وليقم المتقاعدون بجولاتهم التنزهية، وفي أيام الأحاد فليشحنوا سكينهم أمام قطعة اللحم المحمرة التي يتصاعد منها البخار — ما دخلي أنا في الموضوع؟!

لا أمل في تغيير شيء، قلت لنفسي، لن يستطيع المرء أن يحبسهم كلهم؛ إنهم كثيرون جدًّا، يجلسون في كل مكان، في الإدارات الحكومية وفي المحاكم، في المؤسَّسات والشركات الكبيرة وفي الجامعات، ليس هذا سرًّا، هذه حقيقة مُبتدلة، وعُهر يومي، شيء عادي لا يثير إلا الضيق، انس الأمر، هذا موضوع لا يعنيك، فلتظل خارجة. إنهم يتقاسمون السُلطة فيما بينهم، أو ما زالوا يعيشون على سُلطتهم السابقة، يقضون غروب حياتهم في مكاتب الرؤساء، في المقاعد الوثيرة أو على أسرة بيوت المُسنِّين، أو يعقدون الصَّفقات المربحة مثل هرمان يوزيف أبس، أو والد كاترين الذي تخصص في تجارة الأدوات المنزلية بعد أن كان يومًا عمدة نازيًّا مجتهدًا في بلدة ما بمنطقة البفاليس العليا، فلتكن له من الشاكرين؛ لأنه أنجب ابنته الجميلة الذكية وانَّسه، انس كل هؤلاء!

يبذل الإنسان جهده لينسى، ولكن ما يحدث هو العكس، هذه الآلية البسيطة لم أكن أعرفها في تلك الليلة، رحْتُ أفكِّر في أشياء مختلفة لأُشَتَّت انتباهي، بحثت عن النوم، نسيْتُ ... استغرقْتُ ... وبسرعة انبعثْتُ في رأسي الصورة الحاسمة: صديقي أكسل على المائدة في مطعم الجامعة، وبجانبا الجريدة المفتوحة على صفحة عنوانها يدور حول القضية التي بدأت ضد هذا القاضي الذي أصدر في محكمة الشعب العليا ما لا يقل عن ٢٣٠ حكمًا بالإعدام. وعلى الفور سمعت الجملة المريعة الطافحة بالاحتقار التي علق بها أكسل على الصورة، هذه الجملة تردَّدت على سمعي الآن — في الفراش — مثل إلهام شرير، إنه هو الذي لفق الحكم لأبي، هو وفرايزلر.

هذه الحكاية المُظلمة، حكاية والد أكسل الذي قتله النازيون؛ لأنه كان يكافح ضدهم، كانت ترافقني منذ الطفولة. الأب — كنتُ قد عرفت ذلك — أسَّس مع روبرت هافمان وآخرين إحدى جماعات المقاومة، ولهذا أُعدم عام ١٩٤٤ م، قبل العشرين من يوليو^١. الآن، في أعماق ليلة القديس نيقولاوس، أدركتُ أنه هو الذي أمر بقطع رأس جيورج جروسكورت، والد أعز أصدقائي! بالاشتراك مع رولاند فرايزلر! وها هو يخرج من القضية بلا أدنى عقوبة، كالشعرة من العجين!

في تلك اللحظة — هكذا أستطيع اليوم أن أدَّعي — تَمَرَّدَ الطفل داخلي، والباقي أتركه للمحلِّلين النفسيين. في أقصى حالات اليقظة وبعيون مفتوحة في الظلمة أدركتُ لماذا لا زَمَنِي التفكير في القاضي، لماذا ركبني كشيطان، لماذا طاردتني الوسوس وراحتْ تحثني على ارتكاب الجريمة.

لم أَعُدْ أسمع صوت قارئ نشرة الأخبار بل صوتي أنا: لا بُدَّ من أن يُقَتَّلَ شخصٌ هذا القاتل، وهذا الشخص هو أنت.

لم تكن هذه الفكرة مستهجَنة في نهاية العام الذي اغتِيلَ فيه مارتين لوثر كينج، وروبرت كيندي، العام الذي كاد زعيم الطلبة رودي دوتشكه يلقى فيه مصرعه أيضًا، عام المذابح الكبرى في فيتنام والمكسيك، عام الانتفاضة في باريس وحركة المقاومة في براغ ضد الدبابات الروسية. في كل شهر انتهاكات جديدة لروح العدالة، كل شهر غضب ومشاعر مهتاجة. كل مأساة من هذه المآسي كانت تؤكد الرغبة في التغيير والتمرد والحرية. السلطة فاسدة، سواء في موسكو أو في واشنطن، في بون أو في باريس، وكل إنسان يطالب بأبسط الحقوق الأساسية ينال نصيبه من القمع بلا رحمة. إلى هذا الحد كانت صورة العالم مُبسَّطة، إلا أن السؤال كان معقدًا: كيف يدافع الإنسان عن نفسه؟

غمرني الهدوء، وحاولتُ أن أقنع نفسي بأن فعلًا كهذا — إذا ارتكبته — لن يكون إلا فعلًا خيرًا. مساهمة صغيرة في تنوير المجتمع، في الديمقراطية والعدالة، تمامًا مثلما فعلتُ بياثه كلارسفلد قبل أربعة أسابيع حينما صَفَعَتِ المستشار الألماني، ليس هذا فحسب، بل وأمام كافة الأعضاء المجتمعين من حزبه.

حتى هذه الجزئية تَمَعَّنْتُ فيها: في السابع من نوفمبر ١٩٦٨م نال المستشار الصفعة الشهيرة، وأنا أروي هنا ما حدث في ليلة السادس وفجر السابع من ديسمبر. ورغم أنني أعرض نفسي لشبهة أن أبدو محض مُقلِّد للآخرين، فإنني لا أريد أن أتَّهم بالجبين أمام الوقائع.

كلارسفلد إذن، هذه الأسطورة العتيقة، كانت قد حضرت إلى اجتماع الحزب الديمقراطي المسيحي بهوية صحفية. المستشار يعطي توقيعه لمعجبيه، وهي تتسلل من الخلف، ليس من الأمام حتى لا يهرب منها، وعندما استدار كيسينجر صَفَعَتْهُ صفقة قوية صائحة: نازي، نازي! بعد الظُّهر، وفي قضية مستعجلة، وُجِّهَتْ إليها تهمة الإيذاء البدني والإهانة المتعمَّدة؛ لأنه لا يحق للمرء أن يطلق وصف «نازي» على عضو سابق في الحزب النازي، وعلى رجل كان مسئولًا في وزارة الخارجية عن الرقابة والبروباغندا في الخارج.

سنة حبس مع التنفيذ الفوري. والعاقبة؟ تصفيق من كافة أنحاء العالم، بطلة يتحدث عنها الناس، امرأة لن تُنسى، نجمة يحبها البعض ويكرهها آخرون غير أنها تُصوّر في كل مكان وتُجرى معها المقابلات الصحفية.^٢

سمعتُ شخيراً خافئاً جوارري، فوضعتُ يدًا رفيقة على خصر كاترين، وحاولتُ أن أخدم جذوة الرغبة التي استعرتُ داخلي وحتّنتني على إيقاظ النائمة بحنان وإشعال شهوتها مرة أخرى، وأن أنسى كل هذه الحكاية البلهاء. كانت مستغرقة في النوم، وكل اقتراب منها كانت ستأخذه على محمل سيء. عندئذٍ أفرغني السؤال: ماذا ستقول كاترين عن هذه الفكرة التي تملكنتني؟ الإجابة واضحة: لذا قررت ألا أسألها، وألا أخبرها أبدًا بما يدور في رأسي.

في تلك السنوات لم أكن قد وثقتُ بعدُ بفطرة المرأة. كنتُ أفكر مثل الجنود وأبطال أفلام الكاوبوي: الرجل يأخذ قراراته الصعبة وحده، فالمرأة تفكر بقلبها، وهو أمر لا يزيد الأمور إلا تعقيدًا. ما أقلّفتني بالفعل كان السؤال التالي: كم سنةً في السجن تكفي لتدمير حُبنا؟ خمس؟ ثماني سنوات؟ أم نصف سنة؟

ولأنه كُتب عليّ أن أقضي نصف الليل أفكر وأفكر، فقد فضّلت أن أطلق تكهناتي حول أشياء ملموسة، مثلًا الأداة المناسبة للاغتيال. فكرتُ في المسدّسات والسم والهرات والسكاكين، غير أن خيالي كان محدودًا فقيرًا، مثل خيال الإنسان العادي، المبتدئ. لم تكن لدي خبرة في الإجرام، ولم أكن حتى من عشاق الروايات البوليسية. رُحت أتخيل إمكانيات عديدة، والقاتل في أوضاع مختلفة: أنا والمسدّس، أنا وزجاجة السم، أنا والهرادة، أنا والسكّين، لم أتحمس لأي شيء من هذا، كل هذه الأدوات بدت غير مقبّعة، كما في الأفلام الصامتة أو الرسوم الكاريكاتورية. وهكذا أجلتُ التفكير في المسائل المتعلقة بالتنفيذ العملي. اضمحلّت كل خطط القتل الجميلة، وتأقلم إيقاع تنفّسي مع تنفّس صديقتي، ولا بدّ من أنني غصتُ سريعًا في أمواج النوم الناعمة.

بالمُناسبة، إنني أدين لأكسل أيضًا بالفضل في اختصار اسم القاضي بالحرف «ر». إن من أمر بقطع رأس أبي، يستحق أن أقطع على الأقل عدة حروف من اسمه الكريم، حتى وإن بدأ الأمر صبيانًا، يدرس أكسل علم النفس؛ لذا أقنعتني حجته.

حكمة صفائح الزبالة

على مائدة إفطار صباح السبت كنتُ أقرأ مع كاترين الصحف التي علّقت على الحكم بجِدّة غير مألوفة. كان أكثر ما أثار غضب الصحفيين هو حيثيات الحكم الذي أصدرته محكمة المُحلفين. عبّر فنانجين القهوة وشطائر المربي تبادلنا قراءة بعض الجُمْل الواردة في تعليقات «تاجيس-شبيجل» و«فرانكفورتر روندشاو» و«برلينر تسايونج». كانت حُجّة رئيس هيئة المحكمة أن أحكام محكمة الشعب العليا سليمة من منظور تلك الفترة، لم ينتهك القاضي «ر» مواد القانون عندما شارك آنذاك في إصدار أحكام الإعدام. من منظور هذه الأيام فإن الأحكام غير إنسانية، غير أن كل دولة، ولا سيّما في أوقات الأزمات والحروب، لديها الحق في درء المخاطر التي تُهدّدها، ومن تلك المخاطر تسهيل مهمة العدو وإشاعة روح الهزيمة؛ ولذلك لا نستطيع أن ندين قاضياً اليوم لأنه أصدر تلك الأحكام آنذاك. بل حتى صفح «شبرينجر»^١ الشعبوية شاركت في حملة الهجوم: يوم أسود في تاريخ القضاء الألماني، ثم أوردت أول انتقاد للحكم: إنه حكم ببراءة فرايزلر.^٢

اشمئزاز كاترين وتعليقات الصحف هدّاً من روعي. لم أكن الوحيد الذي يشعر بالارتياح والصدمة. إلى هذا الحد كان حكم البراءة فضيحة كبيرة، إلى هذا الحد كان التناقض صارخاً، واستنكار الصحفيين واضحاً، ولذا لم يكن من الضروري أن أبرز غضبي. سعيّاً بموجة الاستياء العام عدتُ إلى شقتي، ونسيْتُ الخطط الهمجية التي نسجتها في الليل، ورحت أواصل أعمالي. كان لدي الكثير لأنجزه، فبدأت بالبحث الذي كنتُ أعدّه عن «العقد الاجتماعي» لروسو.

بعد أن كتبت على الآلة الكاتبة عدة فقرات، أحسست بالظماً إلى انتقادات جديدة للحكم، فأدرت المذياع قرب الظهيرة — وعلى الفور تلقيت عقوبة هذا العمل الطائش: ها هو مرة أخرى، الصوت الذي لا يدعني في هدوء. ماذا تفعل بصوت كهذا في رأسك؟

التجاهل، التفكير في شيء آخر، التركيز فيما تفعله. ولكن إذا لم ينفع ذلك كله؟ شعرتُ بالاضطراب. لماذا يمارس الصوت الآتي من «إذاعة القطاع الأمريكي» كل هذه السطوة علي؟ ولماذا أخضع لهذه السطوة؟ لماذا لم أستطع أن أنفض عني هذا الأمر المُتَوَهِّم؟ هذه المحطة تحديدًا، لماذا كانت للمحطة الأمريكية تحديدًا هذه السُّلطة علي؟ هذه السُّلطة التي تسوقني سوقًا إلى فعل مجنون كهذا؟

إنني أشعر بالضعف أمام الأصوات، الأصوات الإيحائية. وقعتُ في حب كاترين بسبب صوتها. إن الشعراء الذين يتعثرون في إلقاء قصائدهم بصوت ضعيف، لا يمكن أن يكونوا شعراء جيدين، أنا متأكد من ذلك. في قاعات المحاضرات لم أأخذ أستاذًا مأخذ الجد — مهما كان ذكيًا في كلامه — إذا راح يقدم لنا علمه بصوت ناعم. الأصوات حاسمة بالنسبة لي. ربما أستطيع أن أستخدم أصوات مُذيعين آخرين ترياقًا مضادًا؟ إذن، فلأدعُهم كلهم يدخلوا إلى غرفتي خلال فترة الظهيرة، واحدًا تلو الآخر، بين الثانية عشرة والواحدة والنصف، أساتذة الإلقاء من طبقة «الباص» أو «الباريتون»، المحمولين على الموجة القصيرة جدًا، الأصوات القوية من محطتي برلين الغربية، الأصوات الداعية من محطات برلين الشرقية، المذيعون الإنجليز والأمريكان والفرنسيون. كانوا يقرءون نصوصهم، وعلى الفور تتغير نبرة الصوت والكلمات المستخدمة، كل جانب من السور يحاول أن يهدينا إلى الحقيقة الواحدة الوحيدة لفهم العالم، ثم في النهاية ينتصر مذيع محطة القطاع الأمريكي، بصوت خافت، وبوضوح مؤلم: لا بدُّ من أن يقوم شخص بقتل السيد «ر». أنت ولا أحد سواك! خرب «ر» بحثي، أزعجني الصوت، هاجمني. ماذا أفعل إذن؟ لم يخطر على بالي في فترة الضحى شيء غير أن أستقلَّ السيارة وأقودها عبر شوارع المدينة، دون هدف، فقط لكي أطردهم هذا الصوت من رأسي.

لا أحد يريد أن يُجن، ولا سيَّما إذا كان هذا الشخص يتشبَّث بحلم العقلانية. في برلين كان هناك ما يكفي من أنصاف المجانين الذين يهيمون على وجوههم في الشوارع، بإمكان المرء أن يقابلهم في أي حانة على الناصية، وهم أيضًا يتحدثون عن أصوات في رءوسهم، بعضهم يحكي بافتخار، وبعضهم بنبرة شكوى. هناك من يشعر بأن المخابرات تقوم بتوجيه تحركاته عن بُعد، وهناك من يرى نفسه أداة في يد الشيوعيين أو ضحيةً للنازيين القابعين تحت الأرض. وسريعًا يعرف الإنسان مَنْ منهم يدعي الأهمية فحسب، ومن يحتاج إلى ذريعة لإدمانه الخمر. قد يكون من المفيد للغاية أن يدَّعي المرء الجنون؛ لأنه يسمع أصواتًا، ولكنني لم أكن أريد على أية حال أن أنتسب إلى هذا النادي.

هدأت أعصابي خلف عجلة القيادة، متجنبًا الشوارع التجارية المزدانة بالأشكال المضيئة لعيد الميلاد رحتُ أقود السيارة في اتجاه أطلال برلين المهجورة بجوار حديقة الحيوان، الأمر سواء، في أي اتجاه يسير المرء في هذه المنطقة؛ إذ لم يكن بالإمكان أن يضل المرء طريقه. الشرق يحيط بالإنسان من كل مكان، السور في مكان ما، عندئذ لا بُدَّ من الرجوع أو السير بمحاذاة الجدار الخرساني الخالي من الرسومات. وهكذا وصلتُ إلى ظهر «القاعة الفيلهارمونية»، فنزلتُ عند فندق «إسبلانادا»، وتوقفتُ أمام أحد الأكشاك، ورُحتُ أتفَرَّسُ في البطاقات السياحية التي تضم أحدث اللقطات عن سور برلين، وأتأمل في «الكيتش» المعروف: «نواقيس الحرية». تجنَّبتُ النظر تجاه ساحة «بوتسدامر بلاتس» الخبرة؛ إذ إن الصرخة كانت عالقة في الهواء في كل مكان: لن تهرب منه، من السيد «ر»، لن تهرب منه هنا! لقد ساعد «ر» على إطالة مدة الحرب! لقد شنع أشخاصًا كانوا يريدون إيقاف الحرب وإلقاء القنابل! لا خيار أمامك!

الشيء نفسه يتكرَّر في كل ناصية شارع، الصوت في الرأس يعلو ويغدو أكثر وقاحة، إنه يتحكم في مسار بصري، ويعاملني كأنني أبله، النازيون يتحمَّلون وزر كل شيء: الانقراض، الواجهات المتهاكمة الرثَّة، القبح المنتشر في كل مكان! ثم حانت اللحظة التي صرخت فيها مجاوبًا الصوت: ليس ضروريًا أن تقول لي ذلك ألف مرة! خلاص، كفاية! عندئذ خفَّ الصوت، وكأنه أراد أن يحميني. أحدث ذلك أثرًا مهدئًا في نفسي، ورحتُ أقود السيارة على السرعة الثالثة عبر الشوارع العريضة في أحياء شونبيرج ونويكولن وكرويتسبرج، شاعرًا بالسعادة لأن سيارتي تخلو من راديو.

بدأ المساء يحط أثقاله على المدينة، فتوقفتُ في «ناونين-شتراسه» حيث يسكن صديقي هانيس، وفكرتُ في أن أسأله عن كيفية التعامل مع صوتي الداخلي، لن أنطق حرفًا عن «ر»، ولا عن التكليف بالقتل طبعًا، ربما خَبر هو أيضًا أفكارًا جنونية مشابهة. الشاعر هانيس يركب البحار، وربما يعتقد بوجود العفاريت، إنه على كل حال مُرهَف الحس ومُفعم بالخيال، ولهذا لن يباير ويقول لي على الفور إني مجنون. ارتقيتُ درج البيت الخلفي إلى الطابق الثالث، ضغطتُ على الجرس، وانتظرت، ثم طرقت الباب بقوة. كالمعتاد، عندما أبحث عن هانيس لا أجده في المنزل.

في الأسفل، في الفناء الخلفي ذي الإضاءة الشاحبة، كانت تتكوم ألواح خشبية وأنقاض ودراجات وصفائح زبالة نالت نصيبها من الخطبات وفوقها طبقة من الرماد البني، ثم اللافتة المعهودة: «ممنوع اللعب! على الآباء أن يتحمَّلوا عواقب سلوك أطفالهم!» ضحكْتُ

من كل قلبي، ربما ضحكتُ على نكتة تحمل العواقب، أو ربما لأنني لم أُرِد أن أفسد على نفسي بهجة اللعب، وفجأة أشرق عليّ الفهم في وسط جحر الفئران هذا: لا مفر أمامك، من العبث أن تقاوم، ينبغي عليك أن تقبل التكليف. لم تكن هذه النية جادة أو احتفالية، إنها بالأحرى فكرة خطرت على بالي وكأنني أَلعب. يا لها من سخرية معزية! إننا نعرف من صمويل بيكيت أن الحكمة تنبع من صفائح الزباله.

لأول مرة خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية أشعر بالاسترخاء التام والثقة في النفس، وكأنني قد خبرت حكمة بوزية في هذا الفناء الخلفي: قل نعم، قل ببساطة نعم لكل ما يقوله لك صوتك الداخلي. وفي حالة الضرورة، أَلقِ كل الذنب على محطة الإذاعة في القطاع الأمريكي. أو على بيكيت!

كنتُ مأخوذاً بهذا الوضوح وأنا أقود السيارة في طريقي إلى المنزل، ثم توقفتُ أمام إشارة مرور، ورحتُ أحملق في محل جزارة، ورأيتُ — بهذه البدائية يعمل المخ — خطاطيف الجزار مُعلّقة في سجن «بلوتسنزيه»، ورأيت القاضي «ر» جالساً في وضِع مسترخ مُريب على الأريكة في بيته، وأمامه زجاجة شمبانيا. رأيت رءوس المشنوقين المنحنية إلى الأمام، ورأيت «ر» مع امرأة وثلاثة أو أربعة رجال وأمامهم كتّوس الشمبانيا. وسمعتُ صوت فرايزلر كما أعرفه من الأفلام القديمة، وسمعت السدادات تفرقع، ورأيت رغبة الشمبانيا والفقاقيع الصغيرة المتصاعدة، شمبانيا من ماركة «بومري» بالطبع، ورأيت الأيدي متغضنة البشرة تفرع الأنخاب، وسمعت نحنحات قبل أن يقولوا: في صحة براءتك، في صحة الحرية!

كيف يتعلم المرء أن يلجم خيالاً مُستثاراً مطلق العنان، خيالاً جموحاً عصياً على كل لجام؟ خيالاً لا يعوق انطلاقه أن يحاول المرء ببساطة أن يجمع أجزاء الصورة الواحدة معاً؟ ما هو هذا الإنسان، السيد المستشار القضائي سابقاً؟ ماذا تجد في الكتب عن القضاء النازي؟

وهكذا حدث أني لأول مرة كذبتُ على كاترين، بسبب «ر»، وأغضبتها مني. تعلّلتُ بوجود أن أوصل العمل في البحث الجامعي، وأنه ليس لديّ وقت للذهاب إلى السينما. «لأعبو السيرك» بإمكانهم الانتظار، أم إن الفيلم كان «اختبار الكفاءة» بطولة داستين هوفمان؟ لا تسعف الذاكرة المرء على الدوام.

قطع الرأس

لا بُدَّ من أن أحكي الآن حكاية أكسل، ولكي أحكيها ينبغي الرجوع إلى الوراء كثيرًا، إلى سنوات الخمسينيات البعيدة، بل إلى الأربعينيات، ولا بُدَّ من أن نخرج من برلين، وننتقل إلى سلسلة الجبال الوسطى في ولاية هسن، ونبحث عن بلدة فيردا الواقعة بين مدينتي باد هرسفلد وفولدا، ونسافر على الطرق الزراعية في الشمال عبر رينا، ومن الجنوب عبر روتنكيرشن، من الشرق عبر أونترشتوبل، ومن الغرب عبر فتسلوس أو لانجنشفارتس، ونقترب إلى وسط الوادي، ناحية الكنيسة ذات البرج السميك بقمته البصلية، في اتجاه المنازل العريقة المبنية بالخشب، ومخازن الغلال، والقصرين، وفي الخلف المروج الصاعدة، والحقول الواقعة أمام الغابات التي تغطي قمم الجبال المحيطة بالقرية.

هذا العُش النائي يلعب دورًا حاسمًا كمسرح للقصص التي أريد أن أبوح بها لكم؛ دافعُ جريمتي ينبع من هنا.

سنستمع الآن إلى الحديث الذي جرى بين طفل المدينة أكسل الذي كان يعيش في فيردا وطفل القرية الذي كُنْتُه آنذاك؛ إنهما في الثانية أو الثالثة عشرة من العمر، وتربط بينهما صداقة متينة، كعادة أكسل في العطلات الصيفية جاء مع أخيه رولف من برلين ليقضيا بعض الوقت في مزرعة العمّة. طفل المدينة وطفل القرية يجريان ذات عصر يوم أحد في طرق الغابة الواقعة فوق القرية، وكما تعودًا أن يفعلًا عندما يفقدان الرغبة في اللعب مع الإخوة والصّبية الآخرَين، ما زالت الشمس في كبد السماء، النسيم يداعب حقول القمح، والحصاد لم يبدأ بعد، ثم تأتي اللحظة التي يشكو فيها طفل القرية من أبيه الصارم الذي يختبره يوميًا — عدا أيام الأحاد — فيما حفظه من مفردات لاتينية، فيقول له طفل المدينة: عليك أن تشعر بالفرح؛ لأن لديك أبا. يفزع طفل القرية؛ لأنه يعلم منذ وقت طويل أن والد الصديق قضى نحبه في الحرب، ولكن بطريقة تختلف عن الآباء الآخرَين.

العصافير تطير وتحلق فوق الدروب، سنابل القمح وعيدانه تتماوج مع الريح في نعومة، حُمْرة زهور الخشخاش لم تكن دموية، فهي تلمع وتضيء إضاءة أجمل من الدم. بعد صمت طويل يتحدث طفل المدينة عن أبيه الطبيب الذي كان معارضاً للنازيين الذين بدءوا الحرب وتسببوا في موت الملايين من الناس. طفل القرية له أصدقاء آخرون لديهم بدلاً من الآباء صور الآباء فحسب، الآباء اختفوا خلف كلمات مثل «سقط صريعاً» أو «مفقود» أو «قُتل في الحرب»، صور يمكن مشاهدتها على الطاولات، كانت هناك حرب في الماضي، هذا يعلمه طفل القرية، وكان هناك قائد، «فوهر»، تحيط به الأسرار، يطلقون عليه «هتler» أو «أدولف»، وهي أسماء تُنطق بسرعة واختصار، في سرية وتحد، ولكلمة «النازيون» علاقة ما بالأمر، تلك الأشكال القاتمة التي لا يتحدث عنها أحد إلا بصوت خافت وبعد أن يتلفت حواليه، غير أنه لم يسمع أبداً بأب مثل هذا؛ ولأنه كان معارضاً للحرب، يقول طفل المدينة، فقد قتلوه، هؤلاء المجرمون. في ثانية واحدة ينتاب طفل القرية نوعان من المشاعر: الفرع من أن الألمان قتلوا ببساطة ألمانياً، طبيباً؛ والرعب من الإدانة القاسية للنازيين ووصفهم بالمجرمين. هذا جديد، جارح في وضوحه، إنه — بطريقة ما — يتجاوز الحدود؛ أبوه أيضاً يدين الحرب، أسوأ شيء في الدنيا، وأكثرها إثارة للحزن، هكذا يقول، افرحوا لأننا نعيش في سلام. طفل القرية يستشهد بأقوال أبيه أمام صديقه، ومع ذلك لم يقتله أحد، بل كان أسيراً لدى الفرنسيين. بسرعة يبادره بالرد: ولكن أبي قالها أثناء الحرب، أبوك بعدها.

القنابر نُحلق عالياً، دفء الشمس أمسى مزعجاً، طفل القرية يشعر الآن باحمرار وجهه، كان يريد أن يتباهى بعض الشيء بالفترة التي قضاها أبوه في الأسر، وهو قضى ثلاث سنوات على كل حال، والآن يشعر بالانكسار والخجل.

فترة صمت طويلة من جديد، ثم السؤال: وهل قتلوه بالرصاص؟ صمت. لا. صمت. شنقوه؟ صمت. لا. صمت. كيف قتلوه إذن؟ صمت. حدث ذلك في السجن. هيا، قل. لقد قطعوا رأسه، بماكينه ما، بشيء كالبلطة.

لحسن الحظ وصل الطُفلان إلى حافة الغابة، مكان ظليل به جذوع شجر مقطوعة ليجلس عليها الناس. لم ينطق طفل القرية بكلمة. في منتصف الوادي تقع البيوت ومخازن الغلال والحظائر، سكون، ليست هناك جرارات زراعية تسير في الطُرقات يوم الأحد، ولا عربات تجرها الدواب، الخنازير والبقر هادئة؛ لأن لديها ما تأكله. في وقت العصر تَصمت حتى الكلاب والدجاج والأجراس. الضجيج الوحيد: القنابر فوق حقول القمح. قطعوا رأسه، صدى هاتين الكلمتين الذي يصم الأذان يتردد بلا صوت عبر الوادي، ثم يرجع

الصدى وبيتلعه الدماغ. قطعوا رأسه، إنهم يفعلون ذلك مع الدجاج، إنهم يقبضون على الدجاجة من الجناحين، ثم الرأس، تتدفق الدماء، ويقع الرأس على الأرض، ترتجف الدجاجة وترتعش مرة أخرى. ذات يوم رأى طفل يضعونها على القُرْمة، حيث تحاول التملُّص، ثم تَرَفَع الفَلَّاحَة السكين — فهذا عمل تقوم به النساء — وتقطع الرأس، تتدفق الدماء ويقع الرأس على الأرض، ترتجف الدجاجة وترتعش مرة أخرى، ذات يوم رأى طفل القرية الدجاجة تطير في الهواء بلا رأس، بضربات محمومة من الجناحين طارت فوق نصف الحوش، ثم فجأة، وكأن رصاصة أصابتها، وقعت. قَطَعَ الرأس، الانتظار حتى تنزف الدجاجة كل دماؤها، نَتَف الريش، الغسيل، التمليح، ثم إلى الطَّنْجِرة، هذا هو قَدَر الدجاج. الأرانب مثلاً لا تقطع رءوسها، الخنازير تُقَتَّل بتصويب ما يُشْبِه السهم الصغير على الجبهة، البقر يُسَاق إلى السلخانة، ليس هناك حيوان آخر يُقَطَّع رأسه، لماذا يقطعون إذن رأس إنسان؟ لقد تُركَ طفل القرية وحيداً مع كلمتي «قطعوا رأسه»، لا يستطيع أن يتحدث عن ذلك مع الصديق الذي باح بالكثير. إنه يظل وحده مع الكلمتين: قطعوا رأسه. تربط الصداقة بين الطفلين منذ أن تعلَّمَا المشي ومنذ أن استطاعا الكلام، لقد كبرا معاً تحت سقف واحد تقريباً. هجر أكسل، ورولف برلين في الصيف قبل الأخير في الحرب، وسافرا إلى جدتهما في الأرياف التي استأجرت غرفة في بيت الكهنة المُلْحَق بالكنيسة، هذه الجَدَّة هي والدة أناليزه جروسكورت. منزل العمَّة الفلاحة — أخت جيورج جروسكورت — كان يقع مباشرة بجانب بيت الكهنة. بعد إعدام زوجها هربت السيدة جروسكورت إلى هنا أيضاً، العائلة مُوزَّعة على منزلين متجاورين، لا يفصل بينهما سوى باب الحديقة. لم تسقط على فيردا قنابل، في فيردا كان الطعام متوافراً، بعد ذلك جاء الأمريكان، وكان الطعام متوافراً أيضاً. الصَّدِيقان، وقد غادرا معاً مرحلة الطفولة المبكرة البائسة، ظلَّا متلازمين، حتى عندما أصبح أكسل طفلاً برلينياً بعد عامين من نهاية الحرب. على مائدة العشاء حاول طفل القرية أن يسأل الأب: ماذا فعلوا بوالد أكسل، هل قطعوا رأسه؟ غير أنه لم يستطع أن ينطق إلا بالجزء الأول. لم يجرؤ على التَّفَوُّه بصوت عالٍ بكلمة «قطعوا»، لقد تلعثم بسبب حرف القاف، وقد ملأَتْ صور الرعب رأسه أكثر من المعتاد. نعم، كانت تلك فترة سيئة، أجابه الأب، أعتقد أنهم أطلقوا النار عليه، لكنه كان شيوعياً. «لكن»، ماذا تعني «لكن» هنا، يسأل الطفل نفسه. شيوعي، كلمة مرعبة، رغم ذلك يتجرأ الطفل على توجيه سؤال آخر: ما معنى هذه الكلمة؟ الآن تأتي الإجابة أكثر ثباتاً وأقل تردداً: واحد مثل الذين يعيشون في المنطقة الشرقية، حيث لا حرية، وحيث يريدون

أن يمنعوا الدين. تتقافز أسئلة جديدة في ذهن الصبي، إلا أنه لا يجرؤ على طرحها؛ لأن كل شيء يزداد تعقيدًا وخطورة.

ثمة خطأ ما. إذا كان السيد جروسكورت مؤيدًا للمنطقة الشرقية، فلماذا تعيش السيدة جروسكورت هنا، ولماذا يعيش أولادها هنا؟ ثم الحرية، إذا كانت هناك امرأة تبدو حرة وطيبة وكريمة ومحبة للسفر والرحلات فهي أم أكسل ورولف.

لم يستطع طفل القرية أن يسأل طفل المدينة إلا في الصباح التالي: هل كان أبوك شيوعياً؟ لقد كان يود أن يسأل: لماذا قطعوا رأس الشيوعيين؟ ولكن هذا السؤال ظل أيضاً محشوراً في حلقه. تأتي الإجابة سريعة: من يقول ذلك؟ والدي! يتطلع طفل المدينة طويلاً إلى طفل القرية، نظرة مُعاقبة إلى الخائن. والداك لم يعرفا أبي، كل ما فعله أبي أنه كان يؤيد إنهاء الحرب والتوقف عن قتل البشر. ألم يكن — يسأل طفل القرية — يؤيد المنطقة الشرقية؟ لم يكن للمنطقة الشرقية آنذاك وجود يا مغفل! وشرع يضحك، طفل المدينة، ضحكة قاسية مُتبرمة لا تصدر إلا عن ابن المدينة، ضحكة لم يسمع طفل القرية مثلاً في حياته؛ لذا ولّى الفرار والخجل يغطيه، وانزوى في منزله.

طفل القرية يعرف أيضاً أن الحدود بين الشرق والغرب لم تقسم بلاده إلا بعد الحرب، غير أنه يشعر أن اللباقة تنقصه في مثل هذه الأحاديث، يشعر بأنه ضعيف وغبي، لا يستطيع أن يخطو فوق النيران التي أشعلتها الكلمتان «قطعوا رأسه»، أو أن يحاصرها أو يخمدتها. أسوأ من ذلك هو الغضب المكتوم، الفشل أمام الصديق، بل خيانة الصديق. إنه في حالة بائسة لا تقبل العزاء، تماماً كما حدث آنذاك، في الكارثة الأولى التي مر بها في الطفولة، عندما راح يبكي وينتحب لأنهم انتزعوا صديقه منه. كان على أكسل ورولف أن يعودا إلى برلين، الحرب انتهت منذ عامين. يجب على رولف أن يذهب إلى المدرسة، ولكن لماذا لا يبقى أكسل في فيردا؟ طوفان الدموع كان هو الوسيلة الوحيدة التي واجه بها فقدان الماثل، إلى أن جاءت السيدة جروسكورت وأهدته كتاباً على سبيل العزاء، كتاب أطفال حقيقياً، وليس كتاباً مصوراً فحسب، بل كتاباً حقيقياً يستطيع أن يطالعه لاحقاً، بعنوان «رحلة نيلس هولجرسون».

أخذ طفل القرية يبحث عن الكتاب القديم، لكنه لم يجده، لذلك تجنّب صديقه المحبوب حتى المساء، ثم تصالحا في الصباح التالي، وسحب طفل المدينة كلمة «مُغفل». لسنوات عديدة لم يجرؤ طفل القرية أن يكسر الصمت المحيط بـ «الرأس المقطوع» والغاز الشيوعية.

قطع الرأس

هنا، أستطيع أن أقول للخبير النفسي في المحكمة: تجد الخبرة الحاسمة في حياتي، ومن هنا يمكنك أن تبدأ في تحليل شخصيتي، ومن دموع ابن الرابعة وأوهام طفل القرية أرجوك أن تتوصل إلى النتائج.

هذيان الساخطين

عبر نهاية الأسبوع كانت الانتقادات الموجهة إلى الحكم قد زادت وتضخمت، فأفردت صحف يوم الاثنين أكثر من عمود لها، كما أظهرت الأحزاب كلها والنقابات جميعها الاستياء والسخط، وفي الخارج علا صوت الاعتراضات، حتى صحيفة «شبرينجر» اليمينية سبّت الحكم قائلة: إنه «استهزاء بدولة القانون». كنتُ في خير صحبة إذن، حتى صحيفة شبرينجر تواتيها أحياناً الجراءة وتنطق بالحقيقة. شعرت بالمؤازرة من كل جانب، ما منحني شعوراً نادراً بالسعادة.

«فليحيا رولاند فرايزلر»، هكذا لخصت مجلة «شبيجل» الأمر خير تلخيص. لقد وجدتُ المقالة في اللعبة الكرتون التي احتفظتُ فيها بالقصاصات القديمة، السطور التي كنتُ وضعتُ تحتها خطأ: «أثناء حكم هتلر كان بمقدور المرء أن يشنق الآخرين، ويضربهم حتى الموت، أن يعدمهم بالغاز ويُطلق عليهم الرصاص وينثر السم في وجوههم — وبالطبع يُعاقب الآن من اقترف هذه الجرائم، ولكن القضاء شيء آخر — كان بمقدور القاضي أن يصدر الأحكام في زمن هتلر، ويبقى الأمر بلا عواقب بعد هتلر. كان المرء «خاضعاً» للقانون، وهذه حالة لا يعاقب عليها القانون، بل حالة تراجيدية تفيض شرفاً وكرامة. ما أروع إصدار الأحكام! مَنْ يجرؤ على إصدار الأحكام بِنِيَّةٍ مُبَيَّنَةٍ على خرق القانون، ثم يسمح للآخرين أيضاً فيما بعد أن يثبتوا ذلك عليه؟ مَنْ يستطيع بعد حكم البراءة هذا أن يدّعي أن «القضاء مستقل» وأن يشكو إذا ضحك الآخرون عليه؟»

في منتصف المقالة كنتُ قصصتُ مستطيلاً: صورة «ر». تدّعي ذاكرتي أنني ثبّتها بالدبابيس على الحائط. بروفيل نصفي، وجه مستدير، رجل مُسن يرتدي بدلة داكنة اللون، الشعر ممشط إلى الخلف، وجه موظف صغير، عاديته تثير النفور. شخص ينسأه

المرء على الفور. شخص لا يريد الإنسان أن ينشغل بأمره لحظةً. شيء واحد يلفت الانتباه، نظرة الكلب هذه، العينان الناظرتان إلى أعلى في خنوع. الصورة المقتطعة من المقالة ضاعت مني، لم أتعرف عليها إلا في الأرشيف الصحفي، التذكر والاعتراف في حاجة إلى مثل هذه القرائن. لا بد أن الصورة على الحائط بجوار مكتبي ظلت بضعة أسابيع أو شهور نقطة جذب لبصري، هدفًا لنظراتي.

Monday, Monday, so good to be ...

لم أتحذث مع أكسل في التليفون إلا بعد ثلاثة أيام من صدور الحكم، مساء الاثنين. قلتُ له: وقاحة لا حدَّ لها، أنا غاضب، بالفعل غاضب.

لا أتذكّر ما قلّته بالحرف الواحد، لكنني أتذكر الخجل الذي اعتراني؛ لأنني لم أجد لغة مناسبة أعبر بها عن شعوري المتضامن معه، لم أجد إلا هذيان الساخطين، لم أكن أود أن تبدو كلماتي مثل برقية تعزية، ولا مثل تصريح سياسي. إن الحكم الذي يبرئ قاتل والده كان شيئاً حميمياً وعمماً إلى أقصى حد، كيف أستطيع التوفيق بين الأمرين في جملة تُقال لصديق مُرهَف الحس، وعلى التليفون؟ حتى لا أتصيد كلمات أخرى، سألتُه بسرعة عن شعوره لدى سماع الحُكم.

- لم أعد أتذكّر. الأمور لا تتغير، منذ عشرين سنة.

- ولكن على الأقل كانت هناك قضية. ومانشيتات.

- اسكت، اسكت. الأسبوع القادم سيكون الناس قد نسوا كل شيء.

- وما رأي والدتك؟

- لم تنتظر شيئاً آخر.

- في رأيي، علينا أن نفعل شيئاً.

- أنت طيب جداً! منذ عشرين سنة وأمي لم تتوقّف عن فعل أشياء ضد هذه العصابة،

فماذا كانت النتيجة؟ لا شيء، لا شيء. لقد أثارت كل محاكم المدينة ضدها، حتى محكمة الشعب العليا، ولا أحد يهتم بذلك. يمكنك أن تحتج، إذا أردت، وسنرى النتيجة.

لم تجرحني مرارة أكسل، كنتُ أعرف نبرته والملاحظات القاسية التي يرميني بها.

كان يدعوني «مثالياً»، وأنا أدعوه «متشائماً»، لعبة قديمة بيننا، حتى صديقي لم أبج له بشيء عن الفكرة التي تملكتني. ليس من المفروض أن يعرف أنني كنت أقصد أكثر من مجرد رسالة احتجاجية عندما تفوّهت بالجملة الغبية «علينا أن نفعل شيئاً». ثم سألتُه:

هل شاركتكم في القضية على نحو ما؟

- كنا نريد ذلك، بصفة مدّع ثانٍ، لكن المحكمة رفضت.
- رغم أنه لَفَّقَ حكم إعدام والدك؟
- رَفَضْتُ، قلتُ لك.
- وهافمان، هل حاول أيضًا؟
- على حدِّ علمي لا، الرجل لديه هموم أخرى الآن.
- لم يقبلوا أن تكونوا طرفًا في القضية، هذه فضيحة! فضيحة أخرى!
- لم أُنَدِ أطيق سماع كلمة فضيحة يا عزيزي، هذا شيء طبيعي جدًّا، الأمر يسير وفق نظام مُعَيَّن، بالإضافة إلى ذلك، جروسكورت لا يهم أحدًا. في ألمانيا الشرقية يحتفلون بحفنة من الشيوعيين الذين كانوا في حركة المقاومة، في الغرب بالضباط الذين حاولوا متأخرًا جدًّا أن ينفذوا انقلابًا على هتلر، وبذلك فإن الجانبين لهما مَنْ يقف وراءهما ويقدم الدعم لهما، أما الناس الذين هم مثل أبي، الذين فعلوا الكثير وخاطروا بالكثير، ربما أكثر من عديدين من أولئك الرفاق، فإن الجميع ينسأهم، إنهم سَقَطَ المتاع. هافمان وحده هو الذي أبقي المجموعة قوية؛ ولأنه الوحيد الذي ما زال على قيد الحياة فإنهم في الغرب يعتقدون أنه شيوعي، وهو لهذا كاذب ومتفاخر؛ ولهذا لا يعرف أحد في الغرب الـ «ألف ألف». والآن، هل تعرف ماذا يفعلون معه؟
- ألف ألف! ما معنى: ألف ألف؟
- اتحاد أوروبي، هكذا كانت المجموعة تسمى نفسها. كانوا سبَّاقين لعصرهم، سبَّاقين للغاية، هذا هو سوء حظهم. هافمان، هل تعلم ماذا يفعلون الآن معه، وهو المعارض لأولبريشت؟^١ إنهم الآن قد محوا اسمه تمامًا من «المقاومة».
- ولكنهم لن يستطيعوا قلب التاريخ!
- بلى! منذ فترة قصيرة نشرت مقالة عن «الاتحاد الأوروبي»، في مجلة ألمانية شرقية.
- المقالة لا تأتي على ذكر هافمان، وفي المقابل فإنهم يُعْظَمُونَ من قدر أبي. لو كان حيًّا لَقَذَفَ المقالة في وجوههم!
- هل من الممكن أن أقرأ المقالة؟
- عليك إذن أن تزور أُمِّي، لديها كل هذه الأشياء.
- مع العبارة سمعتُ اتهامًا مبطنًا؛ لأنني منذ عام أو أكثر لم أر أناليزه جروسكورت.
- (عندما أحاول إعادة كتابة الحوارات السابقة كي أدخلها في اعترافي، أسمع النبرة الغليظة والأفكار الفجّة، ولكن الأمر كان هكذا، لم نتحدَّث آنذاك حديثًا أكثر أناقة وسخرية

وذكاء؛ لذلك على مَنْ يريد أن يعرف كيف أصبحت قاتلاً أن يتقبَّل هذه الحوارات الجافة. التجميل لن يجدي شيئاً؛ إنه لَضَرْبٌ من الكذب أن أرسم صورة أكثر ذكاء ومهارة لي. إن خططي لم يكن لها أن تنبت وتزدهر إلا في هذه اللغة الضَّيِّقة، المنبرية بعض الشيء، التي يغلب الحماس السياسي على كل حرف من حروفها.)

ملاك لندن

على الإنسان أن يحتفظ بأفضل الخواطر لنفسه، وعلى الأخصّ بتلك المصرية. رغم ذلك كنتُ أطرح فكرتي للنقاش كل يوم، دون أن يلاحظ الذين أتحدّث معهم شيئاً، كما حدث — مثلاً — مع ملك لندن.

إنه صديق صديقي برونو، وصديقي أيضاً إلى حدٍّ ما؛ أحد أكثر الناس ودّاً وبشاشة، أما اسمه فمن أقبح الأسماء: هوجو. منذ أن تأخّينا قبل عامين في لندن أطلقنا عليه Angel of London، رغم أنه أمريكي الجنسية، وهو واحد من أنشط أصحاب المكتبات الهيبيز، Their Majesties' Bookseller دكانه في إيست هامستيد لا يُورّد الكتب إلى بلاط صاحبة الجلالة وحدها، بل يقوم على خدمة ملوك بريطانيا العظمى الحقيقيين، فهو المورّد الملكي للبيتلز والرولينج ستونز. عندما تعرّفنا إليه في سبتمبر ١٩٦٦م كان يتردّد على مكتبته: بول مكارثي، وميك جاجر، وبرايين جونز، وجون لينون، وكافة المشاهير الآخرين. كانوا يشترون منه أو يطلبون مجلات الفرق الأمريكية السرية، أو الكُتيبات الهندية في التأمل الروحي، وأناجيل ماو المقدّسة، وتعاليم بوذا، وكتيبات عن الطعام النباتي، وقصائد، وكل ما يحتاجون إليه من غذاء ذهني. لعل هوجو الوديع هو الإنسان الوحيد الذي ظل صديقاً لكلا الفريقين الغريمين.

في تمام السابعة مساءً والدقيقة السادسة والأربعين من يوم العاشر من ديسمبر، هكذا دوّنت في مفكرة الجيب، وصل ملك لندن إلى محطة قطارات برلين الواقعة بجوار حديقة الحيوانات، «برلين تسو». الزيارة الأولى لألمانيا، كان يريد أن يرى السور والاحتجاجات، يريد أن يرانا، بل لقد أعلن أنه يفكر في الحياة هنا.

كنت أتباهى — ليس فقط أمام كاترين — بأن صديق ميك جاجر، وجون لينون، وكيث، وباول هو أيضًا صديق برونو وصديقي. راحت كاترين تتحدث بحماس — مستهلك — عن لينون. أما هوجو فلم يكن يتفاخر بذلك، ولم يكن يريد أن يضايقه الآخرون بأسئلة عن حالة النجوم. رسالته: الناس متساوون في القيمة كأسنان المشط.

في ذلك المساء، عندما عرّفته إلى كاترين في الشقة التي يتقاسمها برونو مع شباب آخرين، قال هوجو على الفور:

– Wow! What a marvelous woman!

كان معتادًا على أن يُحَيَّي ببشاشة أشخاصًا لا يعرفهم، ويُوَزَّع عليهم مديحه، وبذلك كان يلفت الأنظار إليه، خصوصًا في برلين، حيث كان يُنظر إلى اللطف والبشاشة باعتبارهما من الأخلاق السيئة. استولت الحماسة على كاترين، وأشرق وجه هوجو، كان وجهه الصغير الباسم دومًا يزدان بنظارة بسيطة من النيكل ذات عدسات مستديرة، أما خصلات شعره نصف الأشقر ونصف الطويل، المفروق من المنتصف، فلم يكن في إمكان أي رسام للوحات الدينية أن يرسم أفضل منها. كان يلبس قميصًا هنديًا بلا ياقة، مُزَرَّرًا حتى العنق، وفوقه يرتدي سترة بلا أكمام أو ياقة تشبه «البونشو». رَكِبْنَا نحن الأربعة سيارتي الفيات ٥٠٠ القديمة، ثم قُدُّتْهَا إلى حانة في حي شارلوتنبورج؛ حيث كنا على موعد مع صديقة برونو. سألْنَا هوجو عن سبب وجود فجوات عديدة بين المنازل، فأجبنا بكلمات مثل:

– War, bombs, British and American airplanes.

ومن الخلف تصاعد صوت برونو يقول:

– Well done!

– But that was twenty-three years ago?

– The Germans like destruction.

هكذا رد عليه برونو. كانت حانة «الاسكتلنديين» مكتظة، لا أمل في انتظار أن تخلو مائدة. كلهم كانوا يتزاحمون على المجيء إلى هنا منذ أن احتسى بعض زعماء الحركة الطلابية بيرتهم في هذه الناحية من شارلوتنبورج. إلى ذلك كان المكان يستفيد من الشائعة المنتشرة بأن بادر^١ أخذ أكثر من علقه ساخنة في هذه الحانة، قبل أن ينتقل إلى فرانكفورت ويشعل النار في المتاجر هناك، ولهذا كان يجلس إلى الموائد صحفيون عديدون يبحثون عن حكايات، وسائحون يساريون يبحثون عن طريق يصلهم بعالم الثورة العنيفة. كان الزبائن الدائمون من الطلبة يتزاحمون حول البار وأمام الأبواب وإلى الحائط، وإذا كان الطقس معتدلًا يقفون في الخارج أيضًا، ومعهم كنؤس البيرة.

يجب أن يتضمن اعترافي كقاتل حكاية واحدة على الأقل من تلك الأمسية، أعني نقاش
الbullshit.

لم يكن مَلَاك لندن يشرب الخمر؛ لذلك طلب شايًا، وعندما جاءت الساقية وكيس
الشاي في الكوب، طلب أيضًا كأسًا من الماء. أراد برونو أن يجامله فسأله بعد فترة عن
شعوره في بلد النازيين؛ رد عليه قائلًا إنه لا يشعر بأنه في بلد النازيين، الناس هنا، شباب،
متحررون، بشعورهم الطويلة، هؤلاء ليسوا بالتأكد من النازيين، بالإضافة إلى ذلك فإن
النازيين وحدهم هم الذين يساندون حرب فيتنام، وأنتم ضدها، إذن كل شيء واضح. كان
هوجو أحد أكثر المعارضين حدةً وحماسةً لتلك الحرب وللمعارك التي تشعلها بلده في
العالم الثالث. كان من الممكن اعتباره مخترع شعار: Make love not war. رحنا نشكو
من صعوبة معارضة الحرب، ولا سيّما في برلين؛ حيث ترتفع على الفور هراوة «معادة
أمريكا»، وتهبط على رأس كل مَنْ تُسَوَّل له نفسه ممارسة أي نقد للولايات المتحدة. إذا
أتاكم أحد بهذه الهراوة — قال ضاحكًا — فاصرخوا في وجهه: نحن أصدقاء الأمريكيين!
إننا نتظاهر من أجل صديقنا هوجو من سان دييغو وملايين الأمريكيين الذين يفكرون
مثله!

ولكن، أضاف هوجو، عندما يعود ثلاثين عامًا إلى الوراء، ويتخيل برلين، ١٠٠ في
المائة «بولشيت»، ربما هنا في هذه الحانة بالذات، المُكْتَظَّة عن آخرها برجال الـ SA والـ SS،^٢
«بولشيت»، تركت هذه الكلمة انطباعًا كبيرًا لديّ. كيف كان يتجنب كلمة «النازي» ويقول
ببساطة: «بولشيت». شرحتُ له أوته أن حزب «البولشيت» لم يحصل في الانتخابات الحرة
الأخيرة في برلين إلا على نصف الأصوات فقط.

فرصة طيبة، فكرت، للتحدث عن المقاومة، ليس عن مقاومة الضباط والشيوعيين، بل
عن جروسكورت وهافمان والاتحاد الأوروبي، لكنني تراجعْتُ؛ لأنني لم أكن أعرف حكاية
المجموعة جيدًا، ولا كيف أقص شيئًا على نحو شيق.

وهكذا أدركتُ الحديث إلى القاضي النازي الذي صدر الحكم ببراءته. سخط عام على
المائدة، ثم أعلن ملاك لندن رسالته: Peace, peace to everyone! إذا كنا نريد تغيير
العالم، فعلينا ألا نقع في فخ الأنماط التقليدية للتفكير، by no means. علينا تجنب تلك
الأنماط كلها، تجنب كل أعمال العنف، ونزع فتيل كل نزاع. عندما اعترضتُ قائلًا: إنهم
قَتَلوا ومجرمون، رد قائلًا: ماذا سنستفيد عندما نرمي برجل عجوز من حزب «البولشيت»
في السجن؟ وتذكروا أوسكار وايلد: سامحوا أعداءكم، لا شيء يثير غيظهم أكثر من ذلك!

اعترضت أوته قائلة: إن علينا ممارسة العنف بين الحين والآخر، وهذا عنف مُضاد، لا أكثر، بين الحين والآخر «مولوتوف كوكتيل»، هذا أمر لا بدُّ منه كي نوقظ الناس من سُباتهم، وإعطاء «الحركة» دفعة إلى الأمام. كانت مثل هذه العبارات شائعة، منذ أن بدأ تمجيد المعركة التي جرت في نوفمبر أمام محكمة الولاية في «تيجلر شتراسه». اكتسبت كلمة «عنف» آنذاك هالة مقدّسة. حاولت أوته إشعال حماسة مَلاك لندن، فَحَكَّتْ له أنهم أجبروا محامياً يسارياً يُدعى مالر على أن يدفع التكاليف التي سببتها المظاهرة ضد صحف «شبرينجر» اليمينية، وما تبعها من اندلاع حرائق (واليوم نعرف أن دائرة الأمن الداخلي في برلين هي التي قامَت بتلك الأعمال). تظاهروا أمام المحكمة، وأجَبَ المتظاهرون قوات الشرطة على الهرب بعد أن أمطروهم بوابل من الحجارة، أول الانتصارات التي يتم تحقيقها تحت الرايات الحمراء.

ضايقتني آراء أوته ولهجتها المتهوِّرة، كنتُ أعتبِر المَعارك مع الشرطة أمراً طفولياً، وكنت سعيداً عندما رد هوجو نيابةً عني: Violence is bullshit، بهذه الطريقة لن نخرج من الفخ، إنكم بذلك تضربون أنفسكم، عليكم بالامتناع عن كل أعمال العنف، عن كل شيء يتعارض مع مشاعركم.

كاترين وأنا هزنا رأسينا، ما شجعه على إلقاء محاضرة طويلة شرح فيها مبادئه: علينا ألا نفعل شيئاً سوى love, love, love، أن نحب أكبر عدد ممكن من الناس، هذا هو السبيل الوحيد. لو كان النازيون البولشيت قد أُحِبُّوا الناس بدلاً من أن يكرهوهم، لو أُحِبَّ الأمريكيون البولشيت الفيتناميين، ولو أُحِبَّ الروس البولشيت التشيك، بدلاً من أن يحرقوهم بالنابلم ويقمعوهم بالدبابات ... هكذا واصل كلامه، وشعرتُ عندئذٍ أن مَلاك لندن أيديولوجي أيضاً. إن وداعته — سواء كان مبعثها الماريوانا أو مخدر الـ LSD — ليست إلا وسيلة لتبسيط العالم. إن شعار love and peace إغواء ديني جديد وجذاب، يشبه الدين القديم على نحو مُدهش، بوذا ولوتر يشدان معاً حبلاً واحداً.

حتى هذا الإنسان الوديع لم يستطع أن يجعلني أتخلّى عن خططي. على العكس: كلما زاد وعظ مَلاك لندن حرارة، قلَّت رغبتني في أن أكون مسالماً.

مواعيد العيادة

لا تأت قبل الثامنة، قالت لي السيدة جروسكورت، رغم ذلك وصلت مبكرًا جدًا، وهكذا رحتُ أتمشى قليلًا، على طول الشارع القصير المؤدِّي إلى ميدان «فيتسليبن» الذي يتفرع بزاوية حادَّة من شارع «كايزردَم». إلى اليمين كانت بحيرة «ليتسن» الغارقة في الظلمة، أماكن وقوف السيارات هادئة وبلا إضاءة، الظلام يحيط بنصب شيلر التذكاري، إلى اليسار مبنى المحكمة الضخم.

لم تزل معلوماتي شحيحة عن مستشار المحكمة القاضي «ر». توهمتُ أنه ظل يعمل حتى مدة قريبة في هذا الصندوق الحجري الضخم والمُعتم. كان آل جروسكورت يسكنون في «الكايزردَم»، ناصية بحيرة «ليتسن» وميدان «فيتسن لين»، وعلى الناصية الأخرى مبنى المحكمة، لا يحيط به سوى ثلاثة منازل. كان ذلك يتناسب على نحو رائع مع التناقضات الألمانية المرعبة: مكتب القاتل «ر» على بعد مرمى الحجر الشهير من ضحيته، أرملة جروسكورت وأبنائها.

لا تتيح مصابيح الشارع التعرُّف على واجهات البيوت إلا بصعوبة، رغم ذلك رحت أحدِّق في القلعة والمدخل الفخم الذي بُني على الطراز الفيلهلميني المُبهر، وكأنني سأجد هنا مفتاح سخطي واستيائي. لا ضوء خلف النوافذ، على ما يبدو كانت عاملات التنظيف انتهين من عملهن. جانب المبنى يمتد في ضخامة على الناصية مبتلغًا نصف «فيتسليبن-شتراسه». صندوق أسود، وبداخله كان مرتدو الأرواب السوداء يطبخون أحكامهم السوداء، ماكينة مظلمة تقوم بخلط البنود القانونية، لم تفقد شيئًا من خطورتها حتى وسط السكون الذي يسود بعد الانتهاء من العمل القضائي.

هنا، هذا هو مكان جريمته، قلت لنفسني لما عاودتني وسأوس أمسية نيقولاوس، هنا في هذا الشارع، «فيتسليبن-شتراسه»، عندما يغادر «ر» مبنى المحكمة ويمشي إلى سيارته، ثم

المسدس، والرصاصات. يا له من خطأ! هذا القاضي، عضو الهيئة القضائية بهذه المحكمة وبمحكمة الشعب العليا، كما عرفت بعد أيام، لم يصدر أحكامه القضائية بعد الحرب هنا في برلين، بل في شليزفيج.

تنتهي السيدة الدكتور جروسكورت من الكشف على مرضاها في السادسة مساءً، ولكن آخر المرضى كانوا يغادرون عيادتها بين السابعة والثامنة. دعنتني لتناول العشاء معها، وعندما وَقَفَت عند بابها كانت لا تزال ترتدي معطفها الأبيض. رَحَّبَت بي وقادتني إلى غرفة الانتظار في العيادة، وهي الغرفة التي يَعْبُرُها المرء ليصل إلى الغرفة السكنية والمطبخ.

– تبدو شاحبًا.

شاحبة كانت تبدو هي كذلك، العينان الحيويتان وتعبيرات الوجه البشوشة اليقظة تُمَوِّه الإجهاد الذي تشعر به بعد يوم عمل طويل؛ كان علي – أنا الصبي المتبلد المشاعر، أعمى البصيرة – أن أراعي ذلك. خَلَعَت المعطف، وقادتني إلى المطبخ. كانت وحدها في الشقة، لم يعد الأبناء يسكنون معها، وهكذا تَبَنَّنَتني على الفور.

– أنت محظوظ يا عزيزي! قبل أمس وصلني طرد من فيردا به هدايا عيد الميلاد، سجع وجامبون، كما أن على المرء ألا يترك «نقائق آله» فترة طويلة. تعال، وكل أولاً واملاً بطنك.

فيردا، الكلمة السحرية، المكان الملعون الذي تفضي إليه كل الخيوط، جذور حكاية جروسكورت وحكايتي. فيردا، ذلك العش الصغير الهادئ ربط بيننا، وورطنا معاً، كل مَنْ ينطق اسم القرية، كان يتلو بذلك صيغة سحرية تجعلنا على الفور مُسَالِّمين ومُتَهَيِّئين لاستقبال الذكريات. البعض يحتاج إلى مخبوزات أو مسحوق فوار، أما نحن فكانت قطعة من السجع الصُّلب المحفَّف جيداً تكفيناً حتى تطأ أقدامنا أرض الذكريات. كان يكفيناً طعم «نقائق آله» وما يفوح منها من أريج السَّمْسَق، تلك النقائق التي يصنعها فلاحو دورينج أقرباء جروسكورت وجيراني، حتى نستعيد على مائدة العشاء في برلين ذكرى تلك السنوات الجميلة المُفَعِّمة بالأحداث التي قضيناها في القرية. تحدثنا عن ابن أخيها صديقي الذي يتولَّى الآن القيام بشئون المزرعة، وعن دراما الفلاحين الشباب الذين يتحتم عليهم التخصص، وفي النهاية لا يتبقى أمامهم سوى العمل حتى الإنهاك من الفجر حتى غروب الشمس في حظيرة الخنازير. سألتني السيدة جروسكورت عن عائلتي وعن الدراسة، أُجِبْتُ باقتضاب؛ لأنني لم أكن أريد أن أضيع الوقت في التثرثرة حول تلك الموضوعات.

«هذا لتشو.» قالت بعد أن لاحظت ترددي في تناول برطمان به مخلات: «فلفل وطماطم من المجر، فيتامينات، يجب أن تأكل منها.»
 من المُلصق وقطع الفلفل التي تميل إلى البني أكثر منها إلى الأخضر أو الأحمر كان المرء يخمن على الفور أن البرطمان من «الناحية الأخرى»، من برلين الشرقية. هناك تعمل السيدة جروسكورت منذ الخمسينيات ثلاث مرات في الأسبوع، قبل الظهر، طبية في الإذاعة. كان عليها أن تعمل لأن الدوائر الحكومية في برلين الغربية ألغت المعاش الذي تحصل عليه باعتبارها تعرضت إلى ملاحقة النظام النازي، سأتي على ذكر ذلك فيما بعد، ولأنها كانت ترفض مبدئيًا الممارسات المعهودة من الأطباء في الغرب، ولم تكن تريد التريح من وراء مرضاها في حي شارلوتنبورج. بنقود الشرق كانت تشتري ببطاقة تسوق ألمانية شرقية مواد غذائية من «كارل ماركس شتراسه»، ثم تحملها عبر الحدود، من خلال السور، إلى حيث تسكن في الكايزردم. حكايات مُعقدة، نوادر ومسرحيات مؤثرة من زمن الحرب الباردة، محفوظة في برطمان يحتوي على قطع باهتة من الفلفل، لتشو من المجر، والآن أراه أمامي على المائدة الغربية وفوق صحن غربي. لم أجروُ على القول: إن طعمه لم يعجبني.

وأخيرًا تشجعت وسألتها عن جيورج جروسكورت. البداية أصعب شيء. كيف يتحدث المرء عن إنسان لقي مصرعه قبل أربع وعشرين سنة؟ قتله وقطع رأسه أناس ما زالوا أحياء ويتحركون بحرية؟ كيف يضع الإنسان — إذا كانت خبرته محدودة في مقاسمة الناس همومها — إصبعه على جرح ضخم كهذا؟ تمعنتُ طويلًا في الأمر، كيف أتحدث عنه، هل أذكر اسمه الأول، أم أقول «والد أكسل»، أم «والد أكسل ورولف»؟ وفي النهاية قلت، وكأنها لا زالت متزوجة بالرجل الميت: زوجك.

— أخ، ماذا أقول لك؟ هكذا بالتقريب جاوبتني أناليزه جروسكورت، ماذا أحكي؟ لقد مر وقت طويل على ما حدث، وأنا لم أعيش ذلك إلا على الهامش.

— ولكنَّ النازيين اعتقلوكِ أنتِ أيضًا؟

— نعم، ثمانية أسابيع.

يبدو أنني ألححتُ عليها بنظراتي كي تواصل الكلام؛ لأنها أجابت بخشونة: الإنسان لا يتحدث عن مثل هذه الأشياء وفي يده خبز وسجق!

شعرتُ بالخجل من فظاظتي، فاعتصمتُ بالصمت.

— القليل الذي أعرفه، أضافت بعد برهة، حكيته كثيرًا، يكفي ذلك، كما أنهم يزورون أقوالي. في ألمانيا الشرقية اعتبره هافمان شيوعيًا، مع أنه كان اشتراكيًا، ولهذا فإنهم ما زالوا

هنا في الغرب يطاردوني باللعنات منذ عشرين عامًا باعتباري شيوعية. جيورج كان معارضًا للنازية والحرب، هذا هو كل شيء. كما أنني لا أريد أكثر من ذلك، ولكنهم هذه الأيام يضعون في فمك ما يحلو لهم. الحكاية الحقيقية لم تُعدّ تهم أحد، باستثناء رولف وأكسل، إنهما يعرفان الكثير عن الموضوع، أسألهما.

– إنها تهمني أنا أيضًا.

فتنهدت وسألته عن سبب إثارتني للموضوع الآن.

– بسبب «ر»، قلت لها واعترفت بجهلي برجال الاتحاد الأوروبي الذين حكم عليهم «ر» بالإعدام.

لم تجب، فشعرت بالحرج، وحتى أكتسب تعاطفها وعدتها برعونة قائلًا: أريد أن أكتب شيئًا عن المجموعة، ربما.

– أنت طيب جدًا! لا تعرف شيئًا، وتريد أن تكتب!

– يجب عليّ بالطبع أن أجمع معلومات، ولهذا جئتُ إلى هنا.

– أنتَ مندفع جدًا أيها الشاب! ولكنني لا أثق في مقدرتك على ذلك يا عزيزي. عليك أولاً أن تأكل كيسيًا من الملح، كما يقول أهالي فيردا.

احمر وجهي. وعندما رأته منكسرًا أضافت:

– لن يضر في شيء أن تهتم بهذه المواضيع القديمة؛ سأعطيك شيئًا، اقرأه، ثم تعالِ واسألني إذا كنت تريد.

لم يكفني ذلك، وهكذا ارتكبت حماقة الكبيرة التالية التي خلت أيضًا من الكياسة. بعد أن سألتها عما إذا كانت قد حضرت جلسات محكمة الشعب العليا، وهو ما ردت عليه بالإيجاب، كنت أريد أن أعرف ما إذا كانت لا تزال تتذكر «ر».

لبرهة طويلة صمتت، ثم احتدّت قائلة: أنا لا أرى أمامي إلا فرايزلر، أسمع فرايزلر، صوته ما زال يجلب لي الكوابيس، كيف كان يصرخ، كيف كان يزار ويسب ويلعن. آنذاك قلت لنفسني: كيف سأقدم التماسًا بالرحمة؟ أفزع ساعات حياتي، أنا ... أنا ... لا أستطيع. أنقذنا رنين التليفون.

– حالة طوارئ، عليّ الذهاب، مريضة عجوز في «دانكلمان-شتراسه»، سنتحدث عن ذلك مرة أخرى، قالت وهي ترجع السجق واللشو والجبن والزبدة إلى الثلاجة.

تقدمتني إلى الصالة، وأمسكت بملف، وأخرجت منه مقالة:

– هنا، خذها معك، عندي نسخة منها، ليس كل المكتوب صحيحًا، ولكنها تحتوي على معلومات كثيرة.

لم أكن أريد أن أعطيها؛ لذا لم أسأل عما يحتويه الملف من مقالات أخرى. عندما وضعته مرة أخرى على الرف، رأيت بجواره صندوقًا مفتوحًا من الكرتون به صور.

– هناك صور أيضًا؟

– نعم، هذه هي الصور التي لم أضعها في الألبوم.

وأخرجت ثلاث صور.

– صورتان مع رودلف هيس، وهذه مع هافمان، لدي أكثر من نسخة منها، ولكن

أعدها لي.

اضطربت عندما سمعت هذا الاسم إلى درجة أنني لم أتفوه بكلمة، بينما كان كل منا يرتدي معطفه، ثم أخذت هي شنطة الأدوات الطبية، وأغلقت الباب ونزلت الدَّرَج معي.

– ليس عليك أن تنظر بدهشة إلى هذا الحد، جيورج كان أيضًا الطبيب الشخصي لهيس. ربما أحكي لك في مرة قادمة المزيد عن ذلك إذا كان الموضوع يهكم فعلاً.

في «كايزر دَم»، وبعد أن تبادلنا كلمات الوداع، قالت لي: ولكن عِدْني بشيء واحد: لا تسألني أبدًا عن فرايزلر.

كتاب الاغتيال

الصورة بالأبيض والأسود، وعليها سيارة سوداء وسط الجليد. ثلاثة رجال بملابس بيضاء يحيئون رجلين يرتديان ملابس داكنة اللون. كلهم بالزي الرسمي، هؤلاء في المعطف الأبيض للأطباء، وأولئك بمعطف الحزب والحزام. على رأس كلا الرجلين اللذين يرتديان الملابس الداكنة البيريه المناسب للزي، أما الرجال بالملابس البيضاء فيبدون غطاء رأس. في منتصف الصورة الرجل الثاني في الرايخ، معروف بكونه نائبًا للزعيم هتلر، وهو يضافح هنا أحد الطبييين. خلفه يقف في الزاوية اليمنى للصورة — نظرات الضيف المهم مركزة عليه — طبيب شاب. في خلفية الصورة الصغيرة، ٦ × ٩، شجيرات عارية، وأشجار وبنائيات ذات نوافذ.

في البيت، تحت مصباح المكتب، وبعد النظرة الأولى السريعة في ضوء السيارة الواهن، رأيتُ ما هو أكثر. قد يقول قائل: آه، النازيون وأطباؤهم، القتل وشركاؤهم في خلوة، تلك الصورة النمطية التي كوَّناها ونحكم بموجبها، إما بالأبيض أو بالأسود. الكتابة بالرصاص على ظهر الصورة تشي بالأسماء: رودولف هيس في مستشفى روبرت كوخ، موابيت، إلى اليمين د. جروسكورت.

الصورة الثانية: في الداخل، ثلاثة رجال أمام باب غرفة الكشف، النازي يقف في الأمام، الطبيب الشاب خلفه مباشرة، في الخلفية طبيب ثانٍ. يلقي هيس التحية مبتسمًا، البيريه والقفاز في اليد اليسرى. الطبيب الشاب، جروسكورت، يكاد يختفي خلف الرجل ذي النفوذ، يده على مقبض باب غرفة الكشف. ابتسامة الطبيب تشي بخبث ما، بافتخار صامت: انظروا، إنني أعالج هذا الرجل المهم، بعد برهة يكون تحت يدي، نائب «الفوهرر»^١ رجلان، الأول دخل كُتب التاريخ، والثاني — رغم أنه البطل الأعظم — ابتلعه النسيان.

مات في سبيل ألمانيا أفضل، كان عنوان المقالة التي شغلت صفحتين من مجلة «صحتك» الألمانية الشرقية. العدد الذي أعطتني إياه السيدة جروسكورت كان عمره يزيد على ست سنوات، مايو ١٩٦٢م. الكاتب طبيب، درس عند جروسكورت، وحصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٤٠م. في مقالته قام بتقديم سيرة له من وجهة نظر شخصية وطبية. أخرجتُ المقالة مرة أخرى بعد أن قرأتها آنذاك بامتعاض كبير. ألم يمتُ كل المقاومين في سبيل ألمانيا أفضل؟ على ما يبدو نجح جروسكورت في أن يطرد الفكر النازي من رأس الكاتب، الذي يسوق هذا الإنجاز الآن باعتباره تدريباً ماركسيّاً. بعد بناء سور برلين بقليل أرادوا أن يؤمّموا جيورج جروسكورت ويجعلوا منه نموذجاً للمواطن الألماني الشرقي الموالي للدولة، أن يجعلوه مناضلاً من أجل اجتثاث جذور الفاشية والروح العسكرية والإمبريالية في ألمانيا الغربية.

على كل حال تَضَمَّن المقال بعض الحقائق: ابن عائلة فلاحين من أونترهاون بالقرب من هيرسفيلد، لا تبعد كثيراً عن فيردا، باع الأب قطعة أرض حتى يستطيع الابن أن يكمل تعليمه، صداقة مع هافمان منذ ١٩٣٢م، طبيب ممتاز في مستشفى موايبت ذي الشهرة الفائقة حيث لم يُرَقَّ إلى درجة «طبيب أول» إلا في عام ١٩٣٩م؛ وذلك لأنه لم يكن عضواً في الحزب، مع هافمان في مختبر الأبحاث في المستشفى، ملتقى المُعَادِين للنازية، أحاديث سياسية صريحة، تكوين الجماعة مع الأصدقاء: طبيب الأسنان باول رنتش والمهندس المعماري هربرت ريشتر، جيورج يمنحها اسم «الاتحاد الأوروبي».

كان من المسموح به في عام ١٩٦٢م أن يستشهد المرء بأقوال هافمان فيما يخص المقاومة: المجموعة التي بدأت صغيرة ركّزت في البداية نشاطها في تأمين وضع الملاحقين من المناضلين ضد الفاشية واليهود. كانت تهتم بأمر الرفاق الأحياء الهاربين من القانون، تُجهّز لهم بطاقات الهوية المزوّرة وجوازات السفر والبطاقات الشخصية وأوراق السماح بالسفر. بهذه الطريقة تم إضفاء السمة «الآرية» على عدد من اليهود الملاحقين، آخرون تم توفير الملجأ الآمن لهم وتزويدهم بالسلع الغذائية. كان جروسكورت ينصح الشبان الذين لا يريدون الذهاب إلى الجبهة بتناول وصفة خاصة كانت تجعلهم يبدون مصابين بمرض شديد انطلى حتى على عتاة الأطباء في الجيش الذين كانوا يصدرون لهم شهادة عدم صلاحية للخدمة العسكرية، ولكنَّ المقالة لم تُبَحِّ للقراء في شرق ألمانيا بمحتويات الوصفة.

أمدّتني المقالة ببعض المعلومات الجديدة التي تتناسب تماماً مع صورة جروسكورت وهافمان: بين أجهزة المختبر والأنابيب والزجاجات والقوارير ينظر الشبان إلى الكاميرا،

كلُّ يرتدي معطفه الأبيض، هافمان أكثر نحافة، يقف مستنداً إلى الطاولة وفي يده سيجارة، أما جروسكورت الذي يبدو ممتلئاً بعض الشيء فيجلس على كرسي وفي يده فنجان قهوة. يسود التفاهم بينهما، هذا ما يلاحظه الرائي فوراً. تقاربهما لا يبدو متكلفاً. وهذا تحديداً ما أشعل نار فضولي.

صديقان، الأول صعد السلم الوظيفي واشتهر، والثاني طواه النسيان. لماذا أُعِدَّ الأول الذي يمسك بفنجان القهوة؟ ولماذا عاش الآخر الذي يمسك بالسيجارة؟ لماذا حصل أحدهم في السجن على تكليفات بالقيام بأبحاث علمية بعد أن كان قد صدر ضده حكم بالإعدام؟ ولماذا لم يحصل الآخر على شيء؟ علماء عديدون، هكذا ذكرت مقالة «صحتك»، بذلوا جهودهم لإطلاق سراح جروسكورت، لماذا لم ينجحوا في مسعاهم، بينما أنقذوا هافمان؟ هل كانت أفعاله أكثر؟ هل قدم اعترافات أكثر؟ هل عُذِبَ؟ من هم الأعضاء الآخرون؟ ماذا حدث لهم؟ ماذا كتبوا في منشورات الاتحاد الأوروبي؟ أين كانت تلك المنشورات؟ لماذا انكشف سر المجموعة؟ وشاية، غباء، صدفة؟

وهكذا جرّفتني دوامة الأسئلة التي كانت سرعتها تزداد كلما وجهت نظري إلى صور هيس. لماذا لم يكتب الطبيب الألماني الشرقي كلمة واحدة عن رودلف هيس، رغم أنه تحدث مع زوجة جروسكورت وشاهد الصور؟ هل كان ذلك أمراً معيباً في الشرق؟ هل لم يكونوا يستطيعون احتمال تلك الحقائق؟ وهيس نفسه، كم مرة أتى إلى المستشفى؟ وفي أي الأعوام؟ ولماذا اختار الدكتور جروسكورت بالذات؟ لماذا لم يذهب إلى واحد من آلاف الأطباء المتخصصين الآخرين في برلين؟ أي الأمراض كان يُعالج منها؟ وكيف كان جروسكورت يتحدث معه؟

وجدتُ نفسي مشتبكا مع مئات الأسئلة في الليل. ربما — هكذا أظن اليوم — أعارتني السيدة جروسكورت الصور حتى تختبر كيفية تعاملي مع هذه التناقضات: هيس العدو أمام السماعية الطبية، هافمان الصديق بجانبه. لم يخطر على بالها أي شحنة متفجرة أعطتني. هذا المسافة التي لا تنتهي والتي لا تعقل بين رودلف هيس، وروبرت هافمان، كلاهما يبدأ اسمه بالحرفين: «ر، ه»، الصور والمقالة شحيحة المعلومات فجّرتا مئات الأسئلة التي لم أستطع إيقافها أو التهوين من شأنها أو تجاهلها. كانت الأسئلة تنفجر كالصواريخ النارية، براقاة الألوان، سلسلة من الانفجارات، مئات من علامات الاستفهام المضيفة كانت تهطل فوق رأسي، أحكمتُ حصارها علي، إلى أن وجدتُ الخلاص في الكتابة.

الكتابة، هذا هو الحل ببساطة.

البحث عن أسئلة وأجوبة، نبذ الأجوبة ومواصلة طرح الأسئلة، البحث والتقصي والتمحيص؛ ليس إلا طريق واحد: الكتابة. مَنْ يعرف ما حدث، مَنْ لديه إجابات مقنعة، يمكنه أن يقف في الشارع أو أمام الميكروفون ويزأر بالشعارات، لا لوم عليه؛ ولكن مَنْ لا يعرف شيئاً أو لا يكاد يعرف شيئاً، من له نشأتني وتكوينني، ليس أمامه إلا خيار واحد: الكتابة. إذا تكاثرت الأسئلة وألحَّت عليك إلى هذا الحد، إذا لم تستطع أن تتحمل المتناقضات، فليس هناك سوى وسيلة وحيدة: مواصلة التساؤل على الآلة الكاتبة، إلى أن تتفاهم المتناقضات.

ما قُلْتُه لدى السيدة جروسكورت برعونة، أو كي أثير انطباعاً زائفاً، كان هو الشيء الصحيح الذي يتوافق مع فطرتي: أريد أن أكتب شيئاً عن المجموعة. في أذني كانت ترن الجملة التالية كأنها إهانة: عليك أولاً أن تأكل كيساً من الملح، أيها الشاب! في نشوة النوايا الجديدة، وبمساعدة زجاجة من البيرة، استفزني كيس الملح للغاية، وبالذات الآن، عليك أن تريها إذن ما تستطيع!

أفضل ما في خطط الكتابة هو أنها لا تعوق خطط القتل. على العكس، إنهما يكملان بعضهما بعضاً. بهرني حل توصّلت إليه، أو فلنقل بتعبير تلك الأيام «استراتيجية مزدوجة»: الإعداد لكتاب عن مجموعة جروسكورت-هافمان، واغتيال القاضي الذي أصدر حكماً بقطع رأسيهما. ينبغي أن يكون الأمران علنيين، الاغتيال سينفذ فور طرح الكتاب في الأسواق. الكتاب يشرح دوافع الاغتيال، والاغتيال هو النتيجة الحتمية للكتاب. وبذا يتحد أخيراً القول مع الفعل، وينتفي التناقض الذي طالما عذَّب أصحاب الكلمة. إذا قام كاتب شاب بمهاجمة القاتل «ر»، فإنه يعطي بذلك مثلاً لكل الحركة الطلابية، ما يُعَلِّي من شأن الأدب، وينعش الشعور الجماعي، ويوحد القوى التي تهددها الفرقة، كانت هذه أكثر الخيالات جسارة. سيحصد الكتاب الإعجاب، وكذلك الفعل، ستتسابق الصفحات الثقافية في الكتابة عن موضوع «القول والفعل»، وبذلك سأكافأ مكافأة عظيمة على كل الجهود التي بذلتها. لكن الخطط الطموحة ذبلت سريعاً تحت ضوء الصباح التالي. في حمى الحملات الخيالية التي شنتها ضد النازيين، وفي غمرة الجنون الذي سيطر علي وأشعرني بأني البطل الثائر، نسيْتُ أنني لست رجلاً حرّاً. كان علي — وإن بدت الجملة مبتذلة — أن أنتهي من دراستي الجامعية، ١٢ فصلاً دراسياً. كان عليّ تسليم بحث عن العقد الاجتماعي لروسو، كما كان يجب أن أقرأ كثيراً لحلقات دراسية أخرى كنتُ قد نسيْتُها تماماً، كان عليّ أن أنجز أطروحة دكتوراه، من أجل هذا الهدف كانت أُمِّي تقتطع ٢٥٠ ماركاً كل شهر من معاشها كأرملة.

كيف أستطيع أن أخطط إلى جانب ذلك كله لتنفيذ الاغتيال على نحو مُتَقَن؟ وأن أكتب الكتاب المُصاحِب لعملية الاغتيال؟ يجب عليّ أن أقتنص محادثات كثيرة من السيدة جروسكورت، أن أسافر إلى فيردا وأونترهاون وأسأل الناس هناك عن كل كبيرة وصغيرة، لا بُدَّ من اختراق ما يشبه الحصار المفروض حول روبرت هافمان، أن أسافر إلى جرونهايده، ثم — وهذا هو الأصعب — أن أذهب إلى شبانداو حتى أقابل رودلف هيس خلف أسوار السجن المخصَّص لمجرمي الحرب، عليّ البحث والتقصي في مستشفى موابيت وأن أصل إلى ملفات محكمة الشعب العليا، ثم أرتب كل ما جمعتُه من معلومات وأحوله إلى كتاب، بالإضافة إلى ذلك، عليّ مراقبة القاضي «ر»، وجمع معلومات عنه، ثم أخطط للهجوم كقاتل مُحترِف، أن أجهز سلاح الجريمة، وأحدّد المكان والزمان.

ليس السجن هو ما جعلني أتورّع عن تنفيذ خطتي، فأنا لم أكن أتوقع أكثر من سنوات قليلة. وليس الخوف من حياة فاشلة، فقد كنتُ أتوقع النقيض. كل التبريرات التي سَقَتُها بزهو وخيلاء من أجل الكتاب والاغتيال بدت لي مقنعة. كل التشبيهات كانت صائبة، لم يضايقني سوى الشكوك التي ساورتني بأن هذا كثير جدًّا على شخص واحد. سأعجز عن إنجاز المهمة.

سبت طويل

أمام دار بلدية شونبيرج ارتفعت شجرة عيد ميلاد ضخمة، مزينة في جانبها الأيسر بملصقات لنجمة داود، وفي الجانب الآخر بصور لماوتسي تونج. لا أحد يضحك على الصورة، أنا أيضًا لم أضحك: مَذْبَحٌ مسيحي بجناحين، أحدهما يهودي والآخر شيوعي، وفوق المكان كانت تحوم روح جون ف. كندي الذي قال هنا قبل خمسة أعوام جملته الشهيرة،^١ كالبابا عندما يُوزَّع بركاته. هنا تجمع عدد كبير من مختلف الأطياف، على أكثر تقدير ثلاثة آلاف إنسان، للاحتجاج على الحكم ببراءة «ر».

عندما يتجمع الناس في مظاهرة علنية — قلت لنفسي بعد أن أخذت إجازة ساعتين من الفيلسوف روسو — فإنَّ تجمُّعهم يلفت أنظار العالم كله؛ الألمان لم يقبلوا الحكم ببراءة من هُم على شاكلة فرايزلر. بِسَيْرِي في الشارع كنتُ أمل في أن أشتري سلامي على المكتب: دع «ر» في حاله! يكفي أسبوع من الفوضى في الرأس!

في إحدى العلب الكرتونية التي تضم أوراقًا قديمة وجدت منشورًا من تلك الأيام: كفى! إننا نطالب قوات الحلفاء الأربعة، الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي وبريطانيا العظمى وفرنسا، أن تمارس حقها المباشر الممنوح لها كقوة احتلال في برلين الغربية، لتأمين تنفيذ قرارات مؤتمر يالطا وبوتسدام. إن هاتين الاتفاقيتين تلزماننا بمكافحة النازية في ألمانيا واقتلاعها من الجذور. إننا نطالب قوات الاحتلال بأن تضع الاتفاقيتين أخيرًا موضع التنفيذ الجدي!

تحت شجرة عيد الميلاد كانت تقف بيّاتة كلارسفلد التي أضحت نجمة عندما صفت الرجل المناسب في المكان المناسب. مَظهرُها يذكر بمرضة، كانت تتحدَّث ببساطة، مُتخذة موقفًا صريحًا معاديًا للنازية. كان من الصعب فهم ما تقول؛ إذ إن مجلس الوزراء في ولاية برلين^٢ لم يُسمَح للمنظمين بالحصول على أي مساعدة تقنيّة، لا مكبرات للصوت ولا

توصيلات كهربائية، كان على المتظاهرين الاكتفاء بأصواتهم دون أي وسيلة تقوية، حتى الشموع في الشجرة كانت مطفأة. احتفظت ذاكرتي بجملة: على كل فرد أن يخوض كفاحه وحده. لم يصفق أحد على هذه الجملة، بل انطلقت صفارات استهجان، لم يكن الوقت ملائماً للذين يُناضلون وحدهم. في الأسابيع التالية عشتُ متوهماً أن السيدة كلارسفلد قالت تلك الجملة لها ولي.

كان أصعب شيء في تلك الفترة أن تجد مكاناً يبعدك عن المجموعات الكريهة التي لا تود أن يحسبوك ضمنها — وهؤلاء كانوا يمثلون الأغلبية. كنتُ أودُّ أن أقف في الأمام تماماً، عند الطلبة الذين يعلقون نجمة داود وعند بيّاته كلارسفلد. بعد خُطبتها سيطرت عليّ لوهلة فكرة أن أسير إليها وأهنئها، لكنني بالطبع لم أمتلك الشجاعة الكافية؛ معظم مُتظاهري الاتحاد الاشتراكي للطلبة الألمان كانوا يثيرون عندي شعوراً بالانزعاج لغرورهم وإحساسهم بالأهمية، أما الشيوعيون الألمان الغربيون، الذين كانوا يُعبئون أيديولوجياً من برلين الشرقية، فكنتُ أشعر ناحيتهم بانجذاب أقل. كانوا يطالبون كعادتهم بالقيام بـ «عمليات موحّدة ضد الفاشية». عدة مئات من المُسنّين كانوا يسرون شاحبين ترتسم على وجوههم سمات الطاعة. كان الحكم يؤكد صورتهم عن ألمانيا الاتحادية: **الجلادون يحصلون على معاش من الدولة، أما الضحايا فلا يجنون سوى الاستهزاء!** كانوا يُدافعون عن الإرهاب الروسي ضد التشيك، ولهذا أيضاً تجنّبُهم.

أما شباب الماويين فهم أكثر المجموعات التي أثارت اشمئزازي. كانوا يطلقون على أنفسهم «الحرس الأحمر»، يرفعون صور ماو في الهواء ويزارون بصوت جماعي متقطع: «ماو-تسي-تونج!» كانوا يُلوحون باللافتات التي علّقوها على عيدان خشبية عالية، في كل مكان نفس الصورة التي تفوق الحجم الطبيعي، وعليها ابتسامة البروباجاندا الوديعة للزعيم الصيني. الصورة الوحيدة التي سمحوا بعرضها في التلفزيون يوم الاعتراض على تبرئة القاضي، مئات المرّات، أثار ذلك أعصابي. ليس لرئيس الصينيين أي علاقة بالقضاة النازيين وضحاياهم، مطلقاً. بنظرته السلطوية يكسحهم من طريقه كسحاً، وبابتسامته يستهزئ بهم. وهو بذلك يساعد على تناسي الماضي. إن الصور التي تظهر زعيم بكين في زيه الرسمي — هكذا شعرت — تقتل مُناضلي المقاومة مرة أخرى.

ينبغي أن أنزع هذه الراية المقدّسة من أحد تلاميذ ماو على الأقل، غير أنني كنتُ أكثر جبناً من أن أفعل ذلك. كل ما فكرت فيه: لماذا لا نحمل على الملأ صور النساء والرجال الذين لقوا مصرعهم شتقاً أو رمياً بالرصاص أو بقطع الرأس بعد أن أصدر «ر» أحكاماً

قضائية بذلك؟ ٢٣٠ قتيلاً، حتى لو كان الأمر صعباً، قلت لاحقاً لكاترين: إنني سأجمع خلال أسبوع صوراً لهؤلاء، ليس عسيراً العثور على عشر صور أو عشرين صورة، أنا نفسي عندي عدد منها في البيت، صورة جروسكورت وهافمان.

لم تكن جملة كلارسفيلد وحدها هي ما جعلتني أنحرف عن درب الفضيلة، وأن أهجر روسو وواجباتي الجامعية، لم تكن هي وحدها التي حرّضتني على مُعاوَدَة التفكير في فعلتي، كلا، إنه السخط على أتباع ماو. أحد خطباء حزب الوحدة الاشتراكي في برلين الغربية وقف خلف الميكروفون، فاستقبله الجمهور بصيحات الاستهجان وصفارات الاستياء. عندما قال: إن «ر» حكم عليه شخصياً بالسجن مدى الحياة، رَأَى الصَّمْت بُرْهَة، ثم راح جناح ماو يصفق متهكماً. حاول أن يقرأ جملة القصيرة الحادّة، وكان عليه أن يناضل ضد الصفارات والصيحات الجماعية: «ماو تسي تونج!» أو «دوبتشك!»

قابلتُ أحد معارفي من سيمينار روسو، فقلت له: يجب أن نسبح له بالكلام! فأجاب بلا اكتراث: ليس من حق أتباع مراجعة التاريخ أن يظهروا هنا. كان يتميز بالذكاء في مناقشات السيمينار، يفوقني بمراحل في البلاغة والثقافة، والآن يدّعي أنه من الخطأ أن نتوقع من القضاء البورجوازي الفاشي شيئاً آخر غير أحكام بورجوازية فاشية. وأضاف: سيقولون: إنه كان علينا خدمة الشعب، وبالنسبة للشعب كانت مثل هذه الأحكام سواء؛ لأنه يعلم أنه ليس للقضاء البورجوازي الفاشي مهمة أخرى غير الدفاع عن الإمبريالية. بادرته بالقول: إننا نتحدث عن النازيين. - يبدو أنك أيضاً من الأتباع السريين لمراجعة التاريخ. لا يمكن إجراء قضايا ضد هؤلاء المجرمين إلا إذا قامت الجماهير بذلك، عندئذٍ فقط سيكون من المستحيل صدور أحكام بالبراءة كهذه.

كنا على وشك الوصول إلى محكمة الشعب العليا، فأعرضتُ عن مواصلة السير. أحسستُ بغصة في الحلق، وبحجر في أعماقي، في البداية شعرتُ بشيء كالبحة في حلقي، ولم يكن السبب تلوث الهواء في شهر ديسمبر أو ضوء العصر الرمادي الثقيل العكر. عدوتُ، ربما وحيداً، إلى محطة المترو، وكنتُ أعلم تماماً: لن تجد هواء ولا مكاناً ولا كلمة بين الأحزاب القديمة والجديدة.

ما أثار امتعاضي كان ذلك التسابق الطفولي على التظاهر والمزايدة كما وصفته كاترين. كان خطباء التمرد، في صراعهم حول الأماكن المتقدمة في الحركة التقدمية، يزايدون على بعضهم بعضاً بعبارات وأفكار تزداد تطرفاً. ما أشادوا به بالأمس باعتباره الطريق الثوري

الوحيد للخلاص، يلعنونه اليوم بلا خجل ويصمون به بأنه «إصلاحوي» و«مراجعوي». لم يكن في مقدورهم أن يبقوا على رأي واحد — هكذا بدا — لمدة شهر، كل وضع جديد، أو كل زعم بوضع جديد، كل نظرية يدرسونها تؤدّي إلى تقديرات واستراتيجيات جديدة — وهو أفضل عذر كي لا يتم المرء أي مشروع على الوجه الصحيح. أسرع، أبعد، أعلى، وبقدر الإمكان بأعلى صوت ... من يتقن هذه اللعبة، دانت له الغلبة على المنصة. أما الأتباع المحدثون للأيديولوجية الماوية والأتباع المتعاملون للأيديولوجية الروسية فكانوا أسوأ من ذلك بكثير. لم يكن حكم براءة القاضي النازي بالنسبة لهم سوى ذريعة للبروباجاندا.

لقد وصلت الحركة الطلابية إلى طريق مسدود — لم تخطر على بالي هذه الرؤية واضحة كما حدث في تلك الدقائق. ركبت مترو الأنفاق حتى ميدان «فيتنبرج»، ثم صعدت إلى غسق ذلك العصر الديسمبري، شاعرًا بالأمر كأنه خبطة على رأسي وسط الجماهير الغفيرة التي تموج بها شوارع التسوق. إنهم هنا، تلك الجماهير التي نبحت عنها، في يوم السبت، قبل أسبوعين من عيد الميلاد، مثقلون بأكياس التسوق، يركضون بتوتر رائع من متجر إلى آخر، ويتدافعون إلى أماكن وقوف السيارات ومحطات الباصات. لم أعد أرى وجوهاً، ليس سوى الأكياس والشنط، رجال متنكرون في زي بابا نويل يقفون أمام المتاجر ويتسممون ابتسامتهم الصفراء، في واجهات الصيدليات غصون من شجرة عيد الميلاد، كُريّات حمراء مُعلّقة في الشجرة أمام جدار من الورق المفضض في محلات مستحضرات التجميل، بين المعاطف والتَنُورات والبلوزات يتأرجح ملائكة زَهَبِيّو اللون على حبال ذهبية. في أحد الأركان وقف شاب يعزف على الساكسفون، وعلى اليافطة الكرتونية التي علقها كتب: «تبرّعوا لموسيقى من براغ!» وسواء كان هجر براغ فعلاً هرباً من الروس، أم إنه كان يستغل شفقةً ولأدها التلفزيونُ لصالح التشيك المقموعين، رُحت أصغي إلى عزفه على بعد مناسب. كان يرتجل تنويعات على أغنيات مشهورة، ما زلتُ أتذكر نغمات من أغنية: All you need is love. كان يبدأ النغمة المعروفة، لكنه لا يسترسل، بل يشرع في عزف تنويعاته. بين نغمات الساكسفون شعرتُ بوطأة حزني المتسلل. وعندما وصل إلى Strangers in the night، وراح يعزف نغمات رقيقة بسيطة، اغرورقت عيناى بالدموع. في الوقت نفسه سمعتُ صفارات الإنذار تصرخ مقتربة، وتوارت نغمات الساكسفون، عربات الشرطة تمرّق في اتجاه المتجر الشهير «كا ديه فيه» Ka De We. نفس اللعبة، شجار أو عراك مع جماعة ماو، كما سمعتُ لاحقاً في نشرة الأخبار. عدوتُ مبتعداً حتى لا أنفجر في البكاء، ولم أجرو حتى على تأمل حزني. لأسابيع ظللتُ ألوم نفسي؛ لأنني لم ألقي على الأقل بمارك لعازف الساكسفون، نعم، لقد غدرتُ بالشاب التشيكي.

الماويون، الجماهير، لاجئ براغ، كيف يتناسب كل ذلك مع بعضه البعض؟ كيف يُكوّن صورة متكاملة؟ لماذا لا يركز الاستراتيجيون من صفوفنا على أهداف قليلة، مثلًا صحافة شبرينجر، أو براغ، أو فيتنام؟ ما سبب تضخم العبارات الثورية والمفاهيم واليوتوبيات؟ لم تصل المجموعات للجماهير، لماذا تحتم عليها مواصلة الابتعاد؟ ولماذا تسير مع ماو ولينين وجيفارا وتروتسكي؟ أينما ذهب المرء، في كل اجتماع، في كل مظاهرة، وفي كل مقالة جديدة، كان من الواضح أن القوى الخلاقة الاستفزازية المعادية للسلطة آخذة في الازمحلال، وأن الأهداف قريبة المنال تُرفض باعتبارها «إصلاحية». كانوا يريدون تجنيد كل فرد — أيضًا تجنيدني — في حزب ما. في كل مكان يقابل المرء الأتباع الجدد لهذا الحزب أو ذلك، للحزب الثالث أو الرابع أو الخامس أو السادس، وكل حزب ينهش في لحم الحزب الآخر. كانوا يريدون منّي أن أؤمن بهذا الإله أو ذاك، برئيس ما، صغيرًا كان أم كبيرًا، أن أعتقد بطريق محدّد يقود إلى الخلاص السياسي. افعلوا ما يحلو لكم بدوني، قلتُ لنفسي، وفي أذني تتردّد نغمات Strangers in the night، ولذلك لن تروني في أي مظاهرة بعد اليوم.

وهكذا عدتُ إلى الصور السحرية الثلاث وإلى حكاية جروسكورت، وكلي عزم على أن أجعل الناس يرون على الأقل وجهًا أو وجهين أو أربعة من وجوه الرجال الذين قتلهم «ر».

أقوى المدافع

سار الحديث الثاني مع السيدة جروسكورت على نحو أفضل. حاولت في اليوم التالي أن أستخدم إجاباتها المترددة وتقاريرها المقتضبة عن المريض رودلف هيس كفصل من فصول كتابي. ظللت أسابيع أفعل ذلك، بعد كل جلسة مسائية أو بعد شرب القهوة معها في عصر الأحاد، أسجل ما قالته. شذرات، ملاحظات، مَسَوِّدات غير مُشَدَّبة، كل هذا لا بُدَّ أن يتضمنه أي اعتراف مكتوب:

في الصورة الأولى بالأبيض والأسود سيارة سوداء تقف وسط الجليد. ثلاثة رجال بملابس بيضاء يُحيُّون رجلين يرتديان ملابس داكنة. كلهم يرتدون الزي الرسمي، إما معاطف الأطباء أو معاطف الحزب. على رءوس الرجلين الداكنين البيريه الرسمي، أما الرجال البيض فلا يضعون شيئاً فوق رءوسهم. كل الأنظار شاخصة إلى الرجل في المنتصف: رودولف هيس، نائب الفوهرر. لا تشي الصورة بشيء، لا تقول: إن الطبيب الشاب إلى اليمين، الطبيب أول جيورج جروسكورت، هو الأقوى هنا، على الأقل لمدة نصف ساعة.

لا يحيد الضيف الرفيع عن نظر الطبيب. في قَسْمِهِ بالمستشفى اشتهر جروسكورت بقيامه بالنظر الفاحص إلى مرضاه دقيقتين أو ثلاث، وهو مُرْتَكِز باسترخاء على إطار الباب، اليدان في جيبي المعطف، ثم يتنبأ بالتشخيص، وهو، على ما تَدَّعي الممرضات، دائماً صحيح: «قدراته تفوق الرومان القدماء، إنه يستطيع أيضاً أن يستشف من حالة الأمعاء — التي لا يراها — مستقبل المريض.» منذ عام ١٩٣٦م وهو يعالج الأوجاع الخطيرة في المعدة والأمعاء لرئيس المقاطعة ألفريد هيس الذي كان ينصح أخاه ونازيين آخرين بالذهاب إلى الدكتور جروسكورت قائلاً: «د. زاوربروخ قال إن حالتي ميئوس منها، أما جروسكورت فقد أنقذ حياتي.» وكل بضعة أسابيع يأتي نائب الفوهرر إلى مستشفى موابيت ليكشف عليه الطبيب الشاب، أي شرف للمستشفى!

صورتان أمام غرفة الكشف: هيس بالبيرييه والقفاز في يده اليسرى، يرد بيده المرفوعة التحية، ربما تحية «هايل هتلر» التي ألقاها شخص لا يظهر في الصورة. يبتسم ابتسامة جامدة في وجه الكاميرا. يحد وجهه حاجبان قويان داكنًا اللون وجبهة عالية، مثل زميله الطويل يخلو وجهه من الشارب. خلفه، نصف متوارٍ، يقف جروسكورت وإحدى يديه على مقبض الباب.

يعرف الطبيب أن الواقف أمامه في صحة جيدة نسبيًا. إنه لا يتوهم شيئًا، هذا أيضًا مما تنطق به الصورة، فيما يخص المريض والعصابة الحاكمة، حزب الكذابين ومُثيري الحروب والقتلة وعُتاة المجرمين. على البيرييه نَسْر الرايخ بأسطًا جناحيه، وفي المخابل الصليب المعقوف. على جروسكورت أن يلتزم الحذر أمام هذا النَّسْر وهذا الصليب وهذه المخابل، عليه أن يمثل لمدة نصف ساعة النازي الكامل. عليه ألا يرتكب خطأ واحدًا. إنه يبتسم، يبدو متواضعًا في افتخاره: انظروا، نائب الفوهرر هو خير حماية لي، أفضل رجل يتجسَّس على النازيين لصالح!

الصورة الثالثة ليس لها وجود: القيصر عارٍ، بلباسه الداخلي والجُورَبين على سرير الكشف. إنه يدع الطبيب يُصغي، يدق، يسلط ضوء كشافه في حلقه، ويتحسَّس بطنه، يسمح بقياس ضغط الدم وبأخذ عَيَّنة من الدم. المريض قلق بشأن قلبه، ويشكو من سوء الدورة الدموية. رسم القلب ليس سيئًا بالنسبة لشخص قليل الحركة، مجبر على تحمُّل التناقض اليومي بين البروباجندا والحقيقة. يظل هيس صبورًا، يسأل بخوف عن آلام لا يعانيتها. يتكلم جروسكورت عن كيس صغير هنا، أو عن تصلُّب هناك وتحاليل دم نتائجها ليست جيدة. أما العلاج الذي يقترحه فهو بسيط: أخذ الآلام الصغيرة مأخذ الجد، ثم تضخيمها حتى يأتي المريض مرة أخرى. هيس من الأتباع المُتطرِّفين لنظريات التداوي الطبيعي، وجروسكورت يهتم بنظرياته، اهتمامًا صادقًا حينًا، وكاذبًا أحيانًا. الرجل الثاني في الرايخ سعيد؛ لأنه عثر أخيرًا في المعالج الشاب على طبيب تلقى تعليمًا كلاسيكيًا، ومع ذلك يستطيع أن يتناقش معه حول التداوي بالضوء والهواء والرياضة والنظام الغذائي والأعشاب الطبيعية. في دريسدن أطلقوا اسمه على مستشفى بأكملها مُخصَّصة للتداوي الطبيعي، ولكنها لا تكفيه. إنه يحب التردُّد على المعالجين بالقوة المغناطيسية أو بوضع الكف أو الذين يُشخَّصون المرض بالنظر، ويتناقش مع جروسكورت عن فنونهم، ساعيًا للحصول على تأكيد من خبير طبي. يثق هيس بمعالج يأتي بالمعجزات اكتسب قدراته من مُمارس هندي لليوغا. لقد بهر هذا المعالج عديدًا من كبار النازيين بالقوليات

والمغناطيسات والأنامل، وبهذه الأشياء استطاع أن يسحب الأمراض من الأجساد. يقوم جروسكورت بالفحص العلمي لتلك النجاحات المزعومة، ويصل إلى نتيجة سلبية، لكن هيس لا يستسلم ويطلب أجهزة علمية أفضل. سباق بين المدارس الطبية، يسايره جروسكورت، وينجح في إقناع المريض المحبّط كي يُموّل شراء أجهزة علاج حديثة أخرى للمستشفى. مثل غالبية كبار رجال النازية كان هيس مريضاً بالوهم، ولذلك يتحدث كثيراً عن نفسه. يعالج جروسكورت وكيل وزارة الخارجية، كما يعالج رؤساء مقاطعات وسفراء ومستولين في رئاسة الوزراء ورجال أعمال، ولكن ليس هناك من يثرثر مثل كاتم الأسرار الأعظم. عندما يكون منهكاً وفاقد الرغبة، أو في غمرة شعوره بتحسّن حالته يتحدث أحياناً عن عظمة الفوهرر، وعن التقدم الذي أحرزوه في الحفاظ على نقاء الجنس الآري، عن المهمة الهائلة التي يقومون بها، أي تصفية اليهودية العالمية في معسكرات ضخمة في الشرق، ودائماً بنبرة الواثق من النصر وبنجاح الضربات العسكرية المقبلة. بكلمات ملتوية يحكي هيس لطيبه في غرفة الكشف عن أسرار عسكرية، مثل الزحف المخطط له على الاتحاد السوفييتي في ربيع ١٩٤١م.

شخص مثل رودلف هيس بالذات يحتاج إلى أن يجلس بين الحين والآخر على كرسي الاعتراف كي يتنفس الصعداء وسط ما يبذله من جهد متواصل عندما يعطي أوامره الحادة ويقدم تقاريره صارخاً: «هايل هتلر!» استراحة من المناقشات المملة التي كان يجبر نفسه على الاستماع إليها صابراً، أو عندما يجلس أمام الفوهرر على كرسي صلب، محافظاً على قامته المنتصبّة المنتبهة، ومصغياً إلى الخطابات التي كانت تزداد في كل مرة طولاً. ثم أين يستطيع رجل نازي أن يُظهر ضعفه إلا في غرفة الكشف الطبي؟ لا يستطيع أن يفعل ذلك عند الرفاق، ولا وسط العائلة، أما القساوسة وآباء الاعتراف الآخرون فإنهم مُستبعدون تماماً. شرف المهنة يُلزم الطبيب بكتمان الأسرار، وهو يثق في هذا الطبيب ثقة لم يمنحها لأحد، فلم لا يخفف عن كاهله بضعة دقائق هنا، ويهرب من ذلك القالب الذي يجبره الحزب على التخشب داخله؟

نائب الفوهرر — هكذا يقول زملاؤه بحسد — مهووس بجروسكورت. يدين مستشفى روبرت كوخ في موابيت بسمعته الطيبة للأطباء اليهود الذين طُردوا منه عام ١٩٣٣م. لقد حل محلهم أشخاص من قوات الحماية وقوات الصاعقة، أطباء بائسون ترددوا طويلاً قبل أن يوافقوا على ترقية أطباء أكفاء مثل جروسكورت إلى درجة «طبيب أول». والآن ينظرون إليه شزراً مُتسائلين: لماذا يأتي نائب الفوهرر إلى موابيت، رغم أن لديه مستشفى خاصاً في

دريسدن؟ ولماذا لا يأتي إلينا؟ لماذا يذهب إلى هذا الجروسكورت العنيد تحديداً، رغم أنه ليس حتى عضواً في الحزب؟

– لا، قالت أناليزه جروسكورت، لا أكاد أعرف شيئاً عن الأحاديث التي كانت تدور بينهما على انفراد، كما لا أعرف سوى القليل عن أمراضه الحقيقية أو المتوهمة، ولم أُرِد أن أعرف، شرف المهنة. لم يخبرني جيورج إلا بما استطاع أن يستدرجه إلى قوله، بحذر بالغ، وبطريقة عابرة: إبادة اليهود، الخطط الحربية، المعسكرات. في المقابل أسدى لهيس خدمات كثيرة، فجعله يقلع مثلاً عن الفاندورم وأشياء أخرى ضارة. الأكيد على كل حال أن علاقة شخصية طيبة كانت تربط بينهما عبر سنوات عديدة. أمام مثل هؤلاء الأشخاص كان جيورج يُظهر ابن الفلاح الذي كانه، لا المثقف، وهو أمر كان يأتي بثماره. هؤلاء المستغلون لمناصبهم كانوا يحبون طبقة الفلاحين. كان جيورج يمثل أيضاً دور الرفيق العاشق للحزب، رغم أنه لم يكن يوماً عضواً في الحزب. بمناسبة عقد قراننا هنا هيس بباقة زهور ضخمة، ما زلت أحتفظ بالبطاقة المرفقة. كان يدعونا كثيراً إلى حفلات استقبال في منزله، وكانت تلك أسوأ الأشياء.

– أسوأ الأشياء؟

– لم نكن نستطيع الرفض؛ لأنه سيثير الشبهات حولنا على الفور. يعني كان علينا أن نسايره، وكان علينا التأق أمام العصابة النازية، والانحناء أمام ذلك الزي العسكري البغيض، ومُصافحة القتلة، ومقابلة مزاحهم السخيف بالابتسام المهذب، والصمت عندما يتفاحرون؛ كان علينا التحدث طيلة الوقت بلسانين والحياة في عالمين. كان أمراً مرعباً. في إحدى الحفلات كنت جليسته، حدث ذلك بعد حفل القران بقليل. فيما بعد قال جيورج: يشبه هذا ما كان يحدث في عصور الإقطاع. لحسن الحظ تقلص حق الأمراء في الليلة الأولى ليصبح الحق في الرقصة الأولى.

– أنتِ رقصتِ مع رودلف هيس؟ كيف كان ذلك؟ هل لديك صور؟

– اهدأ، يا عزيزي، اهدأ! هناك صور كثيرة لم تُعد موجودة. لم يكن يجيد الرقص، غير أنه لم يكن سيئاً. كنت أقول في سري: إذا لم يكن يحسن القيادة في الرقص، فعلياً أن أقوده، وسيكون لك من الشاكرين إذا لم تكوني سلبية مثل فتاة نازية تجعلها الرهبة مُتخشبة في رقصها. كل شيء كان خاضعاً للتكتيك. كان جيورج يعد أوراقاً مُزوّرة لليهود الذين يريدون الاختفاء عن الأنظار، وفي الصباح يعالج أناساً من معسكرات التصفية، بأسماء مُستعارة، وببطاقة تأمين صحي مُزوّرة، وفي المساء كنا نرقص الفالس مع تلك العصابة.

لم يكن لدينا خيار آخر؛ شعارنا: حَذَارِ أَنْ نَلْفِت الانتباه. سايرناهم، ونحن نطفح بالاحتقار لهم!

إذا كنت مرة في داخل هذه الدوائر، لن يخطر على بال أحد أبدًا أنك لا تنتمي إليهم. كان ذلك بسيطًا جدًا، وخطيرًا جدًا؛ لأنك لن تستطيع التمويه بشكل مُتَقَن تمامًا. ذات مرة سأل هيس جيورج أثناء الكشف عن سبب عدم تعليقه شارة الحزب. كان مستعدًا للسؤال: لقد قدّم طلب عضوية الحزب منذ وقت طويل، ولكنه ما زال في انتظار وصول دفتر الحزب وشارته، ثم أضاف: كما أنني لن أعلق شارة الحزب أبدًا على معطف الطبيب، وإلا تلوّثت بالدماء! لقد تشاورنا طويلًا في كيفية خروجنا من هذه الورطة. اهتدى جيورج إلى حيلة؛ قام بملء استمارة الحصول على عضوية الحزب، ووضع عليها تاريخًا سابقًا، ولكنه لم يرسلها، بل أحرقها، وظل محتفظًا بنسخة من الاستمارة كدليل. وللتمويه ألحّ علي أن أنضم إلى الرابطة النسائية الأقل خطرًا، الرابطة النازية للنساء.

ورغم ذلك لفتنا الانتباه، أتذكر أمسية كان أحد الأولاد النازيين من ذوي المناصب الرفيعة يتهمكم أثناء تناوله الطعام؛ لأن جيورج جاء لمقابلة نائب الفوهرر دون أن يعلق شارة الحزب. دافع جيورج عن نفسه قائلاً: إنه كان يزور مرضاه قبل مجيئه مباشرة، ولم يكن لديه وقت لتغيير ملابسه؛ ولذلك نسي الشارة. لم تكن حجته مقنعة للغاية؛ لذا سأله هيس في المرة القادمة عن ذلك، فأجاب جيورج ببرود: لم أكن أستطيع أمام هذا الجمع الراقي تشويه سمعة حزبنا والقول: إنه أحيانًا يتأخّر في الأمور التنظيمية، لذلك فضّلت أن أتحمّل أنا الذنب. بعد هذه الحادثة تركونا في سلام، هيس وحاشيته كانت لديهم هموم أخرى.

هكذا كان جيورج، كان يوافق هذا المجرم دون أن يعطيه الشعور بأنه ينافقه. كان هيس يحبه ويحتاج إليه، جيورج كان يحتقره ويحتاج إليه. كان أفضل حماية لنا إذا شك الجستابو في أمرنا يومًا. وقد سار كل شيء على ما يرام، إلى أن سافر هذا المغفل إلى إنجلترا في مايو ١٩٤١م. قبلها بأسبوع طلب منشطات من جيورج، تسوكليتون على ما أعتقد، حتى يظل يقظًا أطول فترة ممكنة. أعطاه جيورج هذه المادة دون أن يعرف بالطبع أنه يحتاج إليها بسبب رحلة الطيران الطويلة إلى إنجلترا. بعد ثلاثة أيام اتصل هيس وسأله عن مادة أقوى تأثيرًا، فأجابه جيورج: خذ ضعف الجرعة! ثم طار إلى إنجلترا. في غمرة جنونه توهم هيس أنه يستطيع إقناع الإنجليز بأن يشاركوا في الاجتياح الألماني للشيك للاتحاد السوفييتي لقطع دابر البولشفية بصورة نهائية. بقية الحكاية معروفة: اعتبره

النازيون مجنوناً، وهو بالفعل كان مجنوناً مثل معظم تلك الكائنات، والآن يقبع رفيقي في الرقص في سجن شبانداو على بُعد عدة كيلومترات من هنا، وما زالت الجملة الحزينة التي قالها زوجي آنذاك، في مايو ١٩٤١م، تتردد في أذني: لقد ضرب أقوى مدافعي طلقته إلى الخلف!

القلب الكبير

– أي امرأة هذه التي ترقص الفالس مع ألد أعدائها، وتفقد زوجها الذي حُكم عليه بالإعدام، وتُعزِّيك بنيلس هولجرسون، وبعد ذلك يجعلون منها هنا في الغرب ساحرة شريرة؟ هكذا سألتني كاترين قبل أن تتعرَّف إلى السيدة جروسكورت.

– إذا كنتِ تحتاجين إلى وصف لها، فبكل سرور: طويلة نسبياً، نحو متر و٧٨، قوام نحيف، شعر مُتموج قصير بُني غامق، نظارة. وجه بيضاوي حيوي، متيقظ، عيان بشوشتان، في الغالب مبتسمتان، وجه نادراً ما يكون صارماً، وكثيراً ما يكون مُنهماً. تجعيدات الوجه مصدرها الضحك في الأغلب، لا الهموم. أنف صغير، صوت رفيع دافئ، يميل إلى العلو. الدفء القلبي الحاسم، هذا هو ما يُميِّز طبعها. من يعرفها، يقول على الفور: قلب كبير.

– من أين أتت به؟

آنذاك كانت معلوماتي ضحلة، اليوم أستطيع الإجابة قائلاً: من العائلة ربما؛ والدها، هاينريش بلومبه، أحد المديرين رفيعي المستوى في قطاع الصناعة، في «كروب» و«دورتموندر أونيون» ومثل هذه الشركات، ثم تولَّى رئاسة «هانوماج»، ورئاسة قطاع اقتصاديات الدفاع؛ أي إنه عضو في الحزب. بورجوازي كبير، أعلى دخل، ورغم ذلك ذو حساسية وضмир سياسي. الأم، إليزه بلومبه، كانت تعمل مُربيّة أطفال في البلاط الملكي الإنجليزي. كل منهما لديه مشاعر وطنية قومية جارفة، لكنهما بعيدان عن النازية، كانا يبغضان الملاحقة المحمومة لليهود. عم أناليزه هو بالمناسبة فريدريش فيلهلم بلومبه، الذي اشتهر في برلين وهوليد باسم فريدريش فيلهلم مورناو، وحُدد في تاريخ السينما.

– فلننظر مع أناليزه، القلب الكبير.

– نهاية سنوات العشرينيات، الفتاة الشابة تَتَّهَم الأب بالعمل في قطاع التسليح، الأب يرد: لن تُغيّرِي العالم! أهكذا؟ إذن فهي تريد تغيير العالم، وأن تصبح طبيبة. في الثلاثينيات لم يكن أحد يدرس الطب؛ لأن درجاته مثالية. كان على الإنسان أن يؤمن بالنخوة وإغاثة الغير، كان عليها أن تتحلّى بالانضباط الأنثوي الصارم والميول الاجتماعية والتوجهات الاشتراكية. القلب الكبير لا يمكن أن يكون نازياً. فيما بعد قالت: وفجأة فُهِمْتُ ما يحدث. تُذكر ليل نهار في: جرايفسفالد، وإنسبروك، وروستوك، وبرلين، ثم تتلقى فترة تدريبها في مستشفى روبرت كوخ. رئيسها جيورج جروسكورت، رجل لافِت بمرحه وحيويته وذكائه وحماسته.

– ثُمَّ؟

– القوام الرشيق الجميل للفتاة ذات الستة والعشرين ربيعاً لَفَت على الفور أنظار نصير النساء جروسكورت، وزاد الإعجاب بسبب وجهها الرقيق وطريقتها الحاسمة. كان في الثانية والثلاثين من العمر، فُرِص التقارب عديدة، ولكن المعايير السياسية كانت هي الفيصل.

– السياسية؟

– ١٩٣٦م! ما رأيها في اليهود؟ هكذا سأل الطبيب بحذر. إنها تُكِنُّ لهم تقديراً كبيراً، ولديها صديقات يهوديات، وتخجل مما تُمارسه الدولة من مُعاداة للسامية. وبذلك تتم إزالة العائق الأكبر في طريق حبهما، فليتطايّر شرر الحب. تتردّد لمدة عام تقريباً قبل أن تقوم بتقديم الحبيب الذي تود أن تتقاسم معه الحياة إلى الوالدين.

– ابن فلاحين وفقير.

– بل أسوأ من ذلك، إنه يعادي النازية بشجاعة. ولكن الرجل الاجتماعي الساحر المثقّف ينجح بسرعة في كسب قلوب عائلة بلومبه. يد البنت تعني أيضاً ميراث البنت. الشرط: لا زواج قبل أن تحصل أُناليزه على درجة الدكتوراه. في قرية أونترهاون؛ حيث تمتلك عائلة جروسكورت أرضاً زراعية، يشعر الجميع بالفرحة لأن الابن العنيد – الذين يفتخرون به كلهم – سيتزوج أخيراً، و«بنت ناس» أيضاً، ودافئة القلب.

– قلب كبير، فهمنا!

– أوسع الأبواب مفتوحة أمامهما، شهرة مهنية، طبيبة وطبيب يكونان عائلة ناجحة، ولكن كيف يقاوم الإنسان إرهاب الحاضر؟ يصطحب جيورج خطيبته إلى صالونه، صالون ومقهى كونتسه، «ص (م) ك»، المُلتقى السري في قسم الأمراض الباطنية في المستشفى،

والمسمى على اسم المساعدة التقنية إلهه كونتسه التي كانت تُعد القهوة. عندما يرفع جروسكورت وهافمان شعار «بدأت التجربة»، كان يتجمّع في مختبر تحليل الدم بعض الأطباء والمرضات والمساعدين التقنيين، وجميعهم من المُعادين للنازية الموثوق بهم. قهوة، الوضع السياسي، نكات جديدة، قضايا طبية، نَمِمة حول رئيسات الممرضات النازيات والأطباء من فرقة الـ إس، إسطوانات «أوبرا القروش الثلاثة»، وفي المساء يقيمون أحياناً الحفلات. واجب الاستماع إلى خُطْب الفوهرر، الفتن التي يثيرها الأطباء المُوالون للنازية وعجزهم المهني، كل ذلك كان من الصعب تحمُّله. ووسط كل هذا كان على الأقلية الصغيرة أن تُنَفِّس عن نفسها على الأقل لمدة نصف ساعة في اليوم، أن تتحدث بصراحة وتضحك.

تبرهن أنايليزه في رسالة الدكتوراه على أن دواء الشينين والأسبرين ليس لهما تأثير على تطور مرض الإنفلونزا. بعد ذلك، في يناير ١٩٣٩م، يتزوجان في هانوفر، ثم ينتقلان للعيش في المنزل الكائن في «أهورن-أليه»، في حي شارلوتنبورج. يحصل جيورج على سيارة هدية. ولكنه يريد — بعد أن تكيّف مع الأوضاع ظاهرياً واكتسب بمهارته واجتهاده ثقة النخبة النازية — أن يفعل ما هو أكثر من سماع النكات: لا يجب أن تعرفي كل شيء يا أنايليزه. من الأفضل — إذا استجوبونا — أن تقولي بضمير مستريح: لا أعرف شيئاً. لا تأتي بعد اليوم من فضلك إلى الـ «ص (م) ك».

— على جانب كبير من الحيطة، هذا المناضل المُقاوم.

— هذه الكلمة، «مُناضل»، لا تحبها، تجدها أضخم مما فعلوه من أعمال صغيرة، المساعدة التي قدّموها بتلقائية.

— ولكن كيف يتحمل القلب الكبير هذا الشد والجذب، بين المدير في اقتصاديات الدفاع والمناضل المقاوم؟

— التفاهم بين الرّجلين كبير، يبوح جيورج لحميه بما استدرج هيس إلى قوله، ويقنعه تدريجياً بأن النازيين ليسوا سوى مُجرمين يرتدون أزياء رسمية. بعد الوعكة التي مر بها عام ١٩٤١م يجد بلومبه نفسه مرغماً على الاستقالة من وظيفته لدى «هانوماج»، فينتقل إلى العيش إلى حي فست إند في برلين بالقرب من ابنته وزوجها، ويتطور في الخفاء إلى مُعادٍ للنازية، يعمل لصالح شير^١، يمنح مبالغ كبيرة دون أن يسأل عن غرض استخدامها، إنه يخمن ذلك فحسب: لليهود هاربين ومختبئين. زوجة بلومبه لم تكن تريد الانتقال إلى برلين، وتفضل — بسبب الغارات والقنابل — الحياة في القرية، وتستأجر ثلاث غرف في مَقَر الكهنة في فيردا، التابعة لهونفيلد.

- هل لا بُدَّ أن تذكر دائماً فيردا؟
- سُرّة العالم، على الأقل سُرّة هذه الحكاية.
- وكيف تتحمّل ذلك، انفصال الوالدين في الإقامة؟
- الأمر عملي. مقر الكهنة يقع بجانب بيت لويزه دورينج، الشقيقة المفضّلة لدى جيورج. وهناك تستضيف رولف وأكسل، هناك يعيشون في الأيام التي سبقت الاعتقال في خريف ٤٣، وهناك تجد ملاذاً بعد الإعدام، هناك تشاهد تحرير ألمانيا.
- القلب الكبير، هل ضاق الآن؟
- على العكس: رغم أنها تَفقد والدها أيضاً الذي أطلق الرصاص على نفسه غيظاً وكمدًا؛ لأنه لم يقاوم النازيين، كان ذلك في ربيع ٤٥، في ساكسونيا، وعلى خلفية ما رآه من موجات اللاجئين من شليزيا. حصيلة الحرب بالنسبة لها لا يمكن تجميلها: الزوج قُتل؛ لأنه كان ناشطاً في مكافحة النازيين، والأب انتحر؛ لأنه لم يكن ناشطاً ضدهم، الأم تشعر بالمرارة. لديها طفلان، سنتان وأربع سنوات. فيض من الدموع والتعاطف من جانب الأقارب.
- وكيف استطاعت أن تتوازن؟
- ثلاثة وُعود مَنَحَتْها القوة: أقسمت على الوفاء لزوجها، وهو ترك لها وصية أن تواصل النضال ضد النازية وضد الحرب. كما أنها أدّت قَسَم أبقراط. هذه هي الوصفة الفعالة للقلب الكبير. كان بإمكانها أن تصبح طبيبة أرياف وهي في الخامسة والثلاثين، أو طبيبة في مصحة العلاج والاستجمام في باد هيرسفلد. لكنها تعود، وفي صدرها الألم والعزم، تعود في ربيع ٤٦ من فيردا الواقعة في منطقة الحماية الأمريكية إلى كومة الأنقاض برلين، القطاع البريطاني. ويتم الاعتراف بها «ضحية الفاشية»، وتعمل رئيسة الأطباء في مكتب صحة شارلوتنبورج في برلين، ثم تفتح عيادة لمرضى التأمين الصحي في شَقَّتْها، وبعد عام تُخَضّر الطفلين ليعيشا معها. تلفتُ نظر مَنْ يراها وسط أولئك الناكرين لأنفسهم الذين يعلمون بحزم وعزم وبشاشة، صلابتها وطيبتها يغدوان من الأساطير، إنها تُقدّم يد العون حيثما تستطيع. النساء أمثالها تم تكريمهن لاحقاً بوسام الدولة. أما هي — ولاتساع قلبها اللامحدود — فقد وُصِمَت بالساحرة.
- هيا، أكمل! كانت ستقول لي كاترين.

زيارة عدو الدولة

لن يلاحظ عليّ أحد شيئاً، ولا حتى أعتى رجال الشرطة في العالم، أعني شرطة الحدود والجمارك في ألمانيا الشرقية. حتى لو فحصوني فحصاً صارماً، لون العينين ولون الشعر وشكل الأذن اليسرى والطول المكتوب في جواز السفر، فإنهم لن يستطيعوا أن يستشفوا من تجاعيد جبهتي خطط القتل التي أحيكها. أردتُ أن أختبر ذلك، على الهامش، وأن أزور المُعْنَى بيرمان.

الزحف السلحفائي للمرور من السور كان يستغرق ساعة على الأقل من معبر «فريدريش-شتراسه». الوقوف عند شباك تسليم الجوازات للألمان الغربيين، ملء استمارات الجوازات، الانتظار حتى ينتهي التفتيش على الجوازات وفحص الأوجه، تسليم تأشيرة الزيارة، تغيير النقود، الوقوف في طوابير أمام الجمارك، تفتيش الأمتعة والشنط والنقود، وبين الحين والآخر (فوق البيعة) التفتيش البدني والاستجواب المُستفيض: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ وكل الطقوس مصحوبة بالقمع والجدية الصارمة في المعاملة والهواء الفاسد. هنا تعلّمت الانتظار.

بينما كانوا يفحصون جواز سفري ويسجّلون بياناتي، أو يفعلون بها ما شاءوا، كان عليّ ألا أحرك ساكناً وأن أقف خائفاً مَحْنِي القامة. لم أجد كرسيّاً أجلس عليه، ولكنني كنت محظوظاً ووجدتُ حائطاً أرتكن إليه. القراءة غير ممكنة، إلا لو كنت أحضرتُ معي عملاً لكاتب لا يثير الشبهات مثل جوته. ذات مرة صادروا مني هولدلين. كانت هناك منشورات دعائية، فأخذتُ أُلْقِبُ في كُتَيْبٍ عن النظام الصحي في ألمانيا الشرقية، ولكنني لم أقدر على إقناع نفسي بمزايا الجارة غير المحبوبة وأنا محشور بين أربعين أو ستين شخصاً ينتظرون في غرفة حارة بلا نوافذ. الطعام والشراب كانا ممنوعين أيضاً، ذات مرة صرخوا في وجهي؛

لأنني تجرأتُ على قضم تفاحة على «أرض الحدود»، على حد تعبيرهم. مَنْ يحاول التصوير أو تسجيل ملاحظات، سيقبض عليه فوراً باعتباره جاسوساً. الشكوى بسبب طول فترات الانتظار أو سوء المعاملة والتعنتُ لدى تخليص الإجراءات كانت تُعاقب بفترات انتظار أطول. لم يكن مسموحاً إلا بالكلام، ولكن لأن جميع مَنْ في الغرفة كانوا يعتقدون بأنهم يتجسسون علينا، أو أنهم بالفعل كانوا يتجسسون، فلم يكن أحد يريد أن يثير شبهات حوله بالكلام بصوت عالٍ.

ساد صمت جنوني في غرفة الانتظار، لا يقطعه على فترات غير منتظمة سوى الأصوات الأمرة لشرطة الحدود غير المرثيين الذين يُنادون على الأرقام. الأرقام هي نحن. الجميع يتصبب عرقاً، ليس هناك إمكانية لتعليق المعطف الشتوي. كل واحد يشعر برائحة المطهر شبه السام الذي يغطي على كل الروائح الأخرى في المباني العامة في هذا البلد الغريب، هذه هي الرائحة أو النغمة المميزة لألمانيا الشرقية. الدخول إلى ألمانيا الشرقية يعني التدريب على الطاعة، أن تمر بإجراءات تعسفية وتظل رغم ذلك مستعداً في كل لحظة كي تقابل أساتذة الطقوس التعذيبية في الخلفية بالاحترام والشكر على التأشيرة التي يتعطفون بها عليك في لحظة ما، كي تسعد بوضع قدمك على القارة الغربية في الشطر الآخر من المدينة. كل هذا تحمّلتُهُ؛ لأنني كنتُ أحاول الاتصال بأفضل أصدقاء جروسكورت، هافمان، الشاهد الملك. لم يكن سوى طريق واحد، عبر السور، إلى صديقه بيرمان الذي كنتُ على علاقة جيدة معه، ولكن هذه حكاية أخرى.

في هذا المكان القفر، كنتُ أقول لنفسني مراراً، ليس أمامك سوى شيء واحد: التأمل. الاسترخاء، شهيق عميق، الاسترخاء، من أين؟ إلى أين؟ الاسترخاء، الشعور بالابتعاد، زفير عميق، تلوين الرغبات العابرة في غشايا المخ. أو — إذا لم أوفق في ذلك — ملاحظة ما يدور حولي. هنا، حيث لم يصور أحد في يوم ما صورة أو فيلماً، حيث لا يستطيع رسام أن يُهرّب ورق الرسم، هنا يتوجّب على الكتّاب أن يعملوا، هنا يمكنك أن تتمرّن على الوصف، الألوان — مثلاً — التي لم تعد ألواناً، بل خليطاً حائلاً لا يمكن تحديد هويته، خليطاً من الرمادي والبني الفاتح، أو الشبائيك، أو اللافتات، الوجوه تحت القبعات الرسمية، تكنولوجيا حراسة الحدود.

أما الأكثر إثارة فهو مُلاحظة كيف يتصرف أهل بلدي أمام الزي الرسمي لألمانيا الأخرى. لحظة الراحة والاسترخاء على وجه المنتظرين عندما تُنادى أرقامهم أخيراً، وكأنهم اشتروا الرقم الفائز بالجائزة الأولى، فسُمح لهم الآن بمغادرة جهنم المُصغرة في غرفة

الانتظار، وبمواصلة السير عبر مَطْهَر نقاط التفتيش، وخلال ربع ساعة يَصِلُونَ إلى الفردوس الرمادي^١. خيبة الأمل لدى الآخرين الذين يجدون أنفسهم مُرغمين على الصبر بعد النداء على الأرقام، فيُعَيَّرُونَ من وُضْع جلستهم أو القَدَم التي يرتكزون عليها. كانوا قد فرَّزونا باعتبارنا من حاملي جواز ألمانيا الاتحادية. أما الأجانب والبرلينيون الغربيون فكان عليهم أن يتزاحموا أمام الشبابيك الأخرى. ولكن الجواز الجيد لم يَحْمِنَا من الخوف المرتبك المتصاعد من الرائحة والبلاط والطلاء وعَرَق المنتظرين والأصوات العسكرية. المبتدئون وحدهم الذين يتعرضون لطقوس التفتيش المملة للمرة الأولى هم الذين كانوا يُظهرون خوفهم بوضوح ودهشة وتساؤل ونظرات مرتعشة. أما الذين أضحت الطقوس روتيناً بالنسبة لهم — وأنا من بينهم — فكان من السهل التعرف عليهم من الابتسامة التي تَسخر بالمبتدئين، من الاسترخاء الذي يتصنَّعونه عندما يَتَمَشَّشُونَ بين المنتظرين، وبه يُخْفُونَ غيظهم من الفحص الطويل للغاية. بجانبني وَقَفَ شاب، له وجه ملاكم، مُنْغَلِق على ذاته، هادئ، اعتقدت أنه لا يظهر شيئاً، ولهذا فهو يخبئ شيئاً، قد يعمل مساعداً في التهريب. وخلفه رجل وامرأة حسناً الهندام، يُخفيان امتعاضهما من العوائق التي يتحتم عليهما أن يجتازاها. أبناء الطبقة الراقية يحاولون أن يُمَوِّهوا اشمئزازهم، وكأنهم لا يرغبون في إفساد فرحتهم بالتجول في متحف «برجامون» والذهاب إلى المسرح، فرحتهم بالأسطوانات والعشاء في مطعم «جانيميد». أما أكثر المنتظرين طبيعياً فكانوا أبناء جيل الحرب، نساء ورجال طاعنون في العمر، يحرسون بصرامة شُنتهم وأكياسهم البلاستيكية، وكأنهم في وَكْر لصوص، مُرسِلين نظرات عنيدة في اتجاه جبهة الأزياء الرسمية.

ورغم الاختلاف الطفيف في السحنات الصامته والأوضاع المتخشبة للأبدان، فإن الجميع كان يقف منكمشاً في خنوع أمام السلطة الأجنبية. أنا أيضاً، يا مَنْ كنت أود أن أكون معادياً للسلطوية. هنا قَبَعْنَا معاً، العواجيز والشباب والنساء والرجال، اليمينيون واليساريون، الأذكى والأغبياء، أصدقاء وأعداء الدولة الاشتراكية الأولى على الأراضي الألمانية، كما تقول الشعارات بافتخار. كان عليّ أن أحشد كل جُبْنِي حتى أستجمع الشجاعة اللازمة للقيام بفعلتي.

ثم الاختبار عندما جاء عليّ الدور أخيراً حاولتُ — بعد أن تَخَلَّصْتُ من خُنوعي — أن أنظر بثقة مُخَفِّياً خطة القتل وراء الجبين. فَحَصَّ موظف الحدود شكل أذني ولون العينين، وتخيَّلتُ أنني أطلق النار. سار كل شيء على ما يرام، وحصلتُ على الختم. إذا لم

يَر رجال الحدود — الذين يشكون في كل شيء — في قاتلاً، مستقبلياً، فلن يرى أحد في الغرب في القاتل، لا الشرطة ولا رجال القانون ولا الأصدقاء، خاصة وأنهم كانوا ينظرون إليّ باعتباري أكثر الناس طاعة وهذوءاً، شخص لا يقول شيئاً، وإذا قال شيئاً بدأ غالباً في التهتهة، شخص لا يتزاحم أو يتدافع إلى حيث الضرب والشجار والتلهيل والصراخ. أفضل الشروط متوفرة إذن لإحداث مفاجأة ناجحة.

عندما اجتزت كل نقاط المراقبة والتفتيش، هذه المرة بدون تفتيش شخصي وبدون أسئلة، سرت في غيبش الغروب بخطي مترددة في «فريدريش-شتراسه»، وبعد خمس دقائق وصلت إلى ناصية «شوسيه-شتراسه». كل ما مر حتى الآن كان لعباً، الآن قد يصبح الأمر خطيراً. بسبب قصائده وأغانيه كان بيرمان يُعتبر عدواً للدولة الشرقية، كان يتعرض للاضطهاد والتعنت والرقابة، مَنْ يزوره، يثير الشبهات حوله. كنت أعرف القواعد، فكثيراً ما ساعدته على اختراق المحرّمات. من حين لآخر كنت أقف أمام واجهات المحال حتى أرى — دون لفت للأنظار — ما إذا كان يتبعني أحد، ولكن، لم يكن الأمر كذلك على ما يبدو. لم أشعر بالخوف، ولكني لم أكن أستطيع أن أستبعد الرقابة استبعاداً مطلقاً، ولهذا بقيت حذراً.

كان مدخل منزل بيرمان في «شوسيه-شتراسه» موضوعاً تحت المراقبة على نحو لا يلفت الانتباه، هذا أكيد، بذلت جهدي ووضعت قناعاً بريئاً قدر الإمكان على وجهي، صعدت إلى الطابق الثاني، وضربت الجرس. لم يتحرك أحد خلف الباب. انتظرت وبعد برهة ضغطت ثانية على زر الجرس. لم يكن يعرف بحضوري، الواحد هو وحظه عندما يأتي إلى هنا. كانت هناك إشارة مُتَّفَق عليها بين الذين يَودُّون رؤية المغني المُحاصر: في المرة الثالثة رن الجرس ثلاث مرات قصيرة. كان حَظِّي سيئاً، كل التعب بلا طائل.

لم يكن من الذكاء ترك ورقة في صندوق البريد، فرجال «الشتازي» لن يكونوا من «الشتازي» لو لم يكن معهم مفتاح.^٢ من الحق الاتصال به تلفونياً، فكل المكالمات يتم التنصت عليها. الرسائل البريدية كانت تَمُر على الرقابة. رن الجرس لدى صديقه التي تسكن في «تال شتراسه»، لم يكن مسموحاً به إلا في حالات الضرورة القصوى. بقيت إمكانية العودة مرة ثانية، وإذا واتاني الحظ يُسَمَح لي بالدخول والجلوس على الكنب، وبعد تبادل المجاملات وسماع أحدث الأغاني، أقوم بقطع حديث المغني المتدفق كالشلال وأطلب منه — بعد أن نرفع صوت الراديو للتشويش على أجهزة التنصت — أن يسأل صديقه هافمان أن يأتي إلى هنا، رغم كل ألوان العنت التي سيواجهها، حتى أستطيع التحدث معه عن صديقه جروسكورت.

اليوم تبدو الخطة حمقاء، ولكن في ديسمبر ١٩٦٨م لم تكن شهرة الرجلين عُدَّوي الدولة كبيرة إلى الحد الذي يمنع مقابلتهم، كما أصبح الحال فيما بعد. كنتُ قد أسديت لبرلمان معروفاً أكثر من مرة؛ لماذا لا يسدي إليّ معروفاً إذن؟ وكنتُ من السذاجة بحيث اعتقدتُ أن هافمان الذي يتحدث دوماً باحترام عن جروسكورت، أفضل أصدقائه، لن يرفض أن يتحدث عن أفضل أصدقائه آنذاك إذا قام أفضل أصدقائه اليوم بالتوسط لديه، لماذا يرفض؟!

لم يكن من الممكن تجاهل المفارقة الكبيرة التي تَصَنَّنَتْها محاولة الاقتراب هذه، حتى أُطوِّر خططي الموجهة ضد المؤسسة القريبة من النازية في ألمانيا الغربية، كان عليّ أن أتحدث مع كلا الرجلين اللذين تضعهما المؤسسة الألمانية الشرقية على رأس قائمة أعداء البلاد. ملعونان في الشرق، ومُحتَقَى بهما في الغرب. رجال ألمانيا الشرقية المستغلون لسلطتهم، المعارضون للنازية، كانوا في احتياج إلى نازيين مثل «ر» كذريعة يستخدمونها ضد الغرب، ولكنهم لا يخشون أحداً مثلما يخشون عدو الدولة رقم واحد، وسيفعلون كل ما في وسعهم حتى يمنعوهم من الحديث معي. غير أنني كنتُ محتاجاً إليه حتى أستطيع أن أعلل بطريقة مُقنعة سبب القتل في كتابي الذي سيصدر في الغرب. كنتُ في حاجة إلى عدو ألمانيا الشرقية رقم ١ الذي لم يكن من الممكن الوصول إليه إلا عن طريق عدو الدولة رقم ٢. ولكنه لم يكن في منزله.

لا يأس مع الحياة، قلتُ لنفسِي: إن المعجزات لا تحدث حتى في الأساطير إلا مع المحاولة الثالثة. وهكذا عدتُ من حيث أتيتُ. باستثناء مكتبة واحدة كان ذلك الجزء من «فريدريش-شتراسه» يخلو من أي شيء آخر. دخلت المكتبة، ورحت أُلَقَّب في الكتب، ثم وجدتُ كتاباً سمعتُ عنه كثيراً: «الكتاب البني: جرائم الحرب والنازية في ألمانيا الاتحادية». مرجع يضم آلاف الأسماء والجرائم على طول ٤٠٠ صفحة، إضافة إلى وثائق ونصوص أحكام قضائية وصور، وكل هذا بأربعة ماركات وثمانين بفنكاً من النقود التي حوَّلْتُها، لا تردد إذن، رغم درجات اللون البني البشعة على الغلاف الكرتوني.

باقي الخمسة ماركات — ٢٠ بفنكاً — كانت تكفي لتذكرة المترو للزيارة القادمة. عندما كنتُ أسافر لبرلمان، كنت في المعتاد أتواعد مع شخص أقل إثارة للشبهات في برلين الشرقية، حتى يكون لديّ شاهد إثبات في حالة التحقيق معي. هذه المرة كنتُ على موعد مع شاعر في الضواحي الجنوبية الشرقية، حيث قضيتُ ساعتين يغلب عليهما المرح. في رحلة العودة رُحْتُ أُلَقَّب في «الكتاب البني»، حتى عثرتُ على ثبت الأسماء،

مررت بإصبعي حتى وصلت إلى حرف الراء، لكنني لم أجده. بحثت عن هدي «ر»، بحثت بين «راوخ»، و«راوش»، و«ريمان»، و«رايدل»، و«رايشرت»، و«رايشلت»، و«رفيلد»، و«ريبوك»، و«ريغيس»، و«ريديكر»، و«ريكمان» لكنه لم يكن موجوداً، لقد أفرطتُ في شراب الفودكا البولندية، قلتُ لنفسِي، ثم غادرتُ المترو نحو التاسعة في نهاية الخط، في محطة «فريدريش-شتراسه».

مرة أخرى سِرْتُ في اتجاه ناصية «شوسيه-شتراسه»، ولكن الضوء كان مطفأ في شقة عدو الدولة، فلأعدُ إذن إلى المحطة، إلى الأكشاك الحدودية، آنذاك لم يكونوا قد بنوا بعدُ القاعة التي أُطلق عليها «قصر الدموع». بعد طقوس ما يُسمَّى بالمغادرة استولتُ عليّ في المترو المتجه إلى الغرب الرغبة في أن أفتح الكتاب البني مرة أخرى. كانوا مُسجّلين بالترتيب الأبجدي، أصدقاء الدولة، رجال الصليب المعقوف، بمناصبهم ونياشينهم قبل ١٩٤٥م، ثم الوظائف التي شغلوها بعد الحرب. سيرة حياة القَتلة تتواصل بلا انقطاع، قَتلة مارَسُوا جرائمهم على المكتب، رجال أتقنوا الحرب: نصف السفراء وجنرالات الجيش الألماني، معظم الموظفين في الوظائف الرفيعة، علماء ورجال أعمال مرموقون. جيوش من القضاة ورجال الادعاء، بلغوا رقما قياسيا: ٨٠٠ اسم، لا جديد في كل هذا. المُرعِب كانت الأرقام، الاقتباسات، الجرائم التي تثقل كاهل رجال القانون على وجه الخصوص.

الكتاب بالتأكيد من كتب البروباجندا من ألمانيا الشرقية، قلتُ لنفسِي: الوثائق تنضح بلهجة الاتهام المتعالي الذي يوجهه الشيوعيون، أما اللغة المكتوبة فهي لا تُحتمل، لغة تشير بأصابع الاتهام إلى النازيين في الغرب. رغم ذلك، ما حرك مشاعري هو تناسي هذه الحقائق في غرب ألمانيا. إذا كان الأمر يدور حول الخراء النازي، فإن الكذب هو سيد الموقف في الشرق والغرب على حد سواء. كرهته، الخراء الألماني الكبير، النازي الشرقي والغربي، خراء «الكتاب البني».

لم أرن الجرس عند كاترين إلا بعد مرور بعض الوقت. في هذه الأمسية بالذات فاجأتني بقرارها التَّخَلِّي عن التصوير، تعليق الكاميرا على الحائط على حد تعبيرها، ودراسة علم الاجتماع. كنْتُ متعباً للغاية؛ لذا لم أعارض، أضعفتني الفودكا، وشوشت علي ذهني خطط الاغتيال والحيرة التي وقعتُ فيها لأنني لم أجد المجرم الأساسي «ر» في الكتاب المقرف. ثم أدركتُ فجأة: إنهم لم يوردوا أسماء المُحالين إلى التقاعد.

يشرثرون كثيرًا عن المقاومة

لم أكن أعرف شيئًا، تقريبًا، قالت أناليزه جروسكورت.
لم تكن تتحدث إلا كارهة عن الزمن الماضي، وكأنَّ فَمَهَا أُصِيب بالشلل بعد قضايا الخمسينيات التي كَفَّرَتْ فيها عن حسنات الأربعينيات. لقد امتنعتُ دومًا عن الافتخار بهذه الأعمال، بل حتى مجرَّد الحديث عنها كانت تعتبره دربًا من التفاخر. لن أَسْوَل المديح بها! كانت تقول: إني أدين ربما لأَكسل بالفضل؛ لأنها قَبِلَتْ أن تتحدث معي على الإطلاق، أو ربما تذكرت — عندما رَأَتني — بكائي وعويلي آنذاك الذي استمر ساعات إثر رحيل أكسل من فيردا، وأرادتُ أن تُسَدي إليَّ معروفًا آخَر غير كتاب «نيلس هولجرسون» الذي منحني التعزية آنذاك، لم يكن هذا التفكير بمستغَرَب منها.

في دفتر ملاحظاتي لَخَصْتُ ما حَكَّته بنبرة متقطعة:

لم يُشْرِكْني جروسكورت في ذلك إلا عند الضرورة القصوى، صَمَّتْهُ أنقذ حياتي. من يعرف قليلًا، لا يبوح إلا بالقليل. المساعَدة الصغيرة بين الحين والآخر، استدراج أبي حتى يدفع مَالًا للمختبئين، السُّؤال لَدَى المَعَارِف عمَّا إذا كان بإمكانهم استضافة شخص، هذا هو ما كنتُ أفعله، كان بديهيًّا أن أقوم بذلك؛ لذا لم أفكر كثيرًا. أو مُرافقة اليهود المُلاحقين إلى المستشفى، حيث يحصلون على العلاج تحت اسم مُستعار، ثم تنظيم الطعام، وتوزيع المواد الغذائية التي كانت تجيئنا من فيردا، هذا ما كنتُ أقوم به بشكل أساسي، نعم، لويِزة، زوجة زعيم الفلاحين النازي في المنطقة، كانت ترسل إلينا السجق والدقيق والبازلاء، رسميًا لنا، لكنها كانت تحسب إلى أين تذهب المأكولات. كوبونات الطعام كان من الممكن شراؤها من السوق السوداء في إحدى الحانات في ميدان فيتنبرج، ولكن جيورج لم يكن يرغب في أن أذهب إلى هناك، كنتُ أشتري المواد الغذائية من تاجر طيور — أيضًا مريض عنده — وكل ذلك خفيةً. أشياء عديدة كنا نحصل عليها عن طريق مرضاه.

في عام ١٩٤٣م، عندما كانوا كلهم مُنغمسين في نشاطهم، كنتُ حاملاً، ثم وضعتُ أكسل في مايو، كان لدي إذن رضيع، ورولف الذي كان بلغ العامين؛ لذا لا أستطيع بالفعل قول الكثير عن تلك الفترة. لم أعرف أنا أيضاً إلا لاحقاً أن جيورج وأصدقائه يمدون اليهود والملاحقين الآخرين بالأوراق المزورة، وكيف كان يحدث ذلك. تعرّف جيورج في عيادته إلى طبّاع عرّض عليه تزوير أوراق هوية من إدارة الأركان العليا للجيش الألماني، وذلك مقابل ٣٥٠ ماركا، وبالطبع قبل جيورج هذا العرض، وهكذا تمكّن خمسة أشخاص من النجاة، أو ربما عشرة، لا أعرف على وجه الدقة. بعد الحرب روت لي السيدة رنتش أنها كانت تعرف موظفاً متقاعدًا من المباحث الجنائية في بريمن، وكان طوع أمرها. هناك دمرت القنابل مكتب السّجل المدني، فقام الرجل بالاحتفاظ باستمارات المصلحة الحكومية وأختامها، وكان باستطاعته إصدار بطاقات هوية حقيقية، ليس عليهم سوى تسجيل اسم شارع دمّرت القنابل محلاً للسكن، وتثبيت صورة فوتوغرافية، كان يقوم بالتقطاها المصور كيند، وهكذا يتحول يهودي إلى مواطن من بريمن، لكنّ الموظف الجنائي كان يطلب مبالغ كبيرة مقابل خدماته.

أو حيلة البيضة. كانوا يعرفون رسماً جرافيكياً كان يأخذ بيضة جيدة السلق، ويقشرها ثم يدحرجها بحذر على أحد الأختام في بطاقة هوية، فينطبع الختم على سطح البيضة النّدي، ثم يمرّر البيضة على البطاقة المزورة — لم يكن الختم يفرق في شيء عن الختم الحقيقي. بهذه الطريقة زوّرُوا أعداداً كبيرة من تصاريح الإجازة من الجيش. مثل هذه التصاريح كان الرجال بحاجة إليها إذا ساروا في الشارع، فالرجال بين الثامنة عشرة والخمسين كانوا يتعرضون على الدوام للتفتيش على الأوراق، ومَن لا يمارس عملاً «ذا أهمية حربية» أو ليس جندياً، يُعتقل على الفور.

وعندما كنا نريد أن نأخذ الطفلين في صيف ٤٣ إلى فيردا كي يكونا في مأمن، دقّت على الباب زوجة أحد أصدقاء جيورج، يهودية من فرانكفورت، لتخبرنا أنهم بدءوا يُرحّلون اليهود الذين يعيشون في «زيجات مختلطة». خبأناها في بيتنا، ثم انتقلنا لتعيش لدى آخرين. لم يعجب ذلك روبرت، فهو لم يكن يريد أن يساعد سوى المناضلين السياسيين، أما جيورج فكان يمد يد العون إلى كل من يستطيع؛ فالطبيب لا يعترف بالمعايير السياسية. عبّر مريض إيطالي يعرف محصلاً في قطار النوم، حاول أن يُهرّبها إلى شقيقته في إيطاليا، ولكن المحاولة أخفقت، فأقنع الموظف الجنائي بتزوير بطاقة هوية أخرى. جمّعنا بالكاد ١٥٠٠ مارك. كانت صعبة، تلك المرأة، لم تكف عن الشكوى دون أن ترى الأخطار التي

تواجه مُضيفيها. بعد ذلك تم اعتقالها معنًا في سبتمبر، في البيت الذي يقضي فيه رنتش عطلة نهاية الأسبوع، وتم ترحيلها إلى أوشفيتس. نجت من الموت، وتلقّيتُ فيما بعد رسالة منها من نيويورك، ولكن ولا كلمة شكر، ولا أسف على أنني فقدتُ زوجي، فقدته أيضًا بسبب المساعدة التي قدمناها لها، مثل هذه الأشياء كانت تحدث أيضًا، وعليك أن تتحمل وطأتها عندما تثقل عليك فيما بعد.

إنهم يثرثرون كثيراً عن المقاومة، ولكنها كانت أقل كثيرًا، لم يكن كل ما فعلناه شيئًا عظيمًا أو بطوليًا، كنا نريد أن نتصرّف كبشر شرفاء ونساعد غيرنا، بل كان يجب علينا أن نفعل ذلك. بين الحين والآخر كان روبرت وجيورج يُنظّمون للهاربين المختبئين حفلة صغيرة في «بسمارك-شتراسه»، في السقيفة، المهم ألا يكون الموجودون يعرفون بعضهم بعضًا، كانوا مقطوعين عن العالم بأسره، لا يجرون على مغادرة مخابثهم إلا ليلاً. كان الأمر شبحيًا، كلهم يحلمون بالتّرف، بالحرية، أن يذهبوا مرة أخرى إلى السينما التي مُنعوا من الذهاب إليها منذ سنين؛ في تلك الحفلات كان روبرت يعرض عليهم بالفانوس السحري صورًا التقطها، ولك أن تتخيل ماذا كانت تلك الأشياء البسيطة تعني بالنسبة لهم.

أو ما كان جيورج يفعلها كثيرًا: أن يجعل الشُّبان يرسبون في الكشف الطبي. كان أطباء الجيش أثناء الحرب يتعاملون بصرامة شديدة مع مُدّعي عدم اللياقة، ولكنهم لم يكونوا على درجة ذكائه. اخترع جيورج شرابًا من الخروع والبيرة المغلية، وطوال الليل كان ينقع فيه سيجارًا. كان على الشاب شرب هذا الخليط، ثم يقوم برحلة بالدراجة على طريق شاقّ صاعد. في الصباح التالي يكون الشاب منهكًا تمامًا لدرجة أن أقسى أعضاء اللجنة الطبية كانوا يشهدون بعدم صلاحية الشاب للأعمال الحربية. لم يهتدِ الجستابو إلى تلك الحيلة أبدًا. ولا الحيلة الأخرى أيضًا، حيث كانت تساعد إحدى الممرضات. كانت تلك الممرضة تعمل في قسم جيورج، وكان دُمها يتميّز بخاصية التجلُّط على الفور. وعندما تتبرع بالدم، كان جيورج يعطيه للشبان المكلفين بالخدمة العسكرية كي يشربوه. في الصباح التالي وأثناء الكشف الطبي كان الأطباء يجدون دمًا في البول، وبالتالي يُعفون الشُّبان من الخدمة في الجيش. شرب الدم، يبدو ذلك شيئًا همجيًا لإنسان مثلك لا يستطيع رؤية الدم، ولكنك كنت ستفعل ذلك حتى لا تصبح طعامًا لمدافع هتلر.

(لم أسجل آنذاك أنني شعرت بكلامها يرضي غروري.)

حتى هذه الأمور لم أكن أعرف عنها شيئًا. لم ألاحظ سوى إنصاته لكبار رجال النازية، هيس وإخوانه ورجال الإِس إس، ووكيل وزارة الخارجية الذي كان أحد جيراننا،

إنسان مقرز، ثم إيصال تلك المعلومات إلى الأشخاص المناسبين. كان جيورج على سبيل المثال يعالج مريضاً، باحثاً في اللغويات من ليتوانيا، وهذا كان يعطي مجموعة من جنرالات الجيش دروساً في اللغة الروسية، هل تعرف متي؟ يناير ١٩٤١م. أدرك على الفور لماذا يهتمون فجأة بالروسية ويقضون ساعات يحفظون مفرداتها، كانوا يُخططون للهجوم على الاتحاد السوفييتي، وهو ما حدث في يونيو. كان الرجل يثق في جيورج. كما أن هيس أشار إلى الأمر بوضوح بالغ. بعد الحرب حكى لي هافمان أنهم أوصلوا هذه المعلومات عبر طرق ملتوية إلى السوفييت، لكن ستالين لم يصدق مثل هذه التحذيرات.

كل ذلك يبدو اليوم كالحكايات والنوادر، ولكنك كنتَ تخاطر برأسك كل يوم، وهو أمر لم تكن تعيه في كل لحظة، وإلا ما كنتَ توقفتَ عن الارتعاش. كل ما تعرفه هو: لا تظهر أي خوف أمام المخاطر، وإلا ضُعت وانتهى أمرك. كان عليك أن تتبع غريزتك. جيورج كان أستاذاً في ذلك. ولكنه فعل الكثير، أرادت الجماعة أن تقوم بالكثير في وقت واحد، المنشورات السخيفة، الاتصالات بالعمال الأجانب والمجموعات الأخرى، حدث كل هذا وراء ظهري، في هذه المسائل عليك أن تسأل روبرت.

في الحقيقة، لا يمكن أن نتحدث عن هذه الأمور. إذا تكلم روبرت عن تلك الفترة، فهو دائماً البطل. عندما أحكي لك عن جيورج فإن كل شيء يبدو بطولياً أيضاً، مع أننا لم نعد نتحدث عن روبرت وبادل. لا بدُّ من أن نتحدث مع جريته، رنتش، وماريا ريشتر، وإذا أردتَ أيضاً مع زوجة روبرت، كانت تلك مجموعة، أربعة أصدقاء، الآن لم يبقَ سوى أربع أرامل، لا يبقى لنا سوى الثثرة أثناء تناول القهوة. وفي الناحية الأخرى^١ يريدون أن يجعلوا منا ذيولاً لمناضلي المقاومة الشيوعية، ما هذه الثثرة عن المقاومة، ثم هنا ... والآن، كفاية!

أريدكم أن تفهموا شيئاً واحداً: ليس هناك أبطال، شخصيات فردية عظيمة، ليس هناك مناضلون في حركة مقاومة، هل تفهم؟ كانوا سلسلة من الشرفاء، لديهم أعصاب قوية ويثقون في حسهم الغريزي، وكان الحظ عموماً حليفهم، شبكة، هكذا فقط كان بإمكانك أن تفعل شيئاً.

افتقدت شبكة كهذه بعد الحرب. أصبح الناس أكثر جبناً مما كانوا أيام النازية، لا يمكنك أن تتصور ذلك. البعض اعتبرني شيوعية، والبعض الآخر؛ أي الشيوعيون، اعتبروني شهيدة، كانوا يودون لو استطاعوا أن يرفعوني إلى مصاف القديسات. بين هؤلاء وأولئك لم يكن ثمة أحد؛ قليل من الشرفاء، وقليل جداً من الأصدقاء كانوا يسلكون معي سلوكاً عادياً، دون أن يمطروني باللعنات أو يرفعوني إلى عنان السموات.

لماذا؟ لأنني كنت مع السلام وضد عواجز النازية، ولأنني رفعت صوتي برأيي، هذه هي أبشع الجرائم التي يمكن ارتكابها في برلين الغربية.

لماذا؟ لأنهم في الناحية الأخرى كانوا أيضاً مع السلام وضد عواجز النازية، هذا ما أعجبني في ألمانيا الشرقية وفي الاشتراكية. في هذه النقطة كنتُ أعرف دوماً بأي شيء أدين لجيورج وللأطفال. الخمسينيات، كانت تلك أكثر من عشر سنوات من المقاومة أثناء الحرب الباردة، كان ذلك أمراً معقداً؛ لأن الجبهات كانت متعددة. نحن حفنة المعارضين لهتلر — أنت لا تعلم عن ذلك شيئاً يا بني — كُنَّا مَحَطَّ الشبهات بشكل خاص؛ لأننا برهناً للملايين من السابحين مع التيار على أنهم كانوا يستطيعون أن يسلكوا سلوك الشرفاء. هذا الخلاف لم يَنْتَهِ بعد، فما زالت القضايا التي رفَعْتُها لم تُحَسَم حتى اليوم. الأمر أصبح أكثر قسوة، وعلى نحو عبثي تماماً؛ لأننا نعيش في دولة القانون، كما يدَّعون. لم تُعد المسألة مسألة حياة أو موت كما في عهد النازية، أصبحت المسألة مسألة الوشاية التي تقوم بها الدولة، المنع من مُزاولة المهنة، التعرُّض للتعسف والمضايقات، أحكام قضائية سياسية، ولأننا نعيش في ديمقراطية، إلى آخره، فإنك لا تجد حولك من الشرفاء سوى عدد قليل، أقل من أيام النازية. كنت وحيدة تماماً، منذ ١٩٥١م، عندما طردوني من وظيفتي كطبيبة في مكتب الصحة.

لماذا؟ هل ترى الملفات هناك في الرَّف الأسفل؟ ثمانية ملفات، كلها عن القضايا التي رفَعْتُها. والآن، كفاية، هذا مُستنقَع، مُستنقَع لا قرار له! ثم ناولتني مظلوماً وودعتني. كان به منطوق الحكم الذي أصدرته محكمة الشعب العليا.

أنقاض ووجوه

– أنا جادة فيما أقول: لا أريد أن أصور بعد اليوم، تقول كاترين. على كل حال ليس بشكل مهني. لقد صورت كل الأنقاض، ثلاث سنوات من الأنقاض، هذا يكفي. قراري حاسم، مُصوِّرة الأنقاض ستُحال إلى التقاعد، في الرابعة والعشرين يمكنني أن أُغيِّر مهنتي. كفى صورًا لا يشترئها أحد مِنِّي، صورًا لبقايا أنقاض في مُواجهة الضوء! كفى صورًا لا يريد أن يراها أحد للشبابيك المقصوفة في الضوء الجانبي.

كنتُ أحب التطلع إليها وهي تتحدث بغضب، الوجه النحيل يركز البصر على نقطة بعيدة، ثم تنتظر إلي، وفي غمرة كلامها المتحمّس كانت دائمًا تزيح شعرها من مَفْرِق الرأس إلى الجانب، كنتُ أحب الإصغاء إليها، إلى الصوت القوي ذي لهجة أهل منطقة فرانكن العليا. كانت كاترين تُدخِّن سجائر فرنسية بدون فلتز. لم يكن احتساء النبيذ في المساء قد أصبح موضة آنذاك، البيرة كانت تُعتبر شرابًا بروليتاريًّا لائقًا، رغم ذلك كانت تصر على كأس من الـ «بينو نوار» كل مساء.

لم آخذ انفعالها على محمل الجد التام، كنتُ أعرف تلك الشكاوى. لم تكن حالتها سيئة، كانت تحصل على نقود من محل الأدوات المنزلية في «ماركتريدفيتس-شتراسه» حتى تستطيع تكوين مستقبلها كمصوِّرة، حسبما كان الوالدان يأملان. إلى جانب عملها كانت تذهب إلى المحاضرات في علمي السياسة والاجتماع، كما كانت تشارك في المظاهرات أكثر مِنِّي، ولكن بدون كاميرا.

– عندما انتقلتُ إلى هذه المدينة، قالت كاترين، عام ٦٥ تقريبًا، قلتُ لنفسني: نعم، إنه ما زال هنا، الماضي الذي تم إزالته وتغطيته بالأسمنت في الغرب، التناقض يحوم هنا في الأجواء، بين الأطلال والأعشاب الكثيفة التي تنمو بجوارها، بين السماء الرمادية الفارغة وبين العالم الحر الذي حررناه أخيرًا. هنا لم تنقض الحرب بعد، ما زالت أشياء عديدة

لم تتم، المستقبل، هذا هو الشيء الوحيد الجيد في برلين الفظيعة هذه. هنا يجد الإنسان يوتوبيا مختبئة في وداعة، نوعاً من ظلال اليوتوبيا (لا أستطيع التأكيد أن كاترين قالت بالفعل: ظلال اليوتوبيا). إنك تنظر إلى ما لا يمكن استرجاعه، إلى عمق المأساة العابرة، وتقول لنفسك: ما زال من الممكن هنا أن تفكر في شيء جديد، هنا بإمكان المرء، لا، هنا على المرء أن يصنع شيئاً جديداً تماماً غير المعتاد، على كل حال شيئاً آخر غير المسخ الخرساني والمجتمع المقنن المقلوب.

– وهذا بالذات هو ما أحبه في صورك، قلتُ، التاريخ يتوقف ويبدأ في الهمس واليوح.
– ولكن هذا لا يفيد شيئاً، إنهم يفعلون هنا ما هو معتاد، نفس المسخ الخرساني.
الأطلال تختفي، وأنا لا أستطيع أن أظل أعمل إلى الأبد كي أحفظ صوري في الأرشيف.
قضببان سكك حديدية ميتة، جبال من الركام، الشوارع المكسوة بالأحجار، محطات المترو القديمة، كل هذا ما زال قريباً، لم يدخل بعدُ في دائرة النوستالجيا (لست متأكداً إذا كانت كلمة «نوستالجيا» من الكلمات التي كنا نستخدمها آنذاك). أسوأ شيء: ما أراه في الأنقاض لا يراه الناس في صُوري. مُحزن، مُحزن، تقنياً صور ممتازة، هكذا يقولون، ثم يتساءلون: أليس لديك صور أخرى؟

– يمكنك أن تصوّرني حي نويكولن أو كرويتسبرج قبل أن يُزيلوا كل الأنقاض.
– ولكنني لن أجد مشترياً للصورة: مُحزن، مُحزن، تقنياً صور ممتازة، إلى آخره. لا، الماضي ليس مطلوباً، عند أرشيف صور الولاية ربما، ولكنهم هناك يكادون يختنقون في الأنقاض أيضاً.

ثم قالت عَرَضاً: إن والديها وعداها بالمساعدة المالية عامين آخرين، بعد ذلك عليها أن تقف على قدميها. خلال عامين يمكنها أن تقطع نصف الدراسة، آخر فرصة لتغيير مواد الدراسة. ولكنني لم أكن أريد أن أفقد كاترين بتحوّلها إلى علم الاجتماع.

– أو السور، استكشاف سور برلين بالكاميرا استكشافاً منهجياً.
– لقد أرسلتُ دار «شبرينجر» من المصورين ما يكفي. لن أكسب من ذلك بفنك واحدًا. السور لم يعد موضوعاً جديداً. على المصور أن يتخصص، دون أن يغدو عاهرة مثل صاحبك يوكو أونو!

ضحكت. كانت تحب أن تستخدم ذلك التشبيه، منذ أن حكيتُ لها أن يابانية بوجه ضخم كانت عام ٦٦ في ملهى «ماركي» الليلي في لندن تُلحّ على الناس كي تلتقط لأردافهم صوراً فتوغرافية أو فيلمية، فرفضتُ، كانوا يعتبرون مثل هذا الفيلم تقدماً، ومن خلاله تعرّفت اليابانية إلى جون لينون، وأصبحت يوكو أونو الشهيرة. لقد ضيعت فرصة حياتك،

كانت كاترين تمزح معي كثيرًا. الآن عادت إلى الموضوع: ولا تنصحني مرة أخرى بأن أصور الناس والوجوه، هذا شيء لم أحبه أبدًا، وليس لدي رغبة في أن أنال علاقة ساخنة من أجل هذا الخطأ.

تعارفنا قبل عام، وخلال خضنا مثل هذا النقاش المبدئي ثلاث أو أربع مرات. بعد أن ارتفع صوتها بالشكوى لأول مرة من فنّها الذي لا يسد الرّمق، حاولتُ كاترين أن تتخلّى عن مقاومتها بتصوير الناس، وأن تبحث في المدينة عن وجوه تتناسب مع الأنقاض والأراضي الخالية من الأبنية وأكوام الركام والقضبان المتداخلة: وجوه الأنقاض، عجائز، موظفون يائسون، بائعات متزمرات، ربّات بيوت بديّات قاسيات، من طراز «معلمات» سوق الخضار، عدد هائل من أهالي برلين كانوا يكرهوننا، وفي كل كائن شاب كانوا يرون اشتراكًا وقحًا ذا شعر طويل ومعطف طويل، نسخة من الصور الكاريكاتورية التي تنشرها صحيفة «بيلد» الشعبية كل يوم: أعداء الوطن، شيوعيون، مومسات، لوطيون، صعاليك، مشاغبون، فوضويون. ملايين البرلينيّين مع دار شبرينجر ومجلس الوزراء والشرطة على جانب من الجبهة، وبضعة آلاف من «المتطرفين» على الجانب الآخر. حرب كراهية بكل انعكاساتها وعواقبها، الساخرة والخطيرة.

كان عملاً خطيرًا، في فبراير بعد المؤتمر، وبعد أكبر المظاهرات ضد حرب فيتنام — بالمناسبة، كانت سلمية تمامًا — دعت الأحزاب والنقابات ومجلس الوزراء إلى تنظيم مظاهرة ضد الطلبة اليساريين أمام دار البلدية في شونيبرج، وبعد أن حصل العمال والموظفون في الحكومة على إجازة مدفوعة الأجر. تجرأت كاترين وخرجت بالكاميرا وسط الجماهير. وبينما كان الخطباء يتحدثون من فوق المنصة عن السلام والحرية، لاحظتُ كيف هاجموا شابًا ملتحمًا: احلق لحيتك! أيها الخنزير الشيوعي! امش من هنا! حاول الشاب أن يبتعد عنهم، لكنه وجد نفسه فجأة محاصرًا: هذا دوتشكه! لم يكن رودي دوتشكه ملتحمًا، لكن ذلك لم يهم أحدًا، لقد وجدوا عدوًّا، راح الشاب — وقد استولى عليه الرعب — يصرخ وسط الجموع: أنا عامل مثلكم! وفجأة أصابته زجاجة في رأسه، تدفّق الدم، انهالوا عليه ضربًا إلى أن فقدته كاترين من بصرها وسط المعركة. بينما كانت تلتقط الصور سمعت من يصرخ: اضربوا دوتشكه حتى يموت! اشنقوه! تملّكها الخوف من الوجوه ذات القسمات المتوحشة المصممة، أرادت أن تخبئ آلة التصوير، ولكن بعد فوات الأوان، فسرعان ما أصبحت هي وآلتها هدفًا للغضب. صرخ أحدهم: إنها تصور للشرق! ثم هتف آخر: إنها من الشرق! التالي: عاهرة شيوعية! حوصرت، وحاول الغوغاء أن ينتزعوا منها

الكاميرا التي تشبَّنت بها، هَوَتْ أرضاً، دهستها الأقدام، وانهارت عليها عكاكيز العواجيز: شدوها من شعرها! اضربوها! (لم تتأكد أبداً إذا ما كانت هي المقصودة بصرخة: اضربوها حتى الموت!) هُرِعَ رجل ليساعدها، وحاول أن يهدئ من سخط الضاربين قائلاً: لا نحتاج إلى مثل هذه الأعمال! أصبح الضحية التالية: خنزير شيعي آخر. فكوا الحصار من حول كاترين، وتحلَّقَ نحو عشرين شخصاً حول مُنقِذها، وانهاروا عليه ضرباً ولطمًا صائحين: أيُّها الحلوف الشيعي، امش من هنا! كان الحظ حليف كاترين، فاستطاعت أن تبتعد دون أن يلاحظها أحد، بعد أن خبأت الكاميرا تحت المعطف، بينما كاد الآخرون أن يمتثلوا بدوتشكه المزعوم، أما مُنقِذها فركض باحثاً عن الشرطة بعد أن نال نصيبه من البصاق والركل، إلى أن قدم له محامي من الديمقراطيين المسيحيين الحماية، غير أنه هو أيضاً أصبح هدفاً لهتافات الغوغاء وضربهم: المحامي مالر! اضربوه حتى الموت!

منذ ذلك اليوم من شهر فبراير، عندما صارعت النساء ذوات الشعر الطويل، وصارع الصحفيون ومدخنو الغليون ولايسو السراويل القطيفة والنظارات بلا إطار وسط خمسين أو مائة ألف من الفاشيين البرلينيين، عندما صارع هؤلاء حتى يظلوا على قيد الحياة، ولم تتدخل الشرطة لحمايتهم، أو جاءت بعد فوات الأوان، منذ ذلك اليوم ازدادت نظرية كاترين تطرفاً: البشر كموضوعات للتصوير، لم يعد ذلك ممكناً؛ لأنك في هذه الحالة تظل مُسترقاً للنظر، إنك تجمع أشياء متناثرة حسب هواك، المهارة في التقاط جزء على المائة من الثانية، حتى وجوه الأنقاض، وجوه الكراهية ما هي إلا أكذوبة، لأن عليك — مثلاً — أن تظهر هذه الوجوه أيضاً كوجوه مشرقة سعيدة تحت شجرة عيد الميلاد.

بعد تسعة أشهر تقريباً كانت قد كَرِهَتْ — مرة أخرى — العمل كله. كل صورة لا بُدَّ من اختزالها وتكثيفها، هكذا كنت أسمع الآن. الصورة تكون أجمل وأفضل وأكثر تأثيراً من الشيء أو الشخص المصوَّر. كلما ازدادت الصورة فنية، اقتربت من الأكذوبة.

وبرهاناً على صحة نظرياتها عرضت عليَّ كاترين صور هيس.

— أنتَ قلتَ: إن أهم الصور مفقودة. لم يَبْقَ، بالصدفة، سوى صورتين، وهما كاذبتان. لقطات تبين عكس الحقيقة. إنك بحاجة إلى تفسيرات وشرح للخلفية وهو ما تحصل عليه الآن من السيدة جروسكورت. عليك أن تجلس وتتساءل وتبحث وتكتب حتى تصل إلى حقيقة تلك الصور. أنت حتى تهمل دراستك لأنك تريد أن تعرف شيئاً على وجه الدقة؛ لأنك تريد أن تكتب. ثم تسألني: لماذا أريد أن أدرس علم الاجتماع؟

— نعم، لماذا علم الاجتماع بالذات؟ هل لأن الجميع يدرسونه؟

- هراء! لأنني أريد أن أعرف مَنْ هم الذين ضربوني في ميدان كنيدي، لماذا أصبحوا هكذا؟ من أين يأتي الكُره؟ كيف يسلك المجتمع؟ هذا يهمني أكثر من الأنقاض! واشتبكنا في أجمل شجار مدرسي عمّا إذا كان الفن يبدأ بالأكذوبة أم أن الفن أكذوبة. رأينا أنفسنا في موقف دفاعي أمام كلمة «إيجابي» التي كانت في تلك الشهور تحوم فوق كل المناقشات عن الفن، بعد أن تم استيرادها من هُربرت ماركوزه في كاليفورنيا. لم يكن من المسموح به مطلقاً أن تقول نعم للمجتمع القائم، أن تؤكد، أن توافق، ليس مسموحاً لا في الكتابة ولا الرسم ولا التصوير أو في المسرح أو السينما. فيلم «فلندخل في الموضوع يا حبيبتي» كان يُعتبر إيجابياً، أما «الفنانون في قبة السيرك حيارى» فلا. الروائي زيجفريد لنتس إيجابي، أما بيتر فايس فلا. «إيجابي»، تعبير آخر، كلمة يدور حولها الجدل، كلمة مشتبّه بها، كلمة قاتلة حوّلنا إلى إمّعات.

قرب نهاية النقاش، إلى هذا الحد كنت منقسماً، رفعت أحد الشعارات التي أحبها لجان بول: ما أسهل خداع القارئ، ثم أعلنت رغبتني في أن أبدأ رواية بالجملة التالية حتى أكون صادقاً: ما أسهل خداع القارئ.

- لن تنجح في ذلك أبداً! أنت أيضاً مُتَعْصّب للحقيقة، لقد نسيتَ دراستك، وبدأتَ فجأةً في تأليف كتابك عن جروسكورت هذا! ادعيتُ بجرأة.

- دعيني أسلكُ مرة واحدة سلوكاً غير عاقل! دعيني أتبع فكرة تلقائية، حتى لو كانت مجرد وسواس قهري!

- إذن، دع لي أنا أيضاً وسواسي القهري!

القضاء يقول كلمته

هل ارتجفتُ فعلاً — كما أتوهم — عندما حملْتُ للمرة الأولى في كلمات الحكم بالإعدام؟
النسخة التي أعطتني إياها السيدة جروسكورت كانت فوق المائدة. تَحْتَمُ عليَّ أن أقاوم
نفوري وألمس الورق. لم أكن أدري سوى القليل عن خصوصيات القضاء، وأقل القليل
عن القضاء النازي. عليك أن تبدأ من البداية، من الأبجدية، هكذا نويت، جملة جملة، كلمة
كلمة، بصبر، كأني أفك رموزاً هيروغليفية؛ فلأتفحص كل حرف من حروف ذلك العصر
المنصرم المظلم، وكأني من العلماء.

«باسم الشعب الألماني!» بهذه الكلمات التي امْتُهِنَتْ كما لم تُمْتَهَن كلمات أخرى في
اللغة الألمانية بدأ الحكم، ثم في ختامها علامة تعجب سيادية ومنتصرة.

باسم الشعب الألماني! اجتمع السيد الدكتور فرايزلر رئيساً لهيئة المحكمة،
والمستشار القضائي «ر» قاضياً ثانياً، ورئيس المجموعات النازية أوفرمان، وقائد مراكز
الولايات أملس، وقائد الدوائر رايتيكة أعضاء في محكمة الشعب العليا، ثم تجرّءوا في
السادس عشر من ديسمبر ١٩٤٣ م على إصدار حكم في حق الكيميائي الدكتور روبرت
هافمان، والطبيب أول الدكتور جيورج جروسكورت، والمهندس المعماري هربرت ريشتر،
وطبيب الأسنان باول رنتش: **إننا نحكم بالإعدام على هؤلاء الذين فقدوا شرفهم إلى
الأبد.**

بالإعدام، أربع مرات بالإعدام، كل حرف من هذه الحروف الغامضة له أهمية
خاصة. حرف الألف في كلمة «الإعدام» يجعل الكلمة لينة، يكاد يجعلها رقيقة. الرحمة
الوحيدة التي تصدر عن السادة المحكمين، حرف واحد يخفف من وطأة هذا التكليف
بالقتل الرباعي، برهان ضئيل على الرحمة، للتعزية، حلية رقيقة تُزيّن القبر، هبة تُدفن في
القبر مع المشنوق بلا رحمة.

أي الوقائع تأكد القضاة من صحتها؟ ما التُّهم؟ ماذا فعلوا ليستحقوا تهمة الخيانة العظمى؟

تأكد القضاة من أن أولئك المتثاقفين الهابطين الذين لم يتورّعوا عن الاستماع إلى الإذاعات الأجنبية البغيضة، المستسلمين للانهازامية الجبابة التي تدّعي أن ألمانيا ستخسر الحرب.

تأكدوا من أنهم أسّسوا بغرض الاستيلاء على السلطة منظمة «الاتحاد الأوروبي» التي يذعن برنامجها بخنوع أمام الشيوعية والديمقراطية الشكلاية الأنجلوساكسونية.

تأكدت المحكمة المؤقّرة من أن المدّعى عليهم الأربعة قد سبّوا قائدنا والاشتراكية القومية وشغّبنا المناضل، وأنهم هذّدوا أمن الرايخ بالأوراق المزوّرة التي أمدوا بها اليهود كي يقوموا بعمليات تمويه باعتبارهم من ذوي الدم الألماني، كما أنهم أقاموا علاقات مع مجموعات سياسية غير مشروعة من العمال الأجانب.

تأكدت المحكمة من أنهم بانهازاميتهم مهّدوا الطريق أمام الشيوعية، ونالوا من عزيمتنا النضالية، مقدّمين المساعدات من قلب جبهتنا الداخلية لأعدائنا في الحرب!

الحكم مكتوب بلغتي الأم، ومع ذلك تبدو لي كأنها لغة غريبة، حروف لاتينية أمليت وكُتبت بالغضب الساعي لتدمير كل حرف مُسالِم، حروف مشبعة بالكراهية التي تحتقر الدقة في التعبير. حروف هيروغليفية ألمانية مأكرة وخبيثة للغاية؛ لأنها تبدو مفهومة للجميع، لأنها تثير صدّى مألوفاً، وكأن شخصاً استخدم هذا التعبير أو ذاك بالأمس فقط، على نحو أخفّ، هذا هو الفارق، سياسي، أب، معلم. نبرة التقرّيع والتوبيخ.

ولأن المتهمين الأربعة أنجزوا إنجازات علمية ومهنية جديرة بالالتفات إليها، فإن السادة القضاة يستهزئون بهم قائلين: هافمان، وجروسكورت، وريشتر، ورنتش يدّعون الثقافة. ثم يواصلون خطابهم العقابي بعد أن يسخروا من الطريق المهني الذي سار عليه كلٌّ من الأربعة: بسلوكهم بين الأربعة أنهم جميعاً ليسوا على أي درجة من الثقافة والتعليم. فالثقافة لا تعني اكتساب العلم والمهارات التخصصية فحسب؛ إن الشرط الأساسي والضروري للثقافة الحقيقية لأي ألماني هو الوفاء لشعبه من خلال الوفاء للفوهرر والرايخ. وهؤلاء الأربعة قد خانوا الشعب والفوهرر والرايخ.

كانت الجُمْل تحملني على أن أقف، وأبتعد عن المكتب، وأتمشّي في الغرفة باحثاً عن أي شيء يُشَتُّ انتباهي، ثم تجذّبنني هذه الأوراق بقوّتها المغناطيسية من جديد. لن أضعف، كنت أقتفي أثر قاتل «ر»، وهنا، وسط طبخة الأكاذيب هذه، تكمن الأدلة والبراهين.

كانت مَحَكمة الشعب العليا من الكرم بحيث إنها فصّلت أيضًا أسباب وحيثيات قرارها. ولكن كان من المُجهد استشفاف شجاعة الرجال الأربعة وأفعالهم خلف غيمة السباب والشتائم.

السبب الأول لحكم الإعدام: وجهة النظر القائلة بأن ألمانيا ستخسر الحرب، وعندئذٍ ستتحول ألمانيا إلى مسرح للصراعات بين البلاشفة والأنجلوساكسونيين، وستتمزّق البلاد في خِصْم صراع القُوّتين. لذلك، كانت الأيديولوجية البولشفية، والأيديولوجية الديمقراطية الأنجلوساكسونية قبلّة برنامج منظمة «الاتحاد الأوروبي» التي تأسّست في الخامس عشر من يوليو ١٩٤٣م.

السبب الثاني: ما قامت به المجموعة الألمانية من أفعال تجلب الخزي والعار عندما اجتمعت مع عمال أجانب من منظمّات غير مشروعة لإجراء نقاشات سياسية، وساعدت في تزويد تلك المنظمات بمواد تُبثّ في إذاعة غير مشروعة. وبينما كانت الجهات الحكومية والحزب والجيش والشعب الألماني بصموده الأبّي الشريف يحاولون بنجاح درء المخاطر الكامنة في تشغيل ملايين عديدة من العمال الأجانب، فإنّ المتهمّين فعلوا العكس، في الوقت نفسه اجتمع أربعة رجال توهّموا أنهم مثقّفون وعلى درجة عالية من التخصص المهني، وهم في الحقيقة ليسوا إلا مُتتاقفين مُنحَلّين بلا خجل أو شرف أو ضمير، تعاونوا مع أولئك العمال الأجانب في طعن شعبنا المناضل من الخلف!

كل كلمة من هذا الحكم — هكذا كان عليّ أن أذكر نفسي المرة تلو الأخرى — أملاها القاضي «ر» ووقع عليها. الحكم صاغه القاضي المساعد الذي اختاره هتلر بنفسه لهذا المنصب. هذه الجمل — حتى وإن كانت مجرد صياغات نازية نمطية، وحتى إذا كان فرايزلر نطق بها أولاً، وحتى إذا كان فرايزلر هو الذي حرّك قلم كاتبها على نحو أو آخر — أملاها رجل باسم الشعب الألماني الاشتراكي القومي، وهذا الرجل بُريء الآن باسم الشعب الألماني الديمقراطي الليبرالي من أي ذنب أو مسئولية في إصدار أحكام ظالمة.

السبب الثالث لحكم الإعدام: لم يتورّع «الاتحاد الأوروبي» عن محاولة الاتصال مع جاسوس سياسي روسي، ولم يقدّم أعضاءه — وهو ما يحتمه الواجب على كل ألماني — ببلاغ جهاز الشرطة أو الدفاع فوراً!

رابعاً: تطفح المنشورات بالأيديولوجية البولشفية، وتعبج بالعبارات المستهلّكة عن الحرية والفردية، تلك العبارات المقتبسة من أدبيات الثورة الفرنسية ودستور

فايمر. ليس هناك استشهادات، كما أنهم لا يسوقون نقاطاً بعينها أو حججاً؛ لأنهم إن فعلوا فسينطقون بحقائق عديدة غير مريحة للنازيين، لذلك لم يَمْلُؤوا القُرْعَ بالمطرقة الخشبية التالية: إنهم انهزاميون حتى النخاع، شيوعيون وبورجوازيون فَرْدَانِيُونَ في ركوعهم أمام ستالين، وروزفلت، أما هجومهم على القوات المسلحة وقوات الدفاع فينم عن وقاحة مستهزئة.

لدى السبب الخامس يشعر القارئ باللذة التي تسري في بدن الجلاذ وهو ينهال على «شرزمة الخونة»: وتتجلى وقاحة المُتَّهَمِينَ في دعمهم المنهجي لليهود الذين يعيشون على نحو غير مشروع، بل وتسمينهم.

تسمينهم؟ نعم تسمينهم، هكذا كتب السيد المستشار القضائي الذي يدَّعي التزامه بالقوانين. ليس هذا فحسب، لقد أمدَّوهم أيضاً بهويات مزوَّرة لتضليل الشرطة، وكأنهم ليسوا يهوداً، بل ألمان. بإسهاب يتم ذكر حالات عديدة مدَّوا فيها يد العون إلى يهود. ثار القضية بسبب إخفاء الناس عن أعين الشرطة، ولكن غضبهم كان أعظم بسبب مئات الماركات التي أنفقها الرجال الأربعة على الهاربين. يا لغرابة التوجهات المنحطة، اليهودية والشيوعية، التي استشرت بين هؤلاء المتهمين!

بحث فرايزلر و«ر» عن سبب سادس، كي يدينوا تلك الشرزمة الوضيعة من المجرمين عريقي الإجرام الذين قدموا الدعم الفائق لأعداء البلاد وسط الحرب. اعترف الأربعة أنهم استمعوا إلى راديو لندن. لقد اعترض المتهمون على أن رؤاهم هي عاقبة الاستماع إلى الإذاعة المعادية؛ إنها تنبُع إذن من داخلهم، وهو ما يزيد الطين بلة! ولكن لندن لا تكفي القضية، فالشياطين بحق ينبغي أن يكونوا شيوعيين. دفع المتهمون عن أنفسهم التهمة بأن برنامجهم شيوعي. ولكن أفعالهم تتعارض مع الاعتراض الذي نطقت به شفاههم.

سابعاً: الانهزامية الجبانة: إن مجرَّد التفكير في ألا نحشد اليوم كل قُوانا من أجل إحراز النصر، بل ادخار القوى لحالة الهزيمة لهو تفكير إجرامي خائن وانهزامي حتى النخاع. لقد وجَّه القضية لهم تهمّة الخنوع كالكلاب أمام الأعداء الألداء، أمام البولشفية والأرستقراطية، طالبين الرأفة بهم عندما يتولَّى أولئك السلطة لاحقاً. كما وجهت لهم تهمّة تلطيخ الإنجازات الذهنية بالوحل، والتمرغ بلا خجل في حماة الصالونات البولشفية وما يشبهها من أماكن مُنحَلَّة.

ثم المسك في الختام، الختام على الطريقة الألمانية: أي الجندي الألماني: ماذا سيقول جنودنا إذا لم تعامل الدولة القومية الاشتراكية مثل هذه الكائنات بما تستحقه؛ أي

باعتبارها كائنات عديمة الشَّرَف إلى الأبد، طَعَنَت شعبنا المناضل، وطَعَنَت بالأخص جنودنا المناضِلين من الخلف وعلى نحو لا يتصور؟ إن ذلك يحتم علينا أن نحكم بالإعدام على المتهَمين الأربعة، هذه الكائنات عديمة الشرف إلى الأبد.

وعليكم بتحمل تكاليف القضية لأنكم مدانون.

أي إنهاك وإجهاد أن أقرأ جملاً كهذه وأن أدونها. أَلقيت بالمعطف على كاهلي، وخرجت من البيت. شممت رائحة شواء الدجاج المتصاعدة من مطعم «فينرفالد» التي فاحت في الشارع كله، وتمشَّيت حول الوحدة السكنية. أتذكر جيداً أنني وجدت نفسي مدفوعاً إلى التهام نصف دجاجة بنهم، وقد اختلطت شهوة اللتهام بالكراهية المتوحشة الحمقاء التي انصبت على اللحم العاري المقرمش، ثم عدت إلى العمل؛ حيناً يسيطر عليَّ الشعور بالتقزز من غضبي التدميري، وحيناً بالانجذاب إلى البدائية، وأحياناً أخرى يغلبني التعب من النَّبَش في القاذورات النازية، ثم قررت: عليك كباحث أن تبقى محايداً!

كنت أقتفي أثر كل كلمة محاولاً تَصَيِّد متى تنحرف من الصدق إلى الكذب. كل جملة تقريباً كانت تقود إلى النتيجة المنطقية: في هذه الحالة لم يقم رجال قانون بإصدار حكم، إنهم رجال أيديولوجيا لم يكونوا بحاجة إلى السير في متاهة مواد القانون وبنوده. وكأن هناك جائزة تُمنح لمن يستطيع أن يكتب أكثر الحِثثيات والأسباب لا قانونيةً وعاطفيةً وتدميراً. نيران مدافع التكرار الرشاشة: انهزامي، شيوعي، وقاحة، متثاقف. اللغة وحدها تفضح كيفية خرق القانون، وكيفية لِيّ ذراع الكلمات والجُمْل إلى أن تنطلق مثل طلقات الرصاص وطعنات الحِراب، مثل أدوات التعذيب. الإعدام بالمفردات. وفوق ذلك كله يستخدمون التهديد المضحك، التهديد بالأبدية التي لم تستمر عامًا ونصف عام: فقدوا شرفهم إلى الأبد.

البقاء على الحياد، كيف يمكن ذلك إذا كانت أسباب الإعدام السبعة التي كتبت عام ١٩٤٣م قد أضحت بعد خمسة وعشرين عامًا سبعة أسباب لإقامة النصب التذكارية وتأليف الكتب وتصميم الطوابع البريدية وإقامة الاحتفالات التذكارية وإطلاق الأسماء على المدارس؟

البقاء على الحياد، كيف يمكن ذلك إذا شعر المرء بانجذاب إلى لغة الغدر المتقنة؟ هل هناك لذة يولدها الألم المنبعث من لغة الاستئصال هذه؟

كان لديَّ هدف، كنت أقتفي أثر الجاني، المستأصل، القاتل، وها هو يتراءى لي. هذه اللغة التي لا تدع مجالاً للشك، لغة تريد تخليد نفسها بكلمات زاعقة وعبر صيغ الاستئصال

الطقسية، مَنْ أَمَلَاهَا؟ رجل بالغ، رجل قانون، ابن قسيس، بالمناسبة، مستشار محكمة، يجلس على عرش القضاء إلى جانب رئيس المحكمة، يتولى كتابة محضر الجلسات، سيد كلمات الحكم.

لقد فقدت هذه الزمرة من المجرمين الوضعاء شرفها إلى الأبد.

الشرف إلى الأبد لك، أيها السيد مستشار المحكمة الذي التزم بتنفيذ القانون يوم السادس عشر من ديسمبر عام ١٩٤٣م لقد فعل القاضي ما فعل التزامًا بقناعة داخلية وخارجية، حكم وأعدم، لم تحركه أسباب خسيصة، مطلقًا، بل لأن البلطة والتعذيب وطعنة الحربة وطلقة المسدس والرصاص كانت في العنق؛ هذا هو أساس الأخلاق السامية السائدة، أخلاق الاستئصال، جزء لا يتجزأ من قدس أقداس الفوهرر، الذي يخدمه هذا القاضي بحماس وحمية، ألزم نفسه طواعية بتقديم قرابين الخنوع والذلّ، شريفًا إلى الأبد. مَهْمَا حاولتُ، لم أستطع أن أكره القاضي «ر». إنني أحتقره كل الاحتقار. ولكنه بحكم الإعدام هذا — هكذا أصدر حكمي — قد وَقَّعَ على حكم إعدامه. لم أكن بحاجة إلى أحكامه الأخرى، سواء كانت ٢٣٠ حكمًا أو ضعف هذا الرقم أو نصفه. رُفِعت الجلسة.

بيرة في فريديناو

نادراً ما كنت أرى الأصدقاء في تلك الأسابيع. بعد الانتهاء من المحاضرات الإلزامية في الجامعة كنت أنهمك سرياً في التحضيرات السرية لكتاب جروسكورت. كان الوضع يغلي ويفور في كل أنحاء العالم. في برلين كانت الحرب الأهلية غير المُعلنة قد اندلعت. انطويت، ولم أسمح لنفسي بالذهاب إلى السينما أو شرب البيرة في المساء أو حضور الاجتماعات والقراءات في قبو المكتبات.

خصصت الساعات الشاغرة لكاترين، على قدر المستطاع كنتُ أقضي معها الليالي، واليوم أعترف أنني لم أفعل ذلك اعتباطاً. كنت عازماً على ألا أهمل كاترين في كل الأحوال؛ لأنك سوف تفتقد أشياء عديدة في السجن: حرية الحركة، الأصدقاء، طيبات الطعام، الموسيقى، الرحلات، الطبيعة، وإذا كان حظك سيئاً الآلة الكاتبة أيضاً، ولكن أكثر ما سوف تفتقده هو الحب. إذن أحب قدر ما تستطيع، أحب كاترين حباً شديداً كما تشتهي هي، أحب للمستقبل، عندئذٍ سوف تزورك في السجن، وسوف تشجعك نظراتها وعيناها الخضراوان الرماديتان، لم أكن أتوقع أكثر من خمس سنوات مقابل القتل الخير الذي سأنفذه.

أما الآخرون فكانتُ أصدُّهم جميعاً مستخدماً كلمة «العمل». جعلتهم في يقين بأنني أكافح لكتابة رسالة الدكتوراه. كان هذا في حد ذاته أمراً جَسوراً، بل يثير الشبهات في عصر التمرّد. تحاشيتُ الرفاق الذين كانوا يحترقون تلك الأنشطة وينتظرون من كل فرد الممارسة الثورية، أو على الأقل أفعالاً سياسية. تجنبت الشقق الطلابية المشتركة، أيضاً تلك التي يسكن بها برونو وهوجو، حيث كان الضغط الذي تمارسه الجماعة يزداد يوماً بعد يوم، ولا سيّماً أثناء الجلوس إلى مائدة المطبخ الكبيرة التي كانت تقدم عليها أطعمة تزداد

وفرة خلال أمسيات تزداد طولاً: ماذا تفعل؟ ماذا تفعل سياسياً؟ ولماذا؟ أفصح! اعترف برغباتك، على الفور! أسرارك، إلينا بها!

حتى الأصدقاء الكُتَّاب لم أكد أرى أحداً منهم. كل بضعة أسابيع كنا نتقابل على المائدة الأخيرة في عمق حانة «بونديس-إيك» في فريديناو. كنا نودُّ نحن أيضاً أن يكون لنا دور سياسي، ولكن بالنصوص، وكنا نبحث عن حلول أنيقة. في الساعة الأولى — هذه هي القاعدة — لم يكن من المسموح شرب شيء سوى القهوة والماء والكوكاكولا، أما الحديث فيدور حول المشاكل الأدبية. أما الشائعات والآراء عن الكتب والنميمة فلم يكن مسموحاً بها إلا فيما بعد مع كئوس البيرة.

احتفظتِ الذاكرة بأحد الأحاديث، أمسية مع هانيس، وكلاوس، وكريستوف، وجيرت، ومارتين، وينس، سبعة شبان يجلسون في حانة، لم يتذوقوا نقطة من الخمر بعد. بدأ الشجار بالسؤال الذي طرحه كلاوس: إلى أي حد ينبغي على الكاتب أن يُجمل نصّه؟ تبني هو الرأي القائل: إن على الكاتب أن يُبقي نوعاً من الفجاجة، حتى الكلمات الزائدة، وكان معجباً بالتلقائية التي يكتب بها الأمريكيون الذين يجيئون إذا اقترح عليهم أحد التنقيح أو التصليح: Why؟ تناقشنا حول قدر التلقائية المسموح بها في الكتابة. اعترض ينس بحدة قائلاً: في موقفنا هذا علينا أن نتأمل بدقة ما نفعل، ما يُسمى بالتلقائية مجرد بدعة ابتدعها الأكاديميون الذين يودون التخلص من الأثقال، التلقائية تستبعد المضامين الاجتماعية الناقدة. عارض كلاوس هذا الرأي. حاول جيرت أن يوفق بين الحزبين: قد تكون القصيدة مرة هكذا، ومرة على نحو آخر.

بدأ كريستوف من جديد: القصائد الأمريكية قصائد ديمقراطية، مفتوحة؛ لأن كل شاعر يكتب على نحو مُشابه، وكل طالب، وكل واحد من الهيبيز سيفهمها، في الولايات المتحدة سيهاجم هو شخصياً هؤلاء الكتاب؛ لأن الوعي التاريخي النقدي ينقصهم، ولكن طريقتهم في الكتابة المفتوحة لا يمكن إلا أن تفيدنا. معنى ذلك، يرى ينس، أن على الكُتَّاب البورجوازيين الشُّبَّان أن يمتنعوا عن التأمل في وضعهم تأملاً عميقاً، وأن يتبعوا أهدافاً سياسية وأدبية معينة. هل معنى ذلك، سأل مارتين، أن على كل نص أن يكون — في المقام الأول أو الأخير — سياسياً؟ لا، رد ينس، علينا أن نتأمل فحسب في بورجوازيتنا.

يوصينا كلاوس بالتواضع ويُحذِّرنا من الكلمات الكبيرة. كريستوف يقول: ثمة نصوص سياسية ونصوص جميلة، ولكل من النوعين مشروعيته، أحدهما يفتقد الذاتية والآخر الموضوعية. يرد ينس بلهجة حادة على كريستوف: إن التحجج بكلام مثل

«من ناحية» و«من ناحية أخرى» ليس إلا تفرقة بورجوازية، وهذا بالضبط ما يجب علينا محاربته، في الحقيقة علينا محاربتك أنت! كريستوف: إنني أحارب نفسي بما فيه الكفاية!

أخيراً تعلقو ضحكة بين الجالسين، ولكن دوافع هجوم ينس — هكذا نشعر — كانت شخصية. عرضتُ حلًّا وسطًا: التفرقة بين «السياسي» هنا، و«الجميل» هناك لن يفيدنا كثيرًا، المهم هو التوصيل، مثلًا من خلال الوعي التاريخي النقدي للمؤلف، نص «جميل» لكاتب ذي وعي نقدي — أضفت — يختلف عن نص مؤلف ساذج. هانيس: تتجلى في القصيدة ذات الكاتب التي تحاول أن تُعبّر عن نفسها بأقصى دقة ممكنة. جيرت أيضًا أراد أن يساهم في نزع فتيل الشجار: تختلف الصياغة المتبصرة الواعية باختلاف نوع النص الذي أكتبه.

اليوم تثير جدية تلك الكلمات الضحك. كنا دور في حلقة مفرغة دون أن نلاحظ هزلية نقاشاتنا. كنا متشجنين بسبب التوترات القائمة بين كريستوف وينس الذي كان كثيرًا ما يُطعم حججه بهجوم جارح. كلاهما كان يسعى إلى الإمساك بزمام النقاش، كلاهما كان يسرع إلى تقديم الحلول التي يظن كل واحد منهما أنها ناجعة وسحرية؛ ولذا كانا يشتبكان في كل نقاش. لم تَمْضِ عدة أمسيات إلا واشتبكًا في خلاف حادٍّ حول الكاتب الأكثر أهمية والذي ينبغي أن يكون نموذجًا لنا: فلوبير «البورجوازي» أم زولا «الواقعي». راح ينس يُقرّظ زولا باعتباره الكاتب الجديد الفطري، أما كريستوف فكان في صف فلوبير الشيخ ذي النظرة العميقة. ينس: السيارة أحب إلى قلبي من الحنطور! فرد كريستوف: حنطور جيد أفضل من سيارة سيئة!

لم تُحل التناقضات في تلك الأمسية أيضًا. عالجنّا الندوب الطازجة بالبيرة ولعبة كرة القدم^١ بينما ذهب جيرت وكلاوس ليلعبًا، سمعتُ آخر أخبار النميمة عن شعراء فريديناو، ورحتُ أتأمل ينس وكريستوف شاعرًا بانزياح الهم؛ إذ إنهما اتَّفقا على إضفاء المديح على عمل سولجنستين «إيفان دنيوفيتش».

كل هذا جزء من اعترافي؛ لأنني لاحظتُ في تلك الأمسية للمرة الأولى كيف أثارت خططي السرية السعادة في قلبي؛ تلك الخطط التي أملاها علي مذيع الأخبار في محطة القطاع الأمريكي. كنت أعرف ما أريد. لم يكن علي أن أعبأ بالسياسي أو الجميل، بالبورجوازية أو الوعي. لم أكن بحاجة إلى مصطلحات. اليوم سأقول: كنت سعيدًا بحكم الإعدام. لدي الدليل، لدي الدافع، والآن، بين الأصدقاء الكتاب، فكرت في سري. وربما تنجح أيضًا فيما تنويه!

لم نكن نعانى إدمان الشهرة، لا بُدَّ من تسجيل هذه النقطة لصالحنا. كلُّ سعى إلى المزج المثالي، بالنسبة له، بين الجمالي والسياسي، هذا على نحو تَسْلُطي، والآخر على نحو عبقرى، والثالث عبْر السخرية، والرابع من خلال التهوين. النجاح بدون إنجاز كان أمرًا مستهجنًا، والرغبة الخفية في الشهرة أمرًا يثير الريبة. ثم هذه الفكرة المدهشة التي لم تخطر على عقل أحد: عملك الخير قد يصبح واقعة مثيرة، تمامًا مثل كتابك عن الاغتيال، أثناء المحاكمة ستتكأ جراح الفضيحة القضائية، أو ستصبح حالتك أنت فضيحة، خمس سنوات في السجن استثمار جيد للمستقبل: ستخرج رابحًا على كل حال.

هكذا أطلقتُ لخيالي العنان باذلاً جهدي لإخفاء الأفكار الممنوعة، فيما كان اسم سولجنستين يزعج إحدى أذني، بينما كانت أذني الأخرى تتابع ما يقال عن Beggars Banquet، الأسطوانة الجديدة لفريق «ستونز». كان كريستوف يهيم بـ «المُقاتِل في الشوارع»، Street Fighting Man، أما كلاوس فلم يدع أحدًا يهاجم بوب ديLAN بكلمة.

لكزني هانيس، أو ربما مارتين، قائلًا: إيبه؟ لماذا لا تقول شيئًا؟ في معظم الأحيان كنتُ أرد على هذا السؤال بقولي: ليس لدي ما أقوله. هذه المرة، وقد أزعجني أحدهم أثناء حلمي بمستقبل باهر، قلت: لقد استولى التعب على «المُقاتِل في الشارع». وتعلت ضحكات الآخرين.

الطبيب الذي لا يقدر على رؤية الدماء

سألتني كاترين: كيف يصبح ابن فلاح معادياً للنازيين، وكيف يتحول عدو النازيين إلى طبيب لهم، وكيف وصل المُنْهَم بالخيانة العظمى إلى حبل المشنقة؟ كيف تُفسَّر هذه القفزات؟

لو كنت أعرفُ آنذاك ما أعرفه الآن عن جروسكورت، لقلت لها: ليست هناك قفزات. سأبدأ بالجملة التالية: لم يكن يستطيع أن يرى دماء. عندما يذبحون ماشية، يختفي الابن الأصغر لصاحب المزرعة عن الأنظار. الأسهم التي توجه إلى الخنازير، تعليق الحيوانات بجانب الحظيرة، الأحشاء المنتفخة، الفئوس التي تنهال على العظام والسكاكين التي تقطع اللحم النّئى، الدم في الأوعية وابتسامة الجزار، حماسة العائلة كلها أثناء تقطيع الحيوان الذي ما زال ينبض بالحياة، كل هذا لا يطيقه الصبي.

– ليس من الضروري أن تُحدّثني بكل التفاصيل، أفهم ما تعنيه.

– طيب. كان الفتى محظوظاً، لم يسخر منه أحد لتصرفه كالبنات. لا يستطيع جيورج أن يرى دمًا، بهذه الجملة حمته الأم، ابنة أحد العمال. ليس عليه أن يساعد في تقليب الدم أثناء صنع السجق، يستطيع أن يبقى بعيداً عندما يلعبون بأذان الخنازير، يسمحون له بالذهاب إلى القرية. محظوظ، آخر العنقود، فأخوه الأكبر هو الذي سيتولى شئون المزرعة. لا خطر على مكانة الأب، المزارع الكبير وعمدة أونترهاون، هاينريش جروسكورت، رئيس اتحاد الفلاحين في هيرسفلد وعضو مجلس الدائرة. بعد عدة سنوات يرغب الصبي الذي لا يطيق رؤية الدماء في دراسة الطب؛ يتعجبون في العائلة، يبيع الأب قطعة أرض حتى يستطيع تمويل الدراسة. بعد عدة فصول في جامعة ماربورج، حيث يتعلم رؤية الدم، ينتقل إلى فرايبورج، وجراتس، وفيينا، وبرلين، ويُنهي دراسته بدرجات ممتازة، يحصل على درجة الدكتوراه، ويتنبأ له الجميع بمستقبل مهني باهر.

— ليس عليك أن تروي لي سيرته، السؤال هو: ماذا يُحوّل طبيباً شاباً إلى إنسانٍ سياسيٍّ واعٍ؟

— وهذا بالضبط ما أردت الوصول إليه! من لا يستطيع رؤية الدم — هكذا ادّعي — يرى ما هو أكثر من الدم، يرى في العالم ما هو أكثر، وربما يكون لديه شيء ثمين يفقده آخرون: الحساسية. ثلاث خبرات تؤثر في حياته تأثيراً حاسماً:

بعد الثانوية العامة، في عام ١٩٢٣م وفي ذروة التضخم، يعمل لمدة عام في أحد مصانع هيرسفلد لتصنيع الماكينات. يرى البؤس ووضاعة العمال ووحشيتهم، الإنسان الذئب بين آلات الخراطة. يفقد الشعور بالكرامة الذي يعرفه بين الفلاحين. النتيجة التي يتوصل إليها: التقنية تفسد الإنسان. إذا كان قد تحوّل في تلك الفترة إلى اشتراكي، فإنه لم يستند إلى أي أوهام بشأن البروليتاريا، كما أنه ظل محصناً ضد مثاليات الأيديولوجية الحزبية. الصدمة الثانية يدين بالفضل فيها للإيطاليين. بعد الفصل الدراسي الذي قضاه في فرايبورج يسافر رغم الضيق المالي إلى إيطاليا، ويزور بولونيا وفلورنسا. كان في جيبه تذكرة العودة، ولكن لم يتبقّ معه مال. إن البقاء على قيد الحياة مُكلّف، حتى في النظم الفاشية. يقول لنفسه: سيقدم الفلاحون يد العون لابن فلاح، ثم يواصل سيره بين القرى. يقترب من بيوت الفلاحين وفي رأسه بعض الكلمات الإيطالية المكسرة، يريد أن يقدم نفسه على أنه فلاح، طالباً لقمة ومكاناً للنوم بين أكوام الدريس. نادراً ما تتاح له الفرصة لكي ينطق بالكلمات التي حَضَرها، يلاقي الصد في كل مكان يذهب إليه، تلاحقه الشتائم وتطارده الكلاب. لا يستسلم، يُجَرِّب حظه كطبيب، يعرض مساعدته، إلا أن ذلك لا يأتي بلقمة العيش أيضاً: صعلوك! أياماً عديدة يعاني وطأة الجوع، يشرب من مياه الجداول، يحلق ذقنه في الغابة، يَسُد رمقه بثمار الشجر والتوت البرّي. لم يؤلمه شيء في حياته مثل هذا الجوع. عندما رجع إلى أونتريهون يقول لأمه راجياً: إياك أن تجعلي أحداً يغادر المزرعة جائعاً، أنتِ لا تعرفين ألم الجوع!

الأمر الثالث هو نمو مُعاداة السامية في الجامعات، ولا سيّما في جراتس وفيينا، التعنت الذي يلاقيه الزملاء اليهود، الحكايات المعتادة، كل هذا يثير السخط في نفسه. الكرامة والشرف وتقديم المعونة، هذه المُثُل تكفي لتحوّل جروسكورت إلى إنسانٍ سياسي. في حلقات صغيرة كان يردد: يجب معاقبة معاداة السامية بالإعدام!

بالمُناسبة، كان كتابه المفضّل هو «أروسميث» لسينكلير لويس، وهو يروي حكاية طبيب ابن فلاح ينتهي به الأمر — بعد متاهات وطموحات زائفة للوصول إلى المال والنساء

والأبحاث المنحرفة — إنساناً مخلصاً ومساعدًا لكثير من الناس، بل ينظر إليه بتقدير كمستشار سياسي أيضًا.

— وتوتة توتة، فرغت الحدودة.

— لا، بدون الحيلة وفنّ تمويه ما يبطنه ما كان سيصبح رجل المقاومة. كتلميذ اجتاز امتحان الثانوية العامة بعد أن قام بتضليل ممتاز. كان معلم اللغة الألمانية قومياً متعصباً لا يعطي درجات جيدة إلا لمن يُردّد كالبغاء ما يقوله. كيف يتصرف صبي ذكي صبيحة الحرب العالمية الأولى عندما يطلب منه كتابة مقال عن: «ما فضل الوطن علينا؟ وبماذا ندين له؟» بإمكان جيورج أن يكتب رأيّه، ويرسب في الامتحان، ويهدّد دراسته ومستقبله. إذن، يُكوّم في مقاله العبارات المحفوظة عن الوطن، يرضها رصاً، لا يترك عبارة نمطية إلا ويستهلكها، وهكذا يؤلّف محاكاة ساخرة لا تلفت انتباه أحد وتجلب له الدرجة المرغوبة. بدون مثل هذه التمارين ما كان له أن يضلل هيس وشرذمته، ناهيك عن السادة في سلاح الإس إس.

يُجري الطبيب الشاب أبحاثاً في الدم، وينشر باجتهاد مقالات علمية. وسرعان ما يصبح خبيراً في الدورة الدموية وعملية تحوّل الغذاء إلى طاقة. وهكذا يُعيّن في معهد القيصر فيلهلم للكيمياء الفيزيائية، لم يكن من الممكن أن يصعد طبيب في الثامنة والعشرين أعلى من ذلك. هناك يتعرف إلى روبرت هافمان، صداقة من النظرة الأولى. رئيس الاثنين، البروفيسور فرويندليش، يُلاحق إلى أن يفر إلى المنفى عام ١٩٣٣ م. في اللحظة الأخيرة يحصل على منحة علمية لتلميذه جروسكورت. ولا يمر وقت طويل حتى يتم طرد مُساعد البروفيسور اليهود من المعهد. في نهاية ١٩٣٤ م يبدأ جروسكورت العمل في مستشفى روبرت كوخ في برلين موأبیت الذي كان يعتبر حتى عام ١٩٣٣ م من أفضل المستشفيات في الرايخ، غير أن حالته تدهورت بعد طرد ثلاثين طبيباً من بين الأطباء البالغ عددهم ٤٧، وأغلبهم من رؤساء الأقسام أو بدرجة «طبيب أول»، وإحلال أطباء نازيين غير أكفاء محلهم، ومعظمهم من قوات الصاعقة وسلاح الحرس النازي. لا يمكنهم الاستغناء عن كفاءة جروسكورت كطبيب للأمراض الباطنة، يعتمدون عليه، رغم أنهم لا يُرقّونه سنوات طويلة. يستدعي جروسكورت زميله هافمان للقيام بأبحاث مُشتركة في المختبر. يجلسان في وكر النازيين، ظاهرياً هما مُتأقلمان مع الوسط المحيط بهما، مجتهدان، لا يمكن الاستغناء عن جهودهما، وفي الوقت نفسه يُؤسسان وكرًا للمقاومة.

— ولم يَلفَتَان الانتباه؟

– كان لديهما «صالون كونتسه»، حَكَيْتُ لك عنه، ملتقى أعداء النازية في المختبر. حلقات الأصدقاء هذه، واحة وبورصة لتبادل النكات والنميمة، مكان للاسترخاء ضروري لتحمل الجهد المبذول في التظاهر والتضليل والنفاق، لكن جيورج، وروبرت يريدان أكثر؛ يودان معرفة خطط النازيين على وجه الدقة. عبّر عمله نائباً لطبيب في جزيرة روجن يتعرف جروسكورت إلى أرملة طبيب أرياف حاصلة على «شارة الحزب الذهبية»، يهتم الطبيب بأمرها، ما يدغدغ مشاعر السيدة، فتوصي به طبيباً لدى كبلر وكيل وزارة الخارجية، وألفريد هيس رئيس إحدى المقاطعات، والأخير يجلب له أخاه رودولف، وهكذا. يواصل جروسكورت التَّخْفِي والتضليل حتى يقطع الطريق على استدعائه إلى الجيش، يسجل اسمه طوعية للقيام بتدريب أساسي لدى سلاح الرُّوَاد، ويجيد الرماية إجادة بالغة. بفضل علاقاته يجري تجارب بالغاز السامّ على الحيوانات في الأكاديمية العسكرية حيث يعمل هافمان أيضاً. ينال درجة الأستاذية بأطروحة عن التسميم بمواد تُعتَبَر من الأسرار العسكرية.

– ألم يبالغ؟

– ربما. كان يتوقع من النازيين كل شيء، كان يحدث ما يدور في رءوسهم، غير أنه لم يكن يستطيع أن يدرك في عام ١٩٣٧م أنهم سيرسلون بشرًا بعد سنوات قليلة ليلقوا حتفهم تحت حنفيات الغاز. يقوم بجمع معلومات، يشعر بالأمان في ظل هيس، ويعمل من أجل نجاة أعداء النازيين. لنبسط الأمر ولنقل: إن روبرت الشيوعي وجيورج الاشتراكي – الذي كان ينظر إلى نفسه باعتباره إنسانياً – كانا مُتَفَقِّين في كل شيء حتى ظهرت أناليذه.

– آه، المرأة هي المُذْنِبَة، هكذا كانت كاترين ستقول.

– كلاً، بل أحكام روبرت المسبقة.

– ليس من الضروري أن تدافع دومًا عن المرأة.

– هذا ما يقوله روبرت نفسه. في الخمسينيات كتب مسودة لذكرياته ووصف جيورج على النحو الذي كان يراه به آنذاك. هل تَسْمَحِين لي بالاعتباس؟ «كان بإمكانه أن يكون أكثر الناس ابتهاجًا، ابن الفلاح هذا الآتي من منطقة هيسن، صديقي ورفيقي جيورج. خلال فترة طويلة تعكرت العلاقات بيننا بسبب زواجه بـ «آلي»، ابنة أحد الرأسماليين الكبار، عضو في مجلس إدارة «هانوماج». حدث ذلك قبل الحرب. جلب له الزواج سيارة جديدة فارهة، وهدايا من حَمِيهِ الغني. سكن عندئذٍ في فيلاً خلف ميدان «مستشار الرايخ»،

أدولف هتلر. قبل ذلك كان يملك سيارة قديمة مستعملة، ماركة DKW، اشتريناها معاً من تاجر سيارات قديمة بعد أن قرأنا إعلاناً؛ أي إنني قدّمتُ له النصح. لم أكن أقود آنذاك سوى دراجتي النارية. آخر دراجة كانت ماكينة ضخمة ماركة BMW، من طراز ٦٠٠ تصل سرعتها إلى ١٥٠ كم. أضحي جيورج بورجوازيّاً. كل شيء في شقته بات جديداً ومرتبّاً. كان يحيا قبل ذلك حياة بوهيمية. شعرتُ بحقد على المرأة الجديدة، حقد طبقي. أفسدتُ صديقي جيورج، هكذا قلتُ لنفسني. كنتُ قد أوشكت على نسيان ذلك. أوشكت. كانت أناليزه موافقة على جهود جيورج السياسية، بل كانت تساعد، حتى إننا عقدنا عدة لقاءات في شقته، عندما كانت الظروف تسمح بذلك. جهودها في تمويل غير الشرعيين بالمواد الغذائية كانت تُؤثّر في النفس. لا بدّ من أن والدها كان يتبرّع بأموال كثيرة دون أن يعرف لأي غرض.»

- ألم يكن هافمان ابن عائلة بورجوازية أيضاً؟
- نعم، الحقد الطبقي الذي يشعر به البورجوازي تجاه البورجوازي.
- تفوح من كلماتك رائحة الغيرة.
- ربما، ولكن موضوع هافمان والنساء شائك، ولستُ على معرفة جيدة به. غير أن تناقضاً آخر بين الصديقين يبدو أكثر جسامة: جيورج عزّف الطريق إلى سعادة قلبه، بينما كانت زيجة روبرت تنهاوى كلما اندفع في طريق المقاومة.

أبقراط يقاوم

ذات مرة سمعتُ من أناليزه جروسكورت حكاية حكاها لها أحد أصدقاء جيورج، واستنادًا على ما دَوَّنْتُهُ آنذاك أستطيع أن أُلْخصها على النحو التالي:

امرأة شابة، تُدعى جريته أو مونيكا أو رناتا، أرملة محارب، تعمل في مكتب إحدى شركات التجارة، تُقدِّم بيتها مخبأً لزوجين يهوديين مُسنَّين هرباً عام ١٩٤٢م من درسدن — بالمناسبة: بعد أن تلقَّيا تحذيرًا من جار لهم يعمل لدى الجستابو — وبذلك ينجوان من الترحيل. تُهَنِّم جريته بشئون الاثنين على قدر طاقتها، أصعب ما تواجهه هو الحصول على مواد غذائية.

بعد مرور شهرين، تعود جريته من المكتب ذات مساء لتجد شقتها خالية. يرن الجرس، وما تكاد تفتح الباب حتى تندفع زوجة البواب. بمجرد إغلاق الباب تحكي ما حدث:

— صباح اليوم هبط ضيفاك الدَّرَج، ثم سقط الرجل مغشيًا عليه. زوجي وأنا حملناه وأرجعناه إلى الشقة، وطلبنا عربة الإسعاف، لكن المرأة لم توافق على ذلك، لم تستجب بأي حال من الأحوال، وفي النهاية رضختُ وركبت معه السيارة. على المائدة كانت هناك ورقة خبأتها، ها هي.

تقرأ جريته: سنسافر إلى بحيرة «فان» لكي ننتمر غرقًا. لا نستطيع أن نجلب لك الخطر بعد اليوم. الله يحميك، ويحمي ألمانيا أيضًا؛ لأنك ألمانية.

— منذ فترة طويلة خَمَنْتُ ما يحدث، ولكن الآن عرفنا أنك تُخَبِّئين يهودًا! لم يمر وقت حتى أتى الجستابو إلى هنا، أرادوا أن يلصقوا بي تهمة معرفة ما يحدث. أوكد لك أنني صرختُ في وجوههم. كنتُ خبأتُ الورقة في جيب المئزرة، لم يروها. على أي حال، عليَّ أن أخبرك بالذهاب فورًا إلى قسم الشرطة. يقولون: إنك تستحقين الإعدام، ولكن لأنك أرملة

محارب، فربما يُخْلِي القانون طريقاً للرحمة، فتُعاقِبِينَ فقط بالنقل إلى معتقلات التصفية، هناك تستطيعين الاحتفال بلقاء أصدقائك اليهود مرة أخرى!

جريتته، شاحبة الوجه، حائرة، يائسة، تسأل المرأة عن نصيحتها، فترد عليها: تقولين لي ببساطة: سأذهب لِتَوَيِّ إلى الشُّرطة! حتى لو سافرتِ صدفة، وهو ما سأفعله لو كنت في مكانك.

تسافر جريتته فوراً إلى جدتها التي تصطحبها إلى صديقة تسكن في منزل يقع على حافة المدينة، بالقرب من جروناو. وهناك تظل مختبئة، عدة أشهر، ويسير كل شيء على ما يرام. ثم تمرض مرضاً خطيراً، مصحوباً بالآلام حادة وحمى شديدة.

والآن يجيء دور جروسكورت. تبحث الجدة يائسة عن طبيب غير نازي. تتحدث مع إحدى معارفها، سكرتيرة في مجلة «إريكا»، تقوم من جانبها بالتحدُّث مع المحرِّر هلموت كيندلر الذي سيغدو فيما بعد ذلك الناشر المشهور. كيندلر يعرف جروسكورت، فينطلق من فوره إلى مستشفى روبرت كوخ في موآبيت، ويسأله النصيحة.

لا يتردّد الطبيب لحظة واحدة، يتناقش مع رئيسة الممرضات، ثم يأخذ بعض الأدوية والحقن، ويدعو كيندلر لأن يتبعه إلى سيارته، ثم ينطلق على الفور. في جروناو يجدان المريضة في حالة أكثر وهناً مما كانا يخشيان. يشخص جروسكورت أنها تعاني من التهاب في المرارة، ويرى أنه لا بُدَّ من إجراء العملية فوراً.

يتشاور الرجلان مع السيدة العجوز. ليس هناك سوى فرصة واحدة في مواجهة سباق الزمن: اسم جديد، أوراق هوية جديدة، وبقدر الإمكان قبل إدخالها إلى المستشفى. ستدعي جريتته أنها ابنتها، روزا، أتت من ميونيخ لزيارة السيدة العجوز المريضة مرضاً عضالاً، ثم وقعت هي فريسة للمرض.

ينقلان جريتته إلى سيارة جيورج، وينطلقان بها وبالجدّة إلى شونيبرج، وهناك يجهزان في شقتها غرفتين للمريضتين، ترقد الجدة في فراشها، ويقوم الطبيب باستدعاء عربة الإسعاف، ويأمر بتحويل جريتته إلى القسم الذي يعمل به في مستشفى موآبيت، قسم الأمراض الباطنة، ثم ينطلق وراءها بسيارته، وفي قسم الاستقبال يقوم بتسجيل بياناتها بنفسه، ويقول: إن أوراق الهوية سيتم تقديمها في الأيام اللاحقة، فحسب ما أدلّت به الأم فإن الأوراق ما زالت في الحقيبة الموجودة بأمانات محطة أنهالت.

لكنهم أثناء التخطيط نسوا شيئاً: التأمين الصحي. كان على جروسكورت أن يُقرَّر بسرعة أن يعالج المرأة الشابة خارج نطاق التأمين. يُلمّح لصديقه، الطبيب أول شلاغ،

بحكاية روزا/جريتة. أكثر من مرة قام جروسكورت بإطّلاع زميله على الحقيقة عندما كان يعالج مرضى يهودًا بأسماء مُستعارَة. يعطي شلاغ المريضة روزا جريتة غرفة منفردة، ويتم إجراء عملية المارارة.

في تلك الأثناء كان جروسكورت يتصل بأصدقائه ومُزوّري الجوازات، وبعد يومين من إجراء العملية كانت بطاقة الهوية الأولى جاهزة. يزور المريضة، ويطلعها على ما حدث، ويسلمها الوثيقة لعرضها على قسم الاستقبال، والادعاء بأنها كانت طوال تلك الفترة في الحقيقة الموجودة بمحطة أنهالت.

تتعافى جريتة، وتنجو من ويلات الحرب، وتواجه صعوبات لكي تستعيد اسمها الحقيقي، وتحكي حكايتها التي تصل إلى آذان أناليزه. هذه الحكاية يمكن قراءتها بصيغة مشابهة في السيرة الذاتية لهلموت كيندلر.

دائرة الجحيم الأولى

قبل أن أسافر في عطلة عيد الميلاد زرت السيدة جروسكورت مرة أخرى وسألْتُها عن تفاصيل الحكم وعن المنشورات والعمال الأجانب. لم تُعطني إلا إجابات متقطعة مُبَسَّرة، بدت وكأنها تتمنع. زادت الحواجز النفسية التي أشعر بها، فحاولتُ أن أعرف شيئاً عنها على الأقل، عن قضيتها في سنوات الخمسينيات.

– لا تندفع هكذا أيها الشاب، نحن ما زلنا في دائرة الجحيم الأولى، عند رجال القانون من دائرة فرايزلر. لو كنتُ عرفتُ آنذاك أن بانتظارني دائرة أخرى، دائرة رجال القانون في غرب برلين.

لم تتم الجملة، وكأنها شعرت أنها مضتُ إلى أبعد من المسموح. من قلبها المنضبط فلتتُ آهة لم تسيطر عليها. إذا لم تَخْنِي الذاكرة فإنها لم تستخدم كلمة «الجحيم» بعد ذلك أبداً، فلم يكن من طبعها المبالغة. ثم نهضتُ وأحضرت كأساً من الكونياك، وهو ما لم تفعله أبداً من قبل:

– جروسييني!

ولمَّا رأتُ نظرتي الغبية أو المُتشكِّكة أوضحتُ قائلة: من جورجيا! على نفس درجة جودة الكونياك الفرنسي تقريباً!

صبت لي ولها، ثم تابعت: صرختُ في وجهك قبل أيام؛ لأنك بدأت تتحدث ثانية عن فرايزلر. فكرتُ آنذاك أن فرايزلر يثير اهتمامك أكثر من جيورج. الشياطين دائماً أكثر إثارة من الطيبين، هذا هو قدرُنا التعيس. أنت تعرف الحكم الآن، وتعرف فرايزلر، وربما تفهم الآن سبب حساسيتي. مرَّ على ذلك نحو ٢٥ عاماً. كان ذلك تحديداً في ١٦ ديسمبر، في يوم ما لا بدُّ من أن أخرج ما في صدري.

بعد كأس الكونيك الثانية أعادت الزجاجة إلى مكانها في الخزانة، وشرعت تتحدث عن جلسات المحاكمة في محكمة الشعب العليا. في اليوم التالي، وقبل أن أحزم حقائبي، دونت: قيل كل شيء عن هتلر وعن جوبلز، أما عن فرايزلر فهناك الكثير مما يمكن أن تقوله امرأة شابة، في الثالثة والثلاثين، كانت تجلس في قاعة المحكمة بين الجمهور، قبل أيام قليلة من عيد الميلاد عام ١٩٤٣م. تحاول أن تُثبِت بصرها على زوجها الجالس في قفص المُتَهَمِينَ إلى أن أثارت في النهاية انتباه زوجها الجالس في الصف الأخير. أَجْلَسُوا الزوجات خلف فرقة من الجنود الشبان، القاعة مكتظة بضباط الصف من رجال الجيش. تشعر بالسعادة إذا استطاعت أن تتبادل نظرة مع جيورج بين الحين والآخر، عبّر الأكتاف ورعوس الجنود الأطفال الحليقة. يجلس محشورًا بين المحامين والأصدقاء. يطالب المدَّعي العام شتارك بإعدام كل المُتَهَمِينَ. لم تر جيورج ثلاثة أشهر طوال، بعد الأيام التي استجمعت فيها قواها عند الأطفال والأقارب في فيردا، حضرَ إلى فايسنهازل الرجال المُرتَدُونَ المعاطف الجلدية السوداء والقبعات العالية، وقبل ذلك جاءوا بسيارة الجستابو إلى كاسل يوم الرابع من سبتمبر ومعهم الأصفاة الحديدية. وفي قطار الليل إلى برلين دفعوهم دفعًا إلى دواوين مختلفة.

يلتفتُ جيورج إليها، بائسًا، شاحبًا، منكسرًا. لم يعد بالإمكان التعرف على جيورج صاحب الدعابة والمرح، جيورج الساحر الجذاب. يغتصب ابتسامة لا تقدر على طرد اليقين بأن عقوبة الإعدام آتية لا ريب. لن تنقذنا إلا معجزة. ترد الابتسامة، ليس باستطاعتها المزيد. غير مسموح لها بأن تعانقه، غير مسموح لها بأن تمر بيدها على جبهته، ليس مسموحًا لها بأن تلمس يديه الحبيبتين. ليس مسموحًا لها بأن تُعزِّيه بالكلمات، ولا أن تدافع عنه، ولا أن تصرخ معبرةً عن سخطها، ولا أن تلوح بذراعيها. ليس لها أن توجه الاتهامات إلى قضاة الموت، عليها أن تعتبر نفسها محظوظة؛ لأنها لا تجلس هي أيضًا بتهمة الخيانة العظمى تحت الصليبان المعقوفة المرسومة على الرايات الحمراء الزاهية.

اجتازت ثمانية أسابيع من التحقيقات في أقبية «برنتس ألبرشت شتراسه»، ثمانية أسابيع محبوسة في الطابق الأعلى من سجن الشرطة في «ألكسندر بلاتس». خلال الغارات الجوية كان السجناء السياسيون يبقون محبوسين تحت السقف، بالقرب من القنابل، بينما يُسمح للمجرمين بالذهاب إلى المخابئ. لا تمشية في الفناء، لا تدفئة، لا اتصالات. نَحَفَتْ وهَزَلَتْ مثله، لكنهم لم يضربوها. لم تعرف شيئًا، لم تعرف تقريبًا شيئًا، لقد ساعدت في تقديم المخبأ للهاربين، حصلت على مواد غذائية، كانت تُخْمَنُ تزوير الجوازات، رأت أحد

المنشورات وقالت لروبرت وجيورج بأن هذا التباهي والافتخار هو الجنون بعينه. كل هذا لم تُح به خلال ساعات التحقيق الطويلة. على ما يبدو لم يكن في يد أحد دليل عليها. لم تدرك إلا الآن، في صباح ذلك اليوم، ما هي الحماية التي قَدَّمها لها جيورج؛ لأنه لم يُبَح لها بشيء، أو بلا شيء تقريباً، ولم يقل لها إلا الضروري.

لم تعرف شيئاً عن الأنشطة التي يُرغى السيد فرايزلر بشأنها ويُزِيد، لم تعرف شيئاً عن المنشورات الأخرى، ولا عن اليهود الآخرين، لا شيء عن الاتصالات مع العمال الأجانب، ولا عن الاتصالات بالشاهد هاتشيك، حماها جيورج بِحُجَب كل هذه المعلومات عنها. تَرْتَعِب، تفهم شيئاً فشيئاً أن شعورها لم يخنها في الشهور الأخيرة. كان كل شيء أكثر من اللازم، لقد ألقى الاثنان على كاهلهما خلال الربيع والصيف أكثر مما يَتَحَمَّلًا. كان يتحرك كالمحموم بين المستشفى والشقة واللقاءات، دائماً خارج المنزل، لا يقول لها سوى: الأصدقاء.

يزأر فرايزلر: شيوعيون، عملاء للعدو! يسب فرايزلر: انهزاميون، متناقفون! يصرخ فرايزلر: طعنوا الفوهرر والشعب الألماني والرايخ الألماني من الخلف! ينشد فرايزلر: خانوا كل جندي من الجنود الشجعان على الجبهة. يصيح فرايزلر: قاموا بإخفاء اليهود والادعاء بأنهم ألمان الدم، وقاموا بتسمينهم! يجعل فرايزلر الجنود الأطفال يضحكون: وأنتم، أيها المتناقفون البُلهاء أردتم أن تنتزعوا زمام السلطة!

القاضي الثاني الجالس بجواره لا يقول ولا يسأل تقريباً. يومئ، يبتسم في شماتة، ويكتب باجتهاد، رغم أن هناك كاتبة لمحضر الجلسة تجلس في الركن. هو أيضاً يرتدي وشاحاً عليه الصليب المعقوف.

بدأت تدرك شيئاً فشيئاً ما يدور في رءوس جيورج وأصدقائه. ليس فقط الجلبة والضوضاء المحيطة بالحاكمة، ليس فقط الحكم الذي يهدد حياتهما هو ما يدخل الخوف إلى قلوبهم ويجعلهم يشعرون بالعجز. الأمر أسوأ من ذلك، ربما يسمعون الآن للمرة الأولى كل الاتهامات التي تُوجَّه إليهم، كل ما اعتصره الجستابو منهم؛ أي الأفعال المُعَادِيَة للدولة التي تم الاعتراف بها تحت الضرب والتعذيب. سيتساءل كل منهم: لقد كتمت هذه النقطة بجهد جهيد، مَنْ وشى بها؟ ربما سيتبادلون الشكوك والاتهامات، ويواجهون الآخرين بالغضب الصامت.

ثم التهمك والازدراء! أن يروا هنا أن كل ما فعلوه — وهم لم يفعلوا سوى الخير — يتم تلطيخه وتزويره ووُصِّم به هذه العصابة. كل مُسَاعِدَة تقدموا بها إلى مُطَارِد، كل فعل شريف، كل محاولة صغيرة للتنفس بحرية أكبر وجعل حرب هؤلاء البرابرة أكثر

احتمالاً، كل هذا تتم ترجمته بلغة السفالة ولغة الصارخين. الارتياح يجعل شحوبه أكثر وضوحاً، جيورج يقلب بعصبية في ملف يضم بالتأكيد قائمة الاتهام، ينكمش على ذاته من جراء الصراخ، لا يفهم ما يقرأ، لا يفهم ما يسمع. يعاود النظر إليها. عبر المسافة الهائلة تلمح عبر سور أكتاف الجنود ومؤخرات الرءوس الحليقة عيني رجل مجروح جرحاً بالغاً. في الزاوية اليمنى، تحت راية الصليب المعقوف، ترى تمثالاً نصفياً للفوهرر، النظرة مصوبة إلى المتهمين. فرايزلر يزأر، النازيون المرتدون أرواب القضاة يؤمئون موافقين، النازيون الشبان في الزي العسكري يتسلّون بما يحدث، أي محاكمة عظيمة هذه؟!

تمعني فيهم، في وجوههم، نهايتهم ستأتي خلال عام أو عامين، وسينتهي كل هذا الجنون، وتتوقف هذه الكراهية، قريباً ستتوقف. على جيورج أن يصمد، أن يعبر هذا العام أو العامين، ويظل على قيد الحياة بأي طريقة كانت. لن يزأروا طويلاً، لن ينطقوا طويلاً بأحكامهم الملعونة، ستنتهي الحرب قريباً. عندئذ سيطلبون الرحمة، عندئذ سيأتون إلى جيورج ويتسلّون منه الرأفة والأحكام اللينة.

كان عليها أن تكره هذه العصاة، لكنها لم تستطع، فالكراهية ليست بمقدورها. جيورج أيضاً لا يستطيع أن يكره. إنها تريد أن يتوقف الناس عن الكره. حياة بدون كراهية. ممنوع عليك أن تحب البشر في هذا العصر، هكذا قال جيورج ذات مرة. حزينه هي، حزينه على الشبان أمامها. على القفا المحلوق ترى قبضة الموت. إلى أن تنتهي الحرب سيُطمر على الأقل نصف هؤلاء الجنود، الذين يضحكون عندما يستهزئ فرايزلر بالمتهمين، سيُطرحون على الجليد أو في الوحل وتنهش الذئاب أو الكلاب جثثهم. لن يعرفوا أبداً الحقيقة البسيطة: أن جيورج، وروبرت، وبادل، وهربرت كانوا يريدون إنقاذ حياتهم أيضاً.

تأمل أن يقوم محامي جيورج على الأقل بالحديث عن الحب والكره. غير أن هذا السيد السدورف ليس محامياً، إنه يتكلم عن جسامه الجرم، وكأن جيورج قاتل أو سارق أو منتهك للأعراض. إنه يطالب بعقوبة عادلة، ويحسب نفسه شجاعاً؛ لأنه يؤكد قليلاً على نطق كلمة «عادلة» أمام أعلى ساحات محاكم الظلم. المحامون الآخرون أيضاً: د. كونتس المدافع عن روبرت، ود. فايتمان عن هربرت، وفون رورشايث عن بادل، إنهم يطفحون اشمئزاً من موكليهم، لا ينطقون بكلمة لطيفة، لا يزأرون، لا يشتمون، لا يفعلون، ولكنهم أيضاً لا يدافعون. فيما يشبه الاتفاق راحوا جميعاً يطالبون بعقوبة عادلة.

لا يمكن انتظار شيء من هؤلاء السادة، ولن تأتي المعجزة من جانب سيادتهم، السادة رجال القانون المسموح لهم بالتفاف في هذه المحكمة، إنهم يزيدون الطين بلة فحسب. قال السدورف: إن عريضة الاتهام أرسلت إليه وإلى زملائه بالأمس فحسب.

- ولماذا لم تُرسل قبل الأمس؟ هكذا تساءلت.
 - هذا مُعتاد هنا، قال مزمرًا، ١٢ ساعة قبل بدء المحاكمة.
 - هي: زوجي لم يستلم الملف إلا الأمس؟
 - هو: مساء أمس، لكنه يعرف ماذا فعل.
 - هي: وكيف يمكنك أن تدافع عنه؟
- فغمغم قائلاً: القضية واضحة لا لبس فيها، لقد عُومِلوا معاملة خاصة عندما قرّرت محكمة الشعب العليا أن تنظر في القضية خلال جلستين صباحيتين، بدلاً من جلسة واحدة. تَوَدُّ لو احتفظت ذاكرتها بالأوجه، أوجه القضاة ذوي النظارات، أوجه المحامين السُّدَج، وأوجه رجال الادعاء المليئة بالندبات، لكن الأوجه تختلط معاً. لا تنجح، التشابه بينها كبير للغاية، وجوه رجال القانون، ووجوه القضاة، وجوه نازيين.
- لا فائدة، قالت لنفسها: انسي، لا تضيعي نفسك في أدغال الكراهية، عليك الآن ألا تفكر في شيء واحد: مَنْ يستطيع إنقاذه؟ مَنْ يستطيع أن يقوم بالمعجزة؟ على الأقل تأجيل الحكم، تأجيل التنفيذ.
- تفكر قائلة: لن يحميها من النازيين سوى نازيين أعلى رتبة. هيس، المدفع الأقوى، سافر إلى إنجلترا، لو لم يفعل لكان بإمكانه المساعدة. إذن، يتبقى مشاهير المرضى، وكلاء الوزارة، رجال الصناعة، دبلوماسيون، وربما شقيق هيس. الكلمة السحرية هي «ذو أهمية لسير الحرب». لا بُدَّ من تصوير أبحاثه على أنها مهمة للحرب.

لا تخافوا

اجتياز أيام الأعياد، الساعات العائلية المُضيئة، ترديد نغمات عيد الميلاد العتيقة، كان لا بُدَّ من أنصاف حلول كهذه، حتى في عام التمرُّد. ولكن، كان هناك تغيير هذا العام؛ إذ إن الأمريكيين قدَّموا لنا عبْر شاشات التلفزيون، ومع موعد العيد بالضبط، أول رحلة يقوم بها الإنسان حول القمر. فيما عدا ذلك: العائلة، والتقاليد، والحياة في المدينة الصغيرة تسير سَيْرَها الثابت الذي لا يغيره شيء. ليس هناك ما كنتُ أشعر حياله بالغربة مثل هذا الذي يدعُوه البعض وطنًا. بين عالم المنازل الخشبية التقليدية، تلك الحياة الراسخة المحاطة بعشرات الأنواع من التأمين، المُبطَّنة بالدين، والمربوطة في حزمة مُحافضة، كل شيء كان يهدف إلى ترويض روح المعارضة. لم أكن أمتلك شجاعة الإفلات من قبضة ذلك كله. لم أكن مقتنِعًا كل الاقتناع بالموضة السياسية السائدة التي تنادي بأن يتنكر المرء لأصله، ولم يكن يهمني أن أوصف في برلين بالجُبن: ما زال يسافر في عيد الميلاد إلى ماما! كان للأمر جوانبه المريحة أيضًا، عندما يستريح المرء بضعة أيام من التطرف البرليني، أيام يقضيها مع ترانيم عيد الميلاد، ولعبة «المونوبولي»، وأصدقاء المدرسة.

كانت كاترين لدى والديها في ماركتردفيتس حتى مطلع يناير، كي تصور الشتاء في عزِّه، وتلتقط ضوء الشتاء المُخادع على حد قولها. ولهذا قضيتُ أنا أيضًا رأس السنة عند عائلتي. بإقامتي الطويلة مَنَحْتُ أُمِّي بعض العزاء؛ فهي لم تكن تراني في المعتاد إلا لمدة ثلاثة أو أربعة أيام. غير أن ذلك لم يهدِّم الحاجز اللغوي بيننا، كنا نتحدَّث لغات مختلفة، هي بالإيجابية المسيحية، وأنا بمصطلحات النَّفْي. تَجَنَّبْتُ التحدُّث معها؛ كُنْتُ أخشى دومًا أن أزعجها أو أجرحها بكلمة، أو جملة، أو ملاحظة ساخرة تعتبرها هي مُتطَرِّفة أو غير مسيحية، كانت دموعها تنهمر من عينيها أسرع من عثور لسانها على الكلمات المناسبة. المصارحة والمكاشفة كانت واجبة، كان من حقها ذلك، فهي التي كانت تنهض بتكاليف

دراستي دون أن تجرؤ على طرح السؤال بصوت عالٍ: متى ستنتهي؟ إلى أن خلصتها من هذا العبء:

— سنة أخرى، الأمور تسير على ما يرام.

رُحْتُ أحدث عن إحراز تقدّم ونحن نشرب القهوة، ونأكل الكعك بجانب شجرة عيد الميلاد البلاستيكية البهية، وفي فروعها كانت أحرف ذهبية مُعلّقة في خيط غير مرئي: لا تخافوا.

منذ أن أذاعتِ النشرة التلفزيونية خبر الشوشرة على القُدّاس الإلهي — عندما اقتحم طلبة كنيسة القيصر فيلهلم التذكارية حاملين لافتاتٍ تقول: «أيها المرءون.» — منذ ذلك الحين كانت أُمّي تشعر حيال تطوُّري بخوف أكثر من المعتاد. رايات حمراء، مُظَاهَرات، شعارات ماو، كان كل ذلك غير محتمل، والآن الهجوم على القُدّاس الإلهي، أكبر خطيئة يمكن تصوُّرها. حاولتُ أن أهدئ من روعها: بالتأكيد لم يكن المسيحيون في برلين هم المعنيّون، بل الأمريكيان الذين أعلنوا وقف إطلاق النار في فيتنام لمدة ثلاثة أيام بمناسبة عيد ميلاد المسيح، وبعد ذلك يستأنفون إلقاء القنابل. هذا نفاق، أليس كذلك؟ كان عليها أن تسلم بهذا، لكنها لم تقنع. كانت ترى في كل مكان الأعوار السحيقة التي قد أهوي فيها، أو لعلّي قد هويتُ فيها فعلاً.

فيما يتعلق بالرايات الحمراء، وماو، والمساكن المشتركة، والكومونات — التي كان الناس في الأرياف يعتبرونها أوكارًا للحفلات الماجنة — استطعتُ أن أقلل من مخاوفها، فلم تكن لي أية صلة بها. كما أنني نجحتُ في إبعاد أسوأ الأفكار من ذهنها: أن يكون الابن قاتلاً. بالتأكيد لاحظتُ أنني لا أقول الحقيقة كلها، لذلك، وحتى لا أثير شبهات جديدة، وحتى لا أتركها نهبًا للظنون بأنّي كاذب، اعترفتُ لها ونحن نغسل فناجين القهوة الثمينة المصنوعة من خزف مايسن: هناك شيء آخر، عندي خطة، في الحقيقة ما زالت سرّية، أريد أن أكتب عن جيورج جروسكورت.

بالنسبة لها كانت تلك صدمة، مُزدوجة. كان عليّ أن أركّز جهدي وحماسي على الدراسة، لا أن أضيع وقتي في كتابة «كلام فاضي». ثم اسم جروسكورت، بالنسبة لها شيوعي، وهو شيء لم تكن قادرة على الحديث عنه؛ بالنسبة للنقطة الأولى نجحتُ في أن أقلل من مخاوفها، أما بالنسبة للثانية فلم أعرف كيف أساعدها.

وهكذا غذيتُ همومها برفد مُحدّد واضح، ولكن ذلك بدا لي — ونظرًا لطبيعتها الخوافة — أفضل من أن تملكها الشكوك الضبابية حول خلاص نفسي. حاولتُ أن أدخل

بعض الاسترخاء إلى جو الحديث، فسألناها عن ذكرياتها عن أناليزه جروسكورت؛ فالمرأتان — الشابتان آنذاك — عاشتا في نهاية الحرب سنتين أو ثلاثاً في بيت القساوسة في فيرداو. لم يكن بينهما استلطاف، أعرف ذلك. أيضاً في ذلك العصر في المطبخ، حيث سادت أجواء أكثر استرخاء من غرفة المعيشة، لم أستطع أن أتوصل إلى الأسباب. لم تمر أُمي بشيء خارق للمألوف، لم تمر بها نادرة أو أي شيء كاشف يمكن أن تحكيه. أحكام مسبقة تُعشّش في رأسها. لم تتحدث إلا عن السيدة بلومبه، والدة أناليزه جروسكورت الرائعة والصعبة. آنذاك، أيضاً في صيف ١٩٤٥م، هربت عائلة والدتي من مكلنبورج، وكانوا مُرغمين على العيش معاً في مكان ضيق، رغم ذلك لم تعطهم السيدة بلومبه غرفة خادمتها التي كانت تعيش في حجرة أكبر من ... إلى آخر هذا الكلام. الاتّهام الثاني كان أعمق: لم تكن عائلة جروسكورت مسيحية.

— هل تعلمين أن د. جروسكورت — والد أكسل ورولف — قد أعدمه النازيون؟
— نعم، وقد شعّرنا كلنا بالأسف لذلك. ولكن هناك عائلات كثيرة جداً فقدت مَنْ يعولها.

— ولكن، أليس هناك فرق بين أن يسقط الجندي صريعاً في الحرب من أجل هتلر وبين أن يُقتل أثناء نضاله ضد هتلر؟

— نعم، ولكن بالنسبة للعائلات، لمن ظل على قيد الحياة، ليس هناك فارق. كما أن الجنود، ووالدك أيضاً، لم يقاتلوا من أجل هتلر، بل من أجل ألمانيا.

— ولكن هل يتساوى مَنْ انصاع وأطاع مع مَنْ قاوم؟
— بالطبع هناك فرق.

— وهل تعلمين أن السيدة جروسكورت أخفت وساعدت معارضين عديدين لهتلر؟
— لا.

— وهل تعلمين أن جيورج جروسكورت لا يقل أهمية عن شتاوفنبرج ورجال العشرين من يوليو؟^١
— لا.

— وهل سمعتِ أن القاضي الذي حكم بالإعدام على جروسكورت ومائتين وثلاثين آخرين على الأقل قد حصل على البراءة مؤخراً؟

— نعم، سمعتُ ذلك، وهذا بالطبع ليس صائباً.
— أترين، قلتُ لها، ولهذه الأسباب كلها يتحتم عليّ أن أكتب عن جروسكورت.

تحقيق دنيء. وحشية مِنِّي أن أثير تأنيب الضمير لدى أُمِّي التي لا ناقة لها في السياسة ولا جمل. لعبة سهلة، أسهل من اللّازم. أفعمُّها بلا رحمة، وهكذا مَنحتُ لنفسي الحرية واسترختُ من الإزعاج الذي قد تُسبِّبُه لي.

وفي المساء أيضًا، عندما التقيتُ بأصدقاء المدرسة لنحتسي كأس بيرة، ظل الوسواس القهري مُلحًا عليّ. لقد نسيْتُ ما كنا نقوله آنذاك، الكلام الحكيم الكبير الذي يَتَشَدَّقُ به الشُّبان في منتصف العقد الثالث، كلاًمنا عن النساء والسياسة والرحلة إلى القمر والمُعلِّمين السابقين. ما أَتذكَّرُه هو كيف انتزعتُ أصدقائي الذين يدرسون القانون من خمولهم المريح بكلامي عن الحُكم الذي صدر ببراءة زميلهم «ر». لوتس وحده اعتبر الحكم فضيحة، إريش أنقذ نفسه بالعبارات الرسمية، أما جونتِر فعَلَّقَ آماله على محكمة النقض. الكلمة الأخيرة لم تصدرُ بعد. كانوا جميعًا يُفكِّرون على نحو ديمقراطي اشتراكي، غير أنهم وجهوا لي اللوم؛ لأنني وصفتُ زميلهم المستشار القضائي السابق بلا تزويق أو تجميل بأنه «قاتل». أجبْتُ قائلًا على وجه التقريب: الحزب النازي لم يكن إلا عصابة من المُجرمين أَمَسَكْتُ بزمام السلطة، أليس كذلك؟ هتلر، السفاح الأعظم، هو الذي عَيَّنَ القضاة في محكمة الشعب العليا، ومنهم «ر»، العضو في الحزب النازي. وعندما يحكم القاضي بإعدام أناس بالجملة، كل جريمتهم أنهم في عام ١٩٤٣ م لم يعودوا يؤمنون بالنصر النهائي الذي وَعَدَ به هتلر، فماذا يكون هذا القاضي سوى قاتل؟

قال إريش معترضًا: ولكن ليس من الصحيح أن ترى الأمور هكذا وأنتَ غير متخصص؛ هناك تعريف قانوني واضح.

أسرع جونتِر كي يستشهد بالمادة رقم ٢١١ من قانون العقوبات الألماني: القاتل هو مَنْ يَقْتُل إنسانًا آخَرَ غدرًا أو بوحشية أو باستخدام وسائل خطيرة، وذلك لإشباع شهوة القتل لديه، أو لإشباع غريزته الجنسية، أو طمعًا، أو لإرضاء أي دوافع دنيئة أخرى، أو حتى يتمكن من تنفيذ جريمة أخرى، أو لتمويهها.

فقلت لهم: ها قد سمعتم: دوافع دنيئة! عندما يقوم رجل قانون بملاحقة اليهود وإعدامهم مثلما فَعَلَ صاحبنا، مالك محل الأدوات المنزلية، أليست هذه دوافع دنيئة؟

تساءل إريش: لماذا أنتم مُتَطَرِّفُونَ هكذا، يا أهل برلين؟

– لستُ متطرفًا. هناك حقائق. وهذه الحقائق تزن أكثر من آرائنا التي لا يُعْتَدُّ بها. ما قُلْتُهُ مُلَمَّحًا إلى صاحب محل الأدوات المنزلية أَدخَلَ الفزع إلى قلوب أصدقائي. كان الرجل يبيع في محله، في أفضل موقع، في قلب المدينة: العطور، وفُرَش الأسنان، وزينة

شجرة عيد الميلاد، والواقى الذكري، إلى آخره. رجل لطيف، يحاسب الزبائن، رئيس النادي الرياضي، ارتقى السُّلم الوظيفي على النحو المألوف ... إلى أن بدأت محاكمة أيشمان في القدس. عندئذٍ شاع الخبر: كان صاحب المحل هرمان كروماي هو يد السفاح اليمنى في بودابست، قدّم العون في قتل مئات الآلاف، كما أنه قام بابتزاز ٢٥٠٠٠٠ دولار من اليهود الذين أرسلهم لاحقاً إلى أفران الغاز. في تلك الفترة صدر الحكم بسجنه خمسة أعوام. سيطر الخجل على الأصدقاء عندما تحدثت عن الرجل، رغم أنهم كانوا يعتبرونه مذنباً، وينظرون إلى العقوبة الجنائية على أنها مُخفّفة، سيطر الخجل على الأصدقاء، وكأنهم كانوا يشعرون بالدّنس؛ لأننا كنا نتدرب مع ابنته في حصة الرقص على الفوكس تروت والرومبا في الفترة التي كان رجل الـ «إس إس» مختلفياً خلالها.

واصلت حديثي قائلاً: حتى إذا كانت الدوافع الدنيئة برنامج حزب، أو برنامج حكومة، وإذا كانت منصوصاً عليها في القانون، فإنها تبقى دوافع دنيئة. أم أنها دوافع سامية تلك التي حدّت بهذا الـ «ر» كي يأمر باستئصال شأفة كل الذين لا ينتمون للنازية، كل الذين كانوا يريدون أن يحيوا حياة شريفة إلى حد ما؟

حطّ الصمت على رءوس الأصدقاء. كنا على اتفاق بشأن جُرم كروماي. ولذلك، لا بدّ من أنهم شعروا بالظلم؛ لأنني ساويتُ بين القاتل الموظّف من بودابست — الذي لم يكن رجل قانون — وبين القاتل الموظّف من برلين الذي يحمل اللقب الفخري «مستشار قضائي».

كان إريش أول من استجمع قواه: «استئصال» ليس تعبيراً قانونياً.

فقلت: ولكنه يرد في الأحكام القضائية.

— من أين تعرف؟

— لقد قرأت أحدها. هل أمسكت أنت بأحد أحكام محكمة الشعب العليا؟ أنت؟ أنت؟ نصر رخيص مرة أخرى. كنت أبحث عن هذه الانتصارات، كنت بحاجة إليها؛ لأنني كنت وحيداً تماماً مع نيّتي بأن أكون قاتلاً وحيداً. كل حديث من تلك الأحاديث — وهذا هو السبب الذي يدفعني إلى أن أنمّق تقاريري بهذه الحكايات والذرائع القديمة — كان يدفعني دفعاً لإتمام فعلتي.

عندما أردت ذات مساء متأخر، بعد أن احتسيت عدة كئوس من البيرة، أن أتفرج على التلفزيون في غرفة المعيشة، رأيت نفسي — بمجرد أن أضأت الغرفة — مُحاصراً على نحو يدعو لليأس.

عشرة رءوس، عشرون رأساً صارمة كانت تُوجّه إليّ نظرات مُعاقبة. على كل الجدران صور الأسلاف، صور فوتوغرافية، صور للوحات، وجوه جميلة وصارمة، لينة وقاسية، قبيحة وباسمة. كل الصور مُؤطرة وعلى خط واحد، لكنها كانت تتأرجح عندما أثبت عليها بصري، النبلاء والبورجوازيون منفصلون في مجموعتين، ومع ذلك يتحدثون بصوت واحد قائلين: لا تفعل ذلك، لا تفعل ذلك! راحوا يتحدثون عن الاستقامة والقيم والتقاليد والعقل والوصايا العشر، من كل جانب سمعت في أذني الكلمات التي يسمعها طفل تربي تربية جيدة. كانوا أكبر سنّاً من جدتي وجدي، بعضهم من أعماق القرن التاسع عشر، لم أكن أعرف عنهم إلا القليل، وتخيلت أن باستطاعتي أن أفعل كل شيء على نحو مختلف، على نحو أفضل وأكثر صواباً مما فعله والداي وأجدادي. كل التحذيرات تدخل من أذني اليسرى وتخرج من اليمنى. ما زلت أتذكر شعوري اللذيذ بالتحرُّر عندما أجبتهم بلسان متلعثم في حالة متوسطة من النشوة: لا تخافوا!

عمل رمزي

– نحن بحاجة إلى عمل رمزي!
من المحتمل أن يكون روبرت قد خاطب جيورج هكذا.
– رمزي مَنْ؟
سيرد عليه الطبيب مُحَقِّضًا من درجة صوت المذيع. إنهم يحتاجون إلى سماع الأخبار الواردة من لندن، لا إلى الموسيقى.

يضحك روبرت على نكات جيورج، ويضحك جيورج على ميل روبرت إلى الكلام الحماسي المؤثّر. كلُّ منهما يثق في الآخر، ويُكَمِّل الآخر، فريق عمل مُنسَجِم. جيورج في نهاية عقده الثالث، أكثر رصانة من صديقه، روبرت في مطلع العقد الثالث، ويشتعل حماسًا. يعملان منذ سنوات معًا، وخلالها لم يُوجَّه أحدهما أي اتهام إلى الآخر. لا يخرجان أبدًا عن رزانتهم، صُلبان لا يعرفان اللين، أستاذان في الإخفاء والتمويه. يساعدان اليهود على الاختباء، ويحصلان على أوراق هوية مُزوَّرة، ويُقدِّمان يد العون للملاحقين. هذا هو أقلُّ القليل، بل إنه لا يكفي. يقيم الطبيب اتصالات مع جماعات المقاومة التي كوَّنها العمال الأجانب، أما الكيميائي فيحاول الاتصال بالشيوعيين. اللقاء الرباعي ينعقد كل عدة أيام في «رانكه-شتراسه»، رقم ١٩، مع هربرت، وبادل، في عيادة الأخير، أو في شقة هربرت الكائنة في آخر طابق. أو في «بسمارك-شتراسه» لدى روبرت. أو — مثل هذا اللقاء — مع جيورج وحده في «أهورن-أليه». لا يخبو داخلهم هذا الشعور أبدًا: علينا أن نفعل المزيد.

بعد الضحكات يُخَيِّم الصمت. يدرك جيورج أي عمل رمزي يودُّ روبرت القيام به. إنه مُتَعَب، يشعر بالتمزُّق، يشعر تجاهه بالحب، صديقه الأصغر سنًا، العقل السياسي، الرجل المتحمَّس لقناعاته، المشبوب العواطف، المناضل المتواضع. نقطة ضعف روبرت أنه يفكر في الكليات. جيورج، الطبيب، يرى كل جرح على حده، الألم الذي يشعر به كل إنسان. إنه

يريد أن يقدم يد العون إلى أكبر عدد ممكن من الناس، أما روبرت — ونظرًا إلى الإمكانيات المحدودة — فإنه يريد أن يساعد المناضلين السياسيين في المقام الأول. ليس لهذا الصراع أن يُؤدِّي إلى الفرقة بين الصديقين، ولا إلى انقسام بين أعضاء المجموعة.

من الصعب أن نتخيل رجلين على هذه الدرجة من الرزانة يقعان في إغواء ماكينة صغيرة، ماكينة قد تنفجر في وجه الديكتاتورية، ماكينة تقول الحقيقة وتنشرها، ماكينة لصنع الأمل، لشد أزر مجموعة المقاومة وزيادة عدد أفرادها. هدية من السماء، معجزة، ليس على المرء إلا أن يحضرها من المخزن الصغير في مختبر هافمان في معهد الأدوية. هناك تَلَفَت الأنظار مثل آلة تنبيه: حُذوني، استعملوني، لن يساعدكم أحد مثلي!

يعرف جيورج السر، قال عن ذلك: رائع! ولكن الوقت لم يَجِنْ بعد. ربما يلعن في سرِّه الماكينة؛ لأنها قد تُلحِق الضرر بالمجموعة أكثر من إلحاقها الضرر بالديكتاتورية، هذا ما يخشاه روبرت أيضًا، غير أنه — ورغم كل الاحتياط الواجب — يرى بالأحرى الفوائد.

بعد مرور نصف عام على ستالينجراد كان كل شيء يدفعهم إلى القيام بعمل ما. الأخبار الواردة من لندن تَتَحَسَّنْ أسبوعيًا بعد أسبوع — في مايو ويونيو ويوليو ١٩٤٣م — والماكينة تصدح قائلة: أنتم الآن بحاجة إلي! فيلق الجيش في أفريقيا يستسلم، القوات السوفييتية بدأت في شَنْ الهجوم الشامل، طائرات الأمريكان والإنجليز تهبط في صقلية، موسوليني انتهى، والماكينة تصلصل: إياكم والجُبْن الآن! صوت مذبذب البي بي سي يشف عن نبرات متفائلة، وكأنَّ الحلفاء على وشك إنزال قُوَّاتهم، والماكينة تهمس في الأذان: احملوني معكم، تدربُوا علي، أشعلوا في نار الحماس!

عام أو عام ونصف على أكثر تقدير، ثم تنتهي الحرب، ومعها النازيون. الأصدقاء متفقون حول هذه النقطة، لكن السؤال هو: التحمُّل والصبر واجتياز هذه الفترة، الدفاع عن النفس، والعمل استعدادًا لمرحلة ما بعد الحرب، ثم الهجوم. الماكينة تَعِدُّهم: بمعونتي ستتحملون وتستعدون للمرحلة اللاحقة على نحو أفضل. لا يستطيع الألمان وحدهم — وهذا شيء يعلمه الأصدقاء — بناء ديمقراطية، لا بدُّ من أن يكون الهدف هو أوروبا ديمقراطية، ولهذا يَتَحَمَّ الاتصال بالعمال الأجانب. وهنا بإمكان الماكينة أن تُقدِّم العون. يتساءل جيورج في النهاية: أنت تريد إدخال الماكينة إلى المعركة، أليس كذلك؟

يومي روبرت برأسه. تستطيع الماكينة — إذا استخدمها المرء على النحو الصحيح — أن تكون مُلهمًا للمقاومة وسندًا لها، غير أنها تزيد أيضًا من مَخاطر الوقوع في شبكة الجستابو. بمساعدتها يستطيع المرء بكل سهولة نَسْخُ المنشورات المكتوبة على ورق الاستنسل.

كيف يحصل المرء في ظل نظام ديكتاتوري على ماكينة استنساخ؟ في منتصف الثلاثينيات كان بمقدور عالم مثل الدكتور هافمان أن يستعير ماكينة مثل هذه عبر شركة تمتلك براءة تصنيعها أو تقوم ببيعها. كانت تكفي الحُجَّة التالية: للاستخدام العلمي داخل المعهد.

سيدّ عن جيورج، هذا ما يحدّسه روبرت. في الفترة الأخيرة أذعن هو لرغبة جيورج، والآن لا بدّ من حدوث العكس. أثناء البحث عن اسم للمجموعة تقدّم روبرت بالاقترح التالي: الاتحاد الديمقراطي الاشتراكي، لكن جيورج اعترض على الفور: كأنك تقول «الاتحاد السوفييتي»، إننا نحتاج إلى مفاهيم لم تفسدها البروباجندا، وسرعان ما طرح اسم «الاتحاد الأوروبي» أأ، وتم قبوله بالإجماع، وروبرت المهذار عقّب قائلاً: ونحن الأربعة أعضاء اللجنة المركزية للاتحاد الأوروبي.

ليس الأصغر بحاجة إلى إلقاء الخطاب القصير على الأكبر الرزين، ذلك الخطاب الذي حاول به أن يقنع بعد عدة أيام روبرت وباول المتردّد: الآن، ومع التقارب الذي تشهده الجبهات، لا بدّ من أن نقول للناس: إن المقاومة تحيا وتنمو، لا بدّ من إخبارهم بما سيأتي بعد النازية وبعد الهزيمة، لا بدّ من القيام بعمل رمزي لصالح مناهضي الفاشية المحبطين المعزولين، يجب أن تنمو الجماعة، يجب تجنيد أعضاء جدّد، علينا أن نشرح لهم أفكارنا وأهدافنا وما اتفقنا عليه:

(١) إسقاط الفاشية في أوروبا كلها.

(٢) إعداد مناهضي الفاشية لنوّل السُلطة.

(٣) إعادة العمل بالحقوق الأساسية الديمقراطية.

(٤) الاشتراكية بدون ديكتاتورية ستالينية.

(٥) إنشاء الولايات المتحدة الأوروبية.

كلا الرجلين يشعر بالتعب، بالإرهاك من العمل المهني. لا يكاد جيورج يلتقط أنفاسه من كثرة العمل في المستشفى، أضناهما الاحتياط المستمر والقناع الذي يرتديانه أمام النازيين والمتربّصين بهما في كل مكان؛ عليهما أن يُثيرا الانطباع بأنهما لا يُسببان الأذى لأحد، سباق محموم يخوضانه للبحث عن خطط سرّية ومخابئ ومعاونين ومُتبرّعين؛ يشعران بالإرهاق من شبكة الاتصالات التي تزداد اتساعاً، الطرق الطويلة المتشعبة في المدينة. كلما ازداد عدد حلقات الاتصال بين أعضاء الـ «أأ»، توجّب على المرء أن يزداد

حيطة وارتياحًا. مُنْهَكَو القُوَى بسبب القصف الليلي وساعات الاختباء في القُبُ، كما أن جيورج رُزق بطفل ثانٍ يُهدِدهانه على وَقْع صفارات الإنذار وانفجارات القنابل. الدموع المكبوتة عندما يفقدان أثر أحد الأصحاب أو الأصدقاء في البلقان أو في الصحراء أو في روسيا. النظرة الخرساء التي تُلْقَى كل يوم على صفحة الوفيات ذات الصלבان العسكرية، أو على أكوام الأنقاض المتزايدة على حافة الطريق.

بلغ بهما الإنهاك غايته، لا يكادان يستطيعان مقاومة إغواء الماكينة بعد الآن، يشعران بالأمن، حتى الآن سار كل شيء على ما يرام.

يقول جيورج: أراهن على أن في جيبك منشورًا. ثم يندفعون لقراءة المُسوَّدة التي وضعها روبرت. يختلفون، يصححون، يشعرون بالسعادة لرؤية الكلمات الممنوعة مكتوبة على الورق، تلك الكلمات التي فُكِّروا فيها دومًا وهمسوا بها كثيرًا.

في تلك الحالة من الشجاعة المتهوِّرة، هل آمنوا بسُلطة الكلمة؟ لن نعرف أبدًا ما إذا كان الأصدقاء المجتمعون في شقة جروسكورت خلال الحديث عن أول منشور قد احتسوا الخمر من زجاجة كونياك فرنسية، كما ادعى جيورج في التحقيق مع الجستابو. لا أحد يعلم إلى أي مدى كان المرشحون للإعدام يجيدون الإجابات التكتيكية، أم أن جيورج كان قد أعدَّ مُسوَّدة، كما قال روبرت في التحقيق؟ الأكيد أنهما ظهرا أمام باول وهربرت وفي يديهما المانيفست المشترك الذي أُطلق عليه فيما بعد: رسالة اللجنة المركزية في الاتحاد الأوروبي إلى كل مُناهضي الفاشية. ومن المؤكد أن الرغبة في ضم أعضاء ومساعدٍ جدد في يوليو ١٩٤٣م كانت تُمثِّل لهم دافعًا كبيرًا جعلهم يُهوِّنون من شأن المُخاطرة التي قاموا بها، عندما وزَّعوا منشورات قد تُخلف آثارًا تُؤدِّي إليهم.

لم يَعد من الممكن أن نحسم الأمر، ونُحدِّد ما إذا كانت المجموعة الرباعية قد أعدَّت النص للنسخ، أم أنها كانت ترغب في إدخال تعديلات وتحسينات، غير أن الفرصة لم تُتَحَّ لهم، كما ذكر جيورج في التحقيق؛ أم أن الأغلبية كانت موافقة، كما يدعي روبرت. الأكيد أن جيورج نقل ماكينة الاستنساخ بالسيارة من المعهد إلى شقة هربرت الكائنة في الطابق الأخير في «رانكه-شتراسه». الأكيد أيضًا أن روبرت اتسم بالشجاعة أو التَّهوُّر—مَن يستطيع الحكم على ذلك اليوم؟— ووثق في إحدى عاملات الاختزال، وأعطاهما المُسوَّدة كي تكتبها على ورق الاستنسل. كان زوج تلك المرأة شيوعيًّا معتقلًا منذ عام ١٩٣٤م، ثم نُقل عام ١٩٣٩م إلى أحد معسكرات التصفية، باستخدام هذه النسخة من ورق الاستنسل قام روبرت بصنع ٤٠ نسخة.

لن يمكننا إيضاح السبب الذي حدّا بروبرت في غضون أيام قليلة إلى كتابة ثلاثة منشورات أخرى باسم «الاتحاد الأوروبي»، شارحًا فيها أفكاره عن الاشتراكية، ومتحدثًا عن «الاستعداد لتوليّ السُلطة»، وواضعًا الخطوط العريضة لمستقبل أوروبا. أفاد جيورج — خلال التحقيق أيضًا — أنه فوجئ؛ لأنهم لم يتحدّثوا في حضوره عن كتابة منشورات كهذه. قد يكون كلامه جديرًا بالتصديق؛ لأنه يعترف في الوقت ذاته بأنّ مُحتوى الأوراق الثلاث مُستمدّ جزئيًا من المُسوّدة التي وضعها مع روبرت، كما أن ثمة أجزاء من تأليف روبرت. ولن يمكننا أبدًا أن نقطع في أمر ما إذا كان جيورج — كما تدّعي شقيقته لويزه دورينج — قد ألحّ على روبرت كي يقوم بحرق المنشورات فورًا، وهو ما وعد به روبرت، لكنه لم يفعل.

المؤكّد هو أن المنشورات لم تُوزّع أبدًا. لقد عرض روبرت المنشور الأول على ثلاثة رجال موثوق بهم، كما أن جيورج أعطاه لصديق، على الأقل، حتى يطّلع عليه. الأكيد أيضًا أن أناليزه جروسكورت، وأنيته هافمان، كلٌّ على حده، سمعتا شيئًا عن المنشورات، عندئذٍ قالت أناليزه لجيورج: هذا عمل مثالي، هذا عمل أحمق، دعكم من ذلك! على الفور تولّد لديّ إحساس واضح، هكذا قالت بعد مرور خمسة وعشرين عامًا: المنشورات هي الحكم بالإعدام، ولكن من كان يجرؤ على النطق بذلك؟ بعد خمسة أسابيع كان كل شيء قد انتهى.

داخل الاتحاد الأوروبي أيضًا يصح القول إن المقاومة كانت أمرًا مقصودًا على الرجال؛ النساء بطبعهن خائفات، يمكن الاحتياج إليهن، من الممكن أن يُقدّمن العون، ولكن الخوف، للأسف، يسلّهن.

جريمة السلام

أثناء عُرْضي لدوافع جريمة القتل المتقادمة ينبغي عليّ أن أُمرَّ مرورًا سريعًا على فترات أخرى، وليس فقط على سنوات النازية القذرة. بعيدة تمامًا تبدو تلك الأرض الوعرة، المنحدرة والمُعْتَمَة التي جرّت عليها صراعات فترة ما بعد الحرب التي طواها النسيان، فترة العصر الحجري للديمقراطية. في إحدى أكثر زوايا تلك السنوات ظلامًا تقف السيدة التي أهدتني «نيلس هولجرسون» وهي تنتظر أن أحكي حكايتها.

د. أناليزه جروسكورت، ٤٠ عامًا، أرملة، قطع النازيون رأس زوجها، لديها ابنان، تعمل منذ عام ١٩٤٦م مديرةً لمكتب الصحة في برلين المدمّرة الجائعة التي أفلسها الحصار، كما أنها تعمل في عيادة صغيرة يتردّد عليها مَرْضَى التأمين الصحي. أيُّ الأفكار تدور في رأسها، لنقل في عام ١٩٥٠ أو ١٩٥١م، في كل صباح وكل ظهيرة؟ الوصول بالأطفال إلى بر الأمان؟ أن تكون طبيبة جيدة؟ ألا تندب حظها العاثر؟ إذن، عليها عدم الإكثار من البكاء؛ لأن الحلفاء أتوا بعد فوات الأوان، بعد عام بالضبط على إعدام جيورج، ألا تقع فريسة للغضب الصامت الذي يدفعها إلى سبِّ ولعن تلك المنشورات الحمقاء، ألا تتورط كل مرة في إطلاق التكهّنات مع جريته رنتش، وماريا ريشتر عمّن كشف سر المجموعة. ألا تفكر كثيرًا في الأب الذي أطلق الرصاص على نفسه في فبراير ١٩٤٥م، فعل ذلك بدافع من الحنق على حُكم إعدام زوج ابنته، والخجل؛ لأنه تعاون مع النازيين في البداية. لا، عليها النظر إلى الأمام، وإذا صعب عليها الأمر، فلتلتمس المعونة لدى جيورج: أيتها الطيبة ذات القلب النبيل المحب، ستقومين بالأمر على خير وجه، لا تَيْئِسِي أبدًا، فكري فيما كنت سأفعل.

باستطاعتها الاستغناء عن كل ما له علاقة بالسياسة. لديها مبدأ واحد فقط، أكثر المبادئ بديهيةً: لا للحرب، ولا للنازيين.

ولكن الأمر يصبح أقل بديهيةً شهرًا بعد شهر؛ لأن السيد ستالين في موسكو، والسيد ترومان في واشنطن لديهما أفكار تختلف عن أفكارها. خصوم هتلر أصبحوا اليوم أعداء، وهم يضعون الآن قواعد جديدة، ويملون ما هو خير. الحدود بين الخير والشر يتم ترسيمها من جديد، وهي تخترق الآن قلب برلين. القادة على كلا الجانبين يعتبرون أنفسهم وحدهم الخيرين، أما الآخرون فهم الأشرار، ومن لا يقبل بهذه القسمة البسيطة للعالم يتحوّل سريعًا إلى عدو، سواء في الغرب أو في الشرق. هذه القسمة لا تعجبها، فالطبيبة ليس لديها أعداء، إنها ترفض التقسيم، ترفض أن يحدث لها أو لعائلتها، أو لمدينتها أو بلدها. إنها تعيش في جانب الغرب الخير، وترى بين القلائل الشرفاء كثيرًا من النازيين يتحركون بحريّة. تشعر ببعض الإعجاب تجاه أولئك الذين يعيشون على الجانب الشرقي — الذين يتوجّب عليها أن تعتبرهم أعداءها — لأنهم على الأقل يلاحقون المجرمين النازيين، غير أن اشتراكيّتهم تنقسم بالقسوة البالغة.

تسكن في «ليندن-أليه» في حي «فست-إيند» الجميل، لقد اجتازوا فترة الحصار، والحصول على المواد التموينية يزداد يسرًا. انهارت مملكة الجلّادين واندثرت. إنها تثق في صوت جيورج: انسي الحروب الصغيرة الحمقاء، الأيديولوجيات الزاعقة، ابقى ثابتة على مبادئنا، لا للحرب، ولا للنازيين.

يشاء حظ أناليزه العاثر أن يدّعي الذين يمسكون بدفة الحكم في برلين الشرقية هم أيضًا أنهم مناصرون للسلام ومناهضون للحرب، وفلول النازيين. يعبّر أولبرشت ورفاقه أنفسهم محبين للسلام ومُعادين للفاشية، هذه هي البطاقة الراحبة بالنسبة لهم في لعبة العداء الألمانية، ولهذا فهم يؤيّدون المشروع الغربي الرامي إلى إجراء استفتاء شعبي في كافة المناطق الألمانية: هل تريدون السلام؟ هل تؤيدون الوحدة الألمانية؟ هل تُعارضون إعادة

التسلّح والنازيين القدامى؟ لدى أناليزه كل الأسباب التي تحملها على أن تهتف: نعم! كان كل شيء سيكون على ما يُرام لو أن الحكام في الغرب يؤيّدون هم أيضًا السلام والوحدة الألمانية ويُناهضون فلول النازيين، أو على الأقل يدّعون ذلك بلغة مشابهة.

لكنهم — وهنا يصادفها الحظ السيئ مرة أخرى — ليسوا كذلك، بل ويتحدثون بلغة فظّة. إنهم يعارضون هذا الاستفتاء بوجه خاص؛ لأن برلين الشرقية تقف وراءه، هكذا يدّعون؛ أي إنه بروباجندا شيوعية مُعادية للديمقراطية، هذا ما يذيعونه في الراديو، وما يطبعونه في الصحف، وكأنهم يُحذّرون الناس من الطاعون، رغم ذلك، هناك مئات الآلاف الذين يؤيدون الاستفتاء.

في الثامن والعشرين من أبريل عام ١٩٥١م كانت السيدة جروسكورت تجلس في حلقة تتكون من عشرين رجلاً وامرأة، قامت بتأسيس لجنة برلمانية لدعم إجراء الاستفتاء. ينتخبون المُعد المسرحي في مسرح شيلر، السيد شميت، رئيساً للجنة. في البداية تعترض السيدة جروسكورت على انتخابها نائبة للرئيس، غير أنها ترضخ في النهاية. يريد شميت عقد مؤتمر صحفي يوم الثاني من مايو؛ ولأن تأجير قاعة عامة أمرٌ مكلف للغاية، ولأن السيدات والسادة الذين يحبون السلام يعيشون في شقق ليست بالرحبة، لا يتبقى أمامهم إلا غرفة انتظار المُرَضَى في عيادتها.

في تلك الأثناء كانوا قد أصدروا قراراً في بون يمنع الاستفتاء الشعبي، لأنه — هكذا يبررون — يمثل تعدياً صارخاً على النظام الديمقراطي الليبرالي للبلاد. في الثلاثين من أبريل عام ١٩٥١م يُصدّق مجلس وزراء برلين على قرار المنع، ولا تجد الديمقراطية الوليدة حرجاً في أن تمنع أيضاً كل المنظمات والجماعات التي تؤيد الاستفتاء الشعبي وتُسانده. لم تستطع أن تفهم ذلك: على الجميع أن ينصر السلم! لماذا تلاحق الأحزاب هنا في الغرب الأشخاص الذين يُعارضون الحرب؟ مستحيل! وما السيئ في الوحدة الألمانية؟ لماذا يعارضها الغرب؟ ولماذا لا يفعلون شيئاً ضد فلول النازيين المُلَطَّخة أياديهم بدماء جيورج، وباول، وهربرت، ودماء ستين مليون إنسان؟ ولماذا يعتبرون الموافقة على إعادة التسلح أو معارضتها تعدياً — وصارخاً أيضاً — على الجمهورية الاتحادية؟ إذا كان هناك وزير في بون اسمه هاينمان قد استقال لأنه لا يوافق على سياسة المستشار أدناور بخصوص إعادة تسليح البلاد، فلماذا ليس من حق البسطاء من الناس أن يُعارضوا تلك السياسة؟ ألم يُقل الرئيس هيس نفسه: لسنا بحاجة إلى جيش ألماني جديد؟ كيف يمنعون استفتاء شعبياً ببساطة هكذا في ظل نظام ديمقراطي؟ ما قيمة الدستور إذن؟ ولماذا يكون شيوعياً مَنْ يوجّه أسئلة كالتي أوجهها؟

لا أحد يجيب على أسئلتها، رغم ذلك فإنها تشعر بأن كل هذا مألوف بالنسبة لها. لقد أخفق الجستابو في جعلها تحيد عن طريقها، ولن تحيد الآن عن طريقها أيضاً. لم ينجح النازيون في إدخال الخوف إلى قلبها، وهي لن تسمح لأحد بأن يغلق فمها في نظام ديمقراطي، ولا سيّما داخل عيادتها.

والآن يصادفها الحظ العاثر للمرة الثالثة، هذه المرة مع الصحافة. نحن الآن في الأول من مايو، في ذلك اليوم تنشر الصحف البرلينية على الصفحة الأولى خبر المنع الذي أصدره مجلس وزراء برلين. وكالة الأنباء الألمانية تتحدث عن الاستفتاء الشعبي المزعوم، لكن صحيفة «تاجيس-شبيجل» تُحوّر الخبر وتكتب بحماسة: الاستفتاء الشيوعي.

هذا التصحيح الصغير من جانب المحررين — هكذا ستفهم بعد سنوات عديدة — سيُغيّر مجرى حياتها كلها.

على الصفحة الثانية نشرت صحيفة «تاجيس-شبيجل» أسماء الذين وقّعوا على النداء من سكان برلين، في وقت لم يكن فيه الاستفتاء ممنوعاً. وبذلك أصبح الرجال والنساء البالغ عددهم ٢٤ هدفاً للهجوم من كل جانب: أطباء، وفنانون، ورجال صناعة، وعمال، وحرفيون، ولأن المؤتمر الصحفي كان سيُعقد لدى السيدة جروسكورت، فإنها الوحيدة التي ذكرت بالاسم والعنوان ورقم البيت، وفوق المقالة العنوان-الوصمة: فرع الشيوعيين في برلين الغربية. إنهم يقصدون عيادتها، شقتها، يقصدونها هي.

تظل صامدة، لا تلغي المؤتمر الصحفي يوم الثاني من مايو. نصف دسته من رجال الشرطة يقفون أمام الباب. يحاول مراسل وكالة «الأسوشيتد برس»، الأمريكي الجنسية، التوسط قائلاً: لن يُعقد هنا أي اجتماع، إنه حديث مع الصحفيين، فقط، وهو لا يُعد خرقاً لأي قرار مَنع. يتبنّى الصحفيون الغربيون الآخرون الرأي ذاته، يسألون السيد شमित الذي يجيب على أسئلتهم دون تدخل من الشرطة. تصغي أناليزه، أثناء ذلك تعالج أحد مرضاها، وبعد ساعة يعود كل شيء إلى سابق عهده. سارت كل الأمور على ما يرام، إنها بخير إذن، حرية التعبير عن الرأي.

في الرابع من مايو تُستدعى إلى إدارة حي شارلوتنبورج. بحدسها تعتقد أن الأمر يتعلق بالاستفتاء الشعبي، ولذلك تدس في شنطتها نسخة من دستور برلين. يحقق معها اثنان دون أن يخبراها بأن دعوى تأديبية قد رُفعت ضدها. لا يُعلمانها أن من حقها أن تطلب أحد ممثلي نقابة الأطباء. هل هي المرأة المذكورة في «تاجيس-شبيجل»؟ لماذا تشارك في لجنة الاستفتاء الشعبي؟ لماذا سمحت بعقد المؤتمر الصحفي رغم قرار المنع؟ في نهاية التحقيق تطلب نسخة من المحضر، لكن طلبها يُقابل بالرفض. تسأل عن الهدف من التحقيق، عندئذ يرفع أحد الرجلين اللائحة التأديبية، ويشير بإصبعه إلى المادة رقم ١. لا يستحق أن يحصل على وظيفة في جهة رسمية من يرأس فرعاً للشيوعيين ... إلخ.

في السابع من مايو يتم إعداد الرسالة الموجهة من مجلس إدارة الحي إلى الطيبة، رئيسة الوحدة الصحية بالحي. العقوبة التأديبية: الإقالة الفورية بتاريخ ٩ مايو. كان من المفروض أن يستمع ممثلو نقابة الأطباء إلى أقوالها، ومن المفروض أن يوافق ممثلو نقابة الأطباء أولاً على إقالتها، ولكن، لا القانون ولا القضاء في صفها. لا أحد في إدارة الحي يشعر بالانزعاج؛ لأنهم لم يحصلوا أولاً على موافقة نقابة الأطباء قبل أن تتسلم هي الرسالة: الإقالة الفورية بتاريخ ٩ مايو. في الثامن من مايو تمر سبع سنوات على إعدام جيورج.

بعد أسبوع تحتفل صحيفة «تاجيس-شبيجل» بانتصارها: **إقالة عميلة البروباجندا الشيوعية**، منذ ذلك الحين والتهمة محفورة على جبينها، على الدفتر الذي تكتب عليه العلاج، على لافتة العيادة، على كراريس ولديها، الفضيحة الجديدة: **عميلة البروباجندا الشيوعية**. ينتشر الخبر لدى الجيران، لدى التجار، في المغسلة، عند الحلاق، بين الناس المجتهدين في عملهم الذين كانوا قبل سبع سنوات يرفعون صوتهم بالتحية الهتلرية في سهولة ويسر: **عميلة البروباجندا الشيوعية**. ثم تجيء الرسائل والمكالمات التليفونية الليلية: إلى الجحيم أيتها الخنزيرة الحمراء، يحيا هتلر! الخادمة التي تعمل لديها تتلقى التهديدات: **اتركي العمل لدى هذه الشيوعية وإلا ستنالين عقابك!** مجهولون يسألون المرضى القلائل الذين ما زالوا يجرون على التردد عليها: لماذا تذهبون إلى العميلة الحمراء؟ هل أنتم شيوعيون أيضًا؟

طيلة المساء أحيانًا، وأحيانًا طيلة الليل، كل عشر دقائق يرن التليفون، لا تستطيع عدم الرد، لا بد من أن يستطيع المرضى الاتصال بها في كل وقت، هذا شيء يعرفه المتصلون، ولذلك يجعلون أوصالها ترتعد كل عشر دقائق. على سبيل التغيير يصيحون بين الحين والآخر: سنعلق هذه الخنازير الشيوعية في حبل المشنقة! هكذا يتنامى الخوف من الجنون، رغم كل الإدراك الطبي. لحسن حظها لا تدرك أنها ما زالت في بداية سنوات العذاب. لم تعد العيادة مصدر رزق العائلة، ينقصها الراتب الإضافي الذي يبلغ ٧٨٠ ماركا قبل المستقطعات. يتحتم عليها أن تطلب المساعدة من الأم، والاقتراض بضمان وثيقة التأمين على الحياة. لديها مُتسع من الوقت للتأمل فيما يحدث. أحيانًا تدور حول ناصية «ليندن-أليه» وتسير في «أهورن-أليه»، حيث كان المنزل الذي سكنت فيه مع جيورج والأطفال قائمًا إلى أن أطاحت به القنابل في مارس ٤٤. هنا قَدَّما المخبأ لليهود، هنا كانوا يُخزَّنان المواد الغذائية، هنا كانوا يعيشان على حافة الخطر المميت، هنا كانا سعداء. طوى النسيان جيورج، حتى روبرت الذي يزورهم بين الحين والآخر لم يعد يتحدث عن «الاتحاد الأوروبي» إلا بالكاد؛ لأن المجموعة لا تلائم رفاقه في الحزب الاشتراكي الموحد الذين لا يعترفون إلا بالمقاومة الشيوعية. لا أحد يهتم بما كان الأربعة يفعلون، بأي شيء خاطروا، ماذا حاولوا، وكأن مائة عام مرت على إعدامهم.

لا تريد أن تفكر فيما تفكر فيه الآن: هل سيتحتم علي قريبًا أنا أيضًا أن أبحث عن مخبأ؟ هل علي أن أدفع الثمن لأن النازيين أعدموا جيورج؟ ما ذنبي؟ أني نجوت؟ أني لا أستطيع النسيان؟ لا أريد حربًا أو نازيين بعد اليوم؟ هل يبقى الحكم الذي أصدره فرايزلر

وأعوانه ساريًا علينا في ظل النظام الديمقراطي؟ الحكم الذي حوّلنا إلى كائنات «مضرة بالشعب» ومرتكبي الخيانة العظمى؟ هل علي أن أخلي مكاني وأنسحب من الساحة؟ الذهاب إلى الشرق؟ ماذا كنت ستفعل يا جيورج؟

في برلين الشرقية يبحثون عن أطباء، باستطاعتها الحصول على أفضل وظيفة، ستستريح من المكالمات الليلية ومن الرسائل القذرة، ولن يُهين أحد أبناءها بعد اليوم: **أنا لا أَلعب مع شيوعيين!** إنهم يكتبون في الصحف الصادرة في الشرق عن الطيبة الجسورة، إنها تتلاءم مع الدعاية التي يروجونها. ولكن تبقى المخافة من الشرق، الأوضاع هناك ليست ديمقراطية كذلك، هناك يختفي أشخاص، ليس الفاشيون فحسب هم الذين يهربون من هناك، قد تغدو هناك ضحية الجبهات المختلفة، ربما يسوء وضعها. لقد عارضت دفن الوعاء الذي يضم رفات جيورج المحروقة في المقبرة الشرفية للرفاق، الموجودة في فريدريشسفيلد في القطاع الروسي. الوعاء مدفون الآن في مقابر «هير-شتراسه»، في القطاع البريطاني، بالقرب منها تمامًا، وأناليزه بحاجة إلى هذا القرب. كما أن الأم والأخت في الغرب، عائلة جيورج في أونترهاون وفيردا، الأصدقاء القلائل — باستثناء روبرت — يسكنون في شارلوتنبورج. وجيورج يهمس في أذنها: لم نفعل شيئًا يُعاقب عليه القانون، اصمدي، دافعي عن نفسك، كافحي لتحصلي على حَقك، أنت على حق، اذهبي إلى القضاء!

شغل، شغل، شغل

Why do you hide yourself?

سألني ملاك لندن ضاحكا، ثم احتضنني، وقبّل كاترين على وجنتيها، وأخذها بين أحضانه، فترةً أطول مما فعل معي، ثم انطلق يتلو قصائد المجاملات لها. عثرنا على بعضنا بسرعة وسط زحام الضيوف الذين جاءوا يحضرون الاحتفال في شقة برونو. كان سؤال هوجو مزاحاً أكثر منه اتهاماً، ورغم ذلك شعرت بحتمية أن أدافع عن نفسي؛ لأنني لم أرَ الصديق غريب الأطوار منذ ثلاثة أسابيع أو أربعة.

Why do you work all the time?

في تلك اللحظة، في الثواني الهادئة الفاصلة بين أغنيتين، التقطتُ أذناي جملة من الحديث الدائر خلفي: ببساطة في «النجم الأزرق»، عند شتوتوي. فهمتُ على الفور أنهم يتحدثون عن أسلحة، فاستدّرت، أردتُ أن أعرف من هنا على علمٍ بخُططي. نظرة صارمة من أشقر قصير وَشَت بأنه هو الخير. اقترحتُ على هوجو الذهاب إلى غرفة أكثر هدوءاً. ليس الأمر متدهوراً إلى هذا الحد، أجبتُه: القراءة والكتابة ليسا من التهم التي يعاقب عليها القانون، ثم حفرتُ في ذهني: محل «النجم الأزرق» في «شتوتجارتر بلاتس».

When will you start living?

موقف غريب: بينما كانت أفكاري تتحلق حول المسدس، سلاح الجريمة، كان عليّ أن أتحدث مع هوجو عن حياتي، على أنغام الموسيقى الهادئة، وسط خمسين أو ستين شخصاً، في عيد ميلاد برونو. لم تكن كاترين بالقرب منا.

What is your idea of life?

سؤال وجيه لقاتل في طور الإعداد. راوُغت، رغم أن أحدًا لم يكن سيشتبّه في ولا حتى كاترين، ناهيك عن هوجو. لولا ما كان يرشّونا به من لطف وتحمّس، ما استطاع أحد أن يتحمل إلحاحه. أي شخص آخر كان سيقنع بإجابتي: عمل كثير. في كل مكان كانت الأرض تنشق عن مجموعات عمل وبرامج عمل. برزمة ورق وآلة كاتبة كان بإمكانني أنا أيضًا الاستفادة من تحول العمل إلى أيقونة. الدراسة كلها كانت تمويهًا حتى لا يكتشف أحد أبحاثي عن جروسكورت، وخلف مخططات الكتاب كان من السهل إخفاء خطط القتل. السُّمعة المريبة التي أحاطت بي إنسانًا مجتهدًا كانت أفضل الدروع التي يمكن أن أخفي خلفها. وقد كان تمويهي كاملاً؛ لأنني لم أكن أكثر التحدث عن أفكاري.

ملاك لندن وحده لم يكتفِ بذلك، وجعلني أهتز اهتزازًا عندما أراد بصراحة مبتسمة أن يتحدث عن حياتي. راح يلقي عليّ محاضرة طويلة عن الاستمتاع والاحتياجات الروحية وتنشيط العواطف، عن سينيكا وبوذا والألمان غربيي الأطوار والطلبة الألمان المتعصبين الأكثر غربة. الراديكالية شيء رائع، قال لي، ولكن بدون تلك الجدية المنفعلة.

كنت أود لو رددت عليه قائلًا: عندك حق، هكذا فكرت أنا أيضًا عندما زرت لندن. لكنك تأتي من كاليفورنيا، وليس من أكثر المناطق الملوثة بالعار على الخريطة الأوروبية، من بلد متورط في ماضيه بلّا أمل في النجاة، بلد يسحبك — شئت أم أبيت — إلى غور سحيق، إلى مستنقعات النازية التي لا يستطيع أحد أن يجففها أو يتجاهلها؛ هذا ما جعلنا نغرق في العمل، بل ويحولني أنا إلى قاتل!

أنا أيضًا متعصب، هكذا قال هوجو عني، متعصب مُحفّظ، ألتجف بصمت العمل ولا أجروّ على إظهار ذاتي الحقيقية.

لم أُدافع عن نفسي؛ لأنه أخيرًا داخلي السؤال: لماذا عدتُ قبل عام ونصف إلى برلين الباردة الفظة البذيئة التي يمكن شراء كل شيء فيها بالمال، حيث يُسمح للشرطة بإطلاق الرصاص على المتظاهرين المُسلمين دون أن يُعاقبوا؛ حيث أصبح رمي الحجارة دينا وعقيدة، حيث يحطم المرء رأسه، مرة بالكلام وأخرى بالهراوات، ثم يجري بجمجمته المشجوجة تجاه الحائط؟ لم العودة إلى قبلة الفظاظ والجلافة والوضاعة والجديّة والهستيرية؟ لماذا؟ هكذا تساءلت ذاتي المُفكّرة، لماذا لم تظل في لندن، حيث كان باستطاعتك — إذا أخفقت في شيء — على الأقل أن ترفع من روحك المعنوية عبر التهذيب والمرح؟

«شوغل، شوغل، شوغل»، هكذا نطق ملاك لندن كلمة «شغل» بلهجته الكاليفورنية، ثم ضحك، وكأنه حل أعقد الألغاز اللغوية. ثم طالَبَنِي بالتَّخَلِّي عن التَّعَصُّب، أو على الأقل عن الصَّرامة، فما أكثر ما يمكن اكتشافه في الحياة.

My idea of life.

كنتُ قد قطعت شوطًا على هذا الطريق: لمَ لا أدرس تاريخ الفن بدلًا من التَّشَنُّج النازي؟ اللغة الإيطالية أو علم الظواهر الجوية، بدلًا من الحرب الباردة؟ أن أدرس أي شيء سهل وبهيج، فن الأوبرا مثلًا أو عصر الروكوكو، وإذا كان لا بُدَّ من دراسة الأدب، فليكن المهاجرون إلى لندن قدوتي. لا أحد في برلين له هذا القلب الدافئ والروح النقدية مثل فريد،^١ لا أحد إباحيًا ومهووسًا بالإيروتيكا مثل ليند،^٢ ولا أحد يكتب بفخامة ملكية وحرفية مثل كانيتي،^٣ أنتَ عايشَتهم، تعرَّفتَ إليهم وتقدَّرهم حق قدرهم، رجال يتحلَّون بالهبة والكرامة والمرح. لمَ لا تصبح شخصًا مثلهم، بدلًا من أن تنتقم للعدالة، بدلًا من أن تصبح قاتلًا عن اقتناع؟ لماذا لا تطمح في الصعود إلى قمة السُّلَّم الوظيفي في إحدى الجامعات البريطانية؟ لمَ لا أجد في إحدى الكليات النسائية رفيقة جميلة، ذكية، ميسورة الحال؟ لماذا لا أحيًا حياة حرة بدون أوساخ التاريخ وشياطينه؟ لمَ لا أواصل الكتابة بلا إزعاج من أحد؟ أن أسطر جملاً طويلة جميلة، رشيقة وأنيقة، ثم يأتي الوقت، بعد عشرين أو ثلاثين عامًا، بعد أن يكون الألمان قد اندثروا أو على الأقل تَخَلَّوْا عن فَظاظَتهم، وبعد أن يكون النازيون قد وادُّوا الروح النازية، عندئذٍ يكتشفونني ويحتفون بي، وعندئذٍ أجلس مثل كانيتي في إحدى مقاهي هامستيد هيث، وبنظرة باسمة أقرأ الصحف الألمانية.

أخيرًا رددتُ على هوجو، قلتُ بضعة أشياء في هذا الاتجاه، ثم — تتويجًا لمرافعتي — فتحتُ مفكرة الجيب لعام ١٩٦٩م، وترجمتُ لهوجو شعار برشت الذي دَوَّنْتُهُ على الصفحة الأولى، وهو شعار لن يعجب أي دغمائي أو حمار شغل: «هناك مَنْ تعوزه المقدرة على الضحك على أشياء جادَّة. ليس لنا أن نُدينَه من أجل ذلك، ولكن على الإنسان ألا يسمح للآخرين بأن يمنعوه عن الضحك على الأشياء الجادَّة. إن باستطاعة الإنسان أن يتحدث عن الأشياء الجادَّة بمرح وجِدَّة، وعن الأشياء المرحية بمرح وجِدَّة.»

رغم ذلك شعرتُ بأنه نفذ إلى أفكاري. بقيتُ مرتبِّكًا، من ناحية بسبب الأسلحة، النجم الأزرق، وميدان «شتوتي»، ومن ناحية أخرى بسبب الخطبة الروحية التي ألقاها هوجو، ومن ناحية ثالثة بسبب الأشواق اللندنية التي غمرتني فجأة؛ ربما لأنه لاحظَ أنه بالغ، وَضَعَ الصديق يده اليمنى على كتفي، وتركها مُدَّة أطول مما أحب، وقبض على عنقي

برفق وثبات، ثم مدَّ يده وأمسك بعضلات عنقي، وبنفس الحزم قبض على عضلات الكتف، وسحب يده بهدوء وكأن شيئاً لم يكن. سألتُه: ما شعورك عندما تسمع في برلين موسيقى أصدقائك طوال الوقت؟

– إنها تزداد جمالاً.

هكذا ردَّ عليَّ على وجه التقريب، ثم أضاف: ولكنهم لم يعودوا أصدقائي.

Sympathy for the Devil – هذه قصيدة عظيمة، ولكنني لم أعد أحب الشياطين، فالعالم تشيطن بما فيه الكفاية. أما Street Fighting Man فهي أغنية عن لندن المُلَمَّة والقَمِيئَة. إنكم تفهمونها جميعاً على نحو خاطئ، إنها نشيدكم الوطني، إنني أسمعها كل يوم خلف الأبواب، شئتُ أم أبيتُ. Street Fighting، طريق مسدود، وميك صائد جردان، انتبه! وإذا ظننتم أنه يغني لكم أغنية عن الثورة فإنكم تخطئون، أصغ جيداً إلى كلمات الأغنية، Palace Revolution، إنه يريد ثورة في القصر، لا أكثر. ميك يريد إسقاط الملكية وأن يغدو ملكاً، إنه من أتباع الملكية، صدقني. ولكن لا تُبح بذلك لأحد! بالمناسبة، أنا سأسافر قريباً مرة ثانية، سأقوم ببعض الترتيبات في لندن، ثم أسافر إلى الهند أو المكسيك، الأرجح إلى الهند، هل تأتي معي؟

وجَّه السؤال إليَّ ضاحكاً، مُشرق الوجه، نكتة جيدة. ضحكتُ معه، وانضمتُ إلينا كاترين، فشرح لها هوجو سبب الانسحاب الذي بدأ علينا. وعندما بدأتُ معه حديثاً حول المكسيك، تركتهما وحدهما.

ما قاله عن تعصبي ظل يدور في رأسي. كان عليَّ أن أدبر الأسلحة من «شتوتجارتربلاتس»، رحتُ أبحث عن الشابين اللذين كانا يتحدثان عن ذلك. كانا في المطبخ مُنهمكين في نقاش حادٍّ حول إقدام يان بالاخ بحرق نفسه في براغ.° لم أَدْخُل في ذلك النقاش أيضاً، رغم كوني متعصباً حديث التعيين، إلا أنني احتفظتُ في رأسي بالجملة التي قالها الأشقر القصير: لو حرقَ شخص نفسه في كل أسبوع، لتراجع الرأس حتماً عن مواقفهم، على الإنسان أن يظل راسخاً على مبدئه، هذا هو كل شيء، راسخاً!

لاحقاً، بعد الرقص، في الليل، عندما كنَّا نرقد جنباً إلى جنب، راحت كاترين تتحدث بحماسة عن المكسيك قائلة: إن هوجو حكى لها حكايات رائعة، ثم تمنَّت أن تقوم يوماً برحلة إلى المكسيك. بعدها قالتُ على نحو عَرَضِي: خسارة أنه لوطي.

لا أعرف إذا كنتُ آنذاك قد رددتُ بسرعة البديهة التي تهمس بها ذاكرتي الآن:

– خسارة أنه ليس امرأة.

الرومانسية الغربية العنيفة في شارع هاردنبرج

كلُّها تَكْهَنَات، قالت أناليزه جروسكورت في يناير ١٩٦٩م: لا أعرف فعلاً متى انكشفَ سرُّ المجموعة. كثيراً ما تحدثتُ مع «روبرت»، و«جريت» رنتش»، و«ماريا ريشتر» عن ذلك مُحاولين حل هذا اللغز، غير أننا لم نهتدِ إليه أبداً. لا أريد أن أظل أفكر فيما إذا حدثتُ خيانة من الدائرة المحيطة بالمجموعة، سيكون من المعجزات ألا يكون قد ظهر خائن، أو ما إذا كان أحد المختبئين قد أُجبر على الثرثرة، أو ما إذا كان الذنب يرجع إلى المنشورات، أو أن تكون إحدى الخادِمات تَجَسَّست عليهم، لقد حدث ما حدث، ومَرَّت فترة طويلة على ما حدث، لا أريد أن أُطلق تكهَناتي عن ذلك، ولا حتى معك!

كان عليّ أن أحترم رغبتها؛ لذلك ستبقى تفاصيل كثيرة من تاريخ الاتحاد الأوروبي مَطمورة في الظلام إلى الأبد، كنتُ متأكداً من ذلك، حتى كتابي المزمع عن جروسكورت لن يُغيّر من الأمر شيئاً، بل سيكون مزيجاً بباقة من علامات الاستفهام.

يا له من خطأ! منذ عام ١٩٨٩م أصبحت ملفات التحقيق التي أجرتها مخابرات أمن الدولة النازية مُتاحة للجميع، تلك الملفات التي كانت محفوظة في خزائن جهاز مخابرات أمن الدولة في ألمانيا الشرقية. وخلال السنوات التي مَرَّت نشط عدد من المؤرِّخين، واليوم — والفضل لشابوفسكي^١ — يمكن رسم الملامح الرئيسة لتلك القصة البوليسية، الخيانة التي تعرّضت لها المجموعة، وهي خيانة يختلط فيها سوء الحظ بالغباء.

في المرة الأولى سقط الحظ السيئ من السماء، بالمعنى الحرفي للكلمة، والبركة في المخابرات السوفييتية. كان السوفييت يقومون بتدريب مهاجرين على القفز بالمظلات، محاربين قداماء في الحرب الإسبانية، وبعد أن يتزوّد هؤلاء بالأوراق المزوّرة كانوا يقفزون

في الأراضي الألمانية، ويُنشطون الاتصالات بمجموعات المقاومة الشيوعية. نادراً ما أفلح أحد هؤلاء المُغامرين؛ إذ إن معظمهم كان يُلقى القبض عليهم قبل أن يبدؤوا اتصالاتهم. هذا ما حدث أيضًا في شهر مايو، عندما وقع في شَرَك الجستابو رجل المظلات أوتو هبner — واسمه الحركي كلاين — الذي هبط في أبريل ١٩٤٣م فوق بروسيا الشرقية. ولم يستطع — هكذا يستمر النحس — أن يتخلص من ورقة كانت معه، تضم، من بين ما تضم، اسم هاتشيك، وعلى ما يبدو بلا تشفير. لثقتة التامة بانتصار الثورة العالمية نسي الرجل اتباع أبسط قواعد التمويه.

كان باول هاتشيك إخصائياً في تقنية البث الإذاعي والبصريات، وهو أمدَّ المخابرات السوفييتية في الثلاثينيات بمعلومات عن اختراعات قام بها بنفسه أو آخرون، كما كانت له اتصالات بإحدى مجموعات المقاومة الشيوعية. وفي عام ١٩٤٢م أُلقي القبض عليه، غير أنهم أطلقوا سراحه لعدم كفاية الأدلة. كان على الذين يُطلق الجستابو سراحهم أن يتوقعوا استمرار الرقابة عليهم. ولذلك تعامل الشيوعيون معه بحذر، باستثناء إدوارد هنتش الذي كان يقيم علاقات متقطعة مع «الاتحاد الأوروبي». كان هاتشيك يبحث عن التواصل مع الآخرين، ثم تعرّف عبر هنتش إلى هافمان وأعجب به، وراح يتحدث بفخر عن اتصالاته بموسكو؛ ولأن هافمان كان مهتماً بفتح خط مع الاتحاد السوفييتي، فقد أقدم على التحدث مع هاتشيك حول هذا الأمر أو ذاك منذ ديسمبر ١٩٤٢م، ثم عرّفه بأعضاء المجموعة الآخرين. هذا ما يمكن أن نعتبره اليوم — مع كامل احترامنا لهم — حماقة العظمى التي ارتكبوها، حماقة رقم «١» صحيح أن نظرتهم إليه — باعتباره إنساناً خيالياً يدّعي الأهمية، عديم الثقة بنفسه وغير بشوش — كانت تزداد يوماً بعد يوم، ولذلك ظلّوا على حذر ولم يثقوا فيه إطلاقاً، حتى هافمان كان يتحاشاه، لكنهم لم يقطعوا علاقتهم به: حماقة رقم «٢».

فيما بعد استطاع الجستابو، على الأرجح تحت التعذيب، أن يجبر القافز بالمظلة هبner، أي كلاين، على إفشاء كلمة السر التي يستخدمها في الاتصال مع هاتشيك: «العم ليوبولد». لماذا لم يُقل هبner في ورطته «العم أوغست»، أو «العم هربرت»؟ لن نعرف ذلك أبداً. بادّر الجستابو بالهجوم. عبر أسابيع تم إعداد أحد عملائه ليقوم بدور العميل السوفييتي كلاين. ولأن اسم هاتشيك كان معروفاً لديهم فإن الأمر كان يسيراً بالنسبة لهم. في مطلع يوليو اتّصل النازي تليفونياً بهاتشيك مستخدماً كلمة السر «العم ليوبولد». في

البداية ارتاب هاتشيك في أمره واستولى عليه الخوف، لكنه استجاب لإلحاح هافمان — حماقة رقم «٣» — كي يقابل العميل ويَتَمَشَّى معه، ثم يقوم اثنان من الأصدقاء بمراقبته أثناء ذلك. وتم اللقاء، إلا أن الصديقين لم يَتَفَقَا في الرأي؛ أحدهما قال: ليس هذا عميلًا روسيًا. أما الآخر فقال: إنه عميل.

وثق هاتشيك — حماقة رقم «٤» — في رأي الصديق الثاني، وهكذا تَقَابَلَ بعد أسبوع مع النازي المُتَنَكِّر في هيئة شيوعي. كان يبدو على اطلاع بتفاصيل نشاط هاتشيك في التجسس، واستخدام الاسم المستعار الصحيح، أي كلاين، ولهذا اعتبره هاتشيك جديرًا بالتصديق، وحكى له في اللقاء الأول — حماقة رقم «٥» — عن المجموعة الرباعية. ثم قام هاتشيك بإخبار هافمان — الذي ظل مرتابًا — بالأمر، ورغم ذلك — حماقة رقم «٦» — شَجَّعه على لقاء ثانٍ، ليس هذا فحسب، بل كلفه — حماقة رقم «٧» — بأن يطلب من كلاين المتخصِّص في التجسس الاقتصادي بأن يقابل العميل البولندي. أما كلاين المزيَّف فقد طلب من هافمان تقريرًا عن حالة الدمار الذي خَلَفَتْه حرب القنابل، وهو ما فعله هافمان على الفور مستندًا إلى الأبحاث الرسمية التي قام بها هيربرت ريشتر، راجيًا إياه أن يسلم التقرير إلى العميل السياسي المطلوب، حماقة رقم «٨».

كانت الشكوك تتكاثر يومًا بعد يوم داخل المجموعة. جروسكورت اعتبر الأمر برمته اختراعًا من هاتشيك الذي يريد أن يشعرهم بأهميته. «خلفًا لنصيحتي» — كتب هافمان عام ١٩٤٦م إلى صديق له متفاخرًا بعض الشيء — «أُتخذ القرار بقطع الاتصالات مؤقتًا بالعميل غير الموثوق به. عارضتُ هذا القطع ما دُمنا لسنا على يقين تامٍّ بأمره، وطالبتُ — في حالة الاقتناع بزيف شخصيته — أن يختفي كل الأشخاص المُهدِّدين عن الأنظار. استجابت المجموعة إذن لإلحاح هافمان، ربما لأن أحداً لم يكن يريد أن يصبح خارجًا عن القانون — حماقة رقم «٩» — واستجابت — حماقة رقم «١٠» — لاقتراح هاتشيك بأن يتم لقاء بين العميلين في «هاردنبرج-شتراسه». عندما ادَّعى هافمان أمام هاتشيك أن الذي يبحث عن الاتصال ليس هو، بل رجل مهم، فقد كان يعتقد أنه بذلك يحمي نفسه والمجموعة. وهكذا أُرسِل رنتش، الذي لم يكن هاتشيك يعرفه، وطلب منه أن يطبع وجه العميل في ذهنه، استعدادًا للقاء لاحق مع هافمان أو الرجل المهم المُخترع، حماقة رقم «١١». على الرصيف الأيسر، إذا ألقينا نظرة من حديقة الحيوان، بين «شتاين-بلاتس» و«كني-بلاتس»، وهو الميدان المُسمَّى اليوم «إرنست-رويتز-بلاتس»، كان كلاين المزعوم، والعميل السياسي المزعوم يسيران بخطى وثيدة مارين برنتش وهاتشيك.

عند «شتاين بلاتس»، ومن الناحية الأخرى عند «كني بلاتس»، استدار الاثنان ومشيًا إلى أن تقابلًا، للمرة الثالثة استدارا وتفحص كل منهما الآخر. افترق السادة، غير أن هاتشيك — حماقة رقم «١٢» — وخلافًا للاتفاق، مشى في اتجاه كلاين، وتحدث معه بحدة. مضى رنتش مبتعدًا عنهم، وقام بإبلاغ هافمان الذي كان في انتظاره عند «كنيسة الذكرى». اعتبر رنتش المناورة كلها بالغة الخطورة، أيضًا صديقه ريشتر كان مُستاءً بسبب تلك «الرومانسية الغربية العنيفة». في النهاية تخلى هافمان عن طموحاته. ولأنه لم تحدث اعتقالات في الأيام اللاحقة، اعتقدت المجموعة الرباعية أنها قطعت الاتصالات في الوقت المناسب.

غير أن الجستابو كان يعرف ما فيه الكفاية؛ فبينما كان جروسكورت في المستشفى يُطوّر اتصالاته مع عمّال السُّخرة الأجانب ويزوّدهم بأجزاء من أجهزة الراديو، وبينما كان هافمان يكتب عن وحدة أوروبا السياسية والاقتصادية داخل الاتحاد الأوروبي، مُنهيًا المنشور قبل الأخير له قائلًا: **كافحُوا مع الاتحاد الأوروبي القوي من أجل أوروبا اشتراكية حرة**؛ وبينما كان رنتش يدبر الحصول على بطاقات هوية مُزوّرة يزود بها اليهود المختبئين في البيت الذي يقضي فيه الإجازات والعطل، وبينما كان ريشتر يُسجّل الأضرار التي سببتها الغارات الجوية؛ أثناء ذلك كله راح هاتشيك — الذي كان يشعر بالسعادة لأنه أقام أخيرًا اتصالات بالاتحاد السوفييتي الحبيب — يبوح للعميل بمعلومات عن المجموعة أكثر مما تفرّضه قواعد العمل السري. بعد مرور يوم على تأسيسها في الخامس عشر من يوليو ١٩٤٣م، وبفضل الطّعم هاتشيك، كان الأصدقاء من «الاتحاد الأوروبي» قد علّقوا بشخص القَتلة. في الجملة الأخيرة من المنشور الأخير كتب هافمان — وكأنه يحسد الطامة الكبرى التي تَسبّب هو شخصيًا في حدوثها: **علينا ألا نبوح أبدًا بسرّ المناعة التي تتمتع بها منظمة «الاتحاد الأوروبي»**.

لماذا إذن — سنتساءل اليوم — تُرتكب كل هذه حماقات مرة واحدة؟ ربما بسبب طموح وتباهي الرجل الذي نجّا وحّدَه من المصير الذي لاقاه كافة أعضاء نواة المجموعة. إن من المشكوك في جدواه أن نحاول اليوم من وجهة نظرنا المتعالمّة أن نُقيّم ما فعلوه، ولكن لا يمكن تجاهل أنه لم يُلحَّ أحد في المجموعة مثل هافمان على تنويع أفعال المقاومة العملية بمنشورات سياسية نظرية، بيانات تحتوي على تصريحات هجومية وحُجج ذكية ثاقبة البصر لفترة ما بعد الحرب، ولكن من الناحية التكتيكية كان ما حدث حماقة ودعوة إلى الذين يلاحقونهم. لم يطمح أحد من الأربعة مثل هافمان — في وسط عام ١٩٤٣م — في الحصول على مَعونة الاتحاد السوفييتي عن طريق العملاء. ولم يشعر أحد

— رغم الاحتياط الكامل — بالفخر والفَخار مثله؛ لأن الاتحاد السوفييتي الكبير يبحث — كما كان يظن — عن اتصالات بالاتحاد الأوروبي الصغير.

ليس من حق أحد — لا سيَّما نحن الذين لم نَقْصِ يوماً واحداً في أخطار مماثلة — أن يرمي بالاتهامات فوق قَبْرِ هذا الرجل الشُّجاع الفاضل. ولكن حتى نكون عادِلين بعض العدل حيال جروسكورت، ورنتش، وريشتر، فلا بد من أن يُسمح لنا بالقول بأنهم لم يكونوا رومانسيين، وأنهم لم يكونوا في حاجة إلى الكلمات الكبيرة، ولا إلى الاستناد على كتف الأخ الكبير في موسكو.

وهكذا كان بإمكان الجستابو أن يضرب ضربته بمنتهى القوة. في الثالث من سبتمبر تم اعتقال باول هاتشيك. هو بالذات، الذي كان يُوصَف بأنه أقلهم في قوة الاحتمال. في التحقيق الأول ذكر أسماء مؤسسي الاتحاد الأوروبي وأسماء زوجاتهم، وستة أسماء من المجموعة الشيوعية التي كانت قريبة منهم. تم اعتقالهم جميعاً في الخامس من سبتمبر، وبعد فترة قصيرة تم اعتقال بعض اليهود المختبئين وهمزات الوصل بين المجموعة وعمال السُّخرة الفرنسيين والرُّوس والتشيك، إجمالاً ٥٥ امرأة ورجلاً، ثلاثة منهم لَقُوا حَتْفَهُم في معسكرات التصفية، ١٧ أُعْدِمُوا بحكم قضائي أصدره في معظم الحالات القاضي «ر».

كيف جَعَلَ المحققون هاتشيك يبوح بكل ما يعلمه في أول تحقيق؟ سؤال لا نستطيع إلا التكهّن بإجابته؛ إذ إن مَلَفَهُ هو تحديدًا — الذي يضم محاضر تحقیقات الجستابو — قد اختفى، باستثناء أجزاء منه. كان هاتشيك يعمل آنذاك لصالح المخابرات السوفييتية، فلا بد إذن من أن الرجال المُهمِّين في الـ «كي جي بي» قد أُعْدِمُوا في الخمسينيات والستينيات كل ما قد يعكر صورة عميلهم جامع المعلومات.

الخامس عشر من أغسطس

بين عشية وضحاها أصبحت أناليزه جروسكورت، الطبيبة ذات الأربعين عامًا، مُلاحقة، مكروهة، مُحترقة، فقيرة. لا تريد أن تكون شيوعية، ناهيك عن أن تصبح بوقًا للبروباجندا الحمراء. لكنها تتمسك برأيها؛ ترفع قضية لدى محكمة العمل مُعترضةً على فصلها وعلى الافتراءات والأكاذيب المُلفقة حولها. أخيرًا وصل الإرهاب إلى نهايته، هكذا تقول لنفسها في كل ليلة قبل النوم، أخيرًا قوانين عادلة، ديمقراطية، حرية وقضاة لا يرتدون أروابًا عليها صُلبان معقوفة. مَنْ يتعرض للظلم، يمكنه أن يدافع عن نفسه، بل من حق الإنسان أن يرفع دعوى ضد مصلحة حكومية، ضد مُوظَّف في مكتب الصحة في الحي، وخاصةً بصفتها طبيبة في مصلحة حكومية مُحترمة، أرملة رجل شجاع كافح ضد الصليب المعقوف ... إلخ. الحُجج التي تكتبها في رسالتها إلى المحكمة يجب أن تكون — هكذا تفكر — مُقنعة لأي إنسان: لقد خالف مكتب الصحة في الحي اللوائح مرارًا وتكرارًا، كما أنه خالف الدستور البرليني. ثانيًا: إن فصل شخص مُعترف به مُلاحقًا سياسيًا لا يمكن أن يحدث إلا بموافقة رئيس قسم شئون العمال، وبعد إجراء تحقيق. كِلا الأمرين لم يحدث. ثالثًا: يقول مستشارها القانوني إن المادة التي يركز عليها قرار المنع من مُزاولة المهنة تتعلق بالجمعيات التي تعمل ضد النظام الدستوري وضد التفاهم بين الشعوب، بينما يهدف الاستفتاء تحديدًا إلى دعم الدستور وتعزيز التفاهم بين الشعوب. تُحصى أناليزه ثمانية انتهاكات قانونية، في حين أن الدليل الوحيد المُستخدم ضدها هو ذلك الخبر الصحفي القصير المُغرَض الذي يحمل عنوانًا خاطئًا.

يُرد مكتب الحي: الدستور لا يسري على أمثاله الذين يهدفون إلى استغلال الدستور لأهدافهم الخاصة عبر إجراءات توتاليتارية ديكتاتورية. إن إقالتها تستند إلى البند الثاني

من المادة رقم ١ من قانون تَعْيِين الموظَّفين والعمال في برلين الكبرى وإجراءاته التأديبية: «على الموظَّفين أن يَسْلُكُوا سلوكًا يتفق مع الاحترام والثقة اللتين تفرضهما علاقة العمل.»

وبينما كان قضاة محكمة العمل يَتَمَهَّلُونَ كل التَّمَهُّل في فحص حجج كلا الطرفين، حاول المكتب الحكومي أن يُصْلِحَ لاحقًا الانتهاك القانوني أمام وزير العمل في برلين. يستمعون إلى أقوال السيدة جروسكورت، ويعترفون بدورها في المقاومة، ورغم ذلك يوافقون على إقبالها بتاريخ ٢٠ يونيو. وبِكرَم يشيرون إلى إمكانية اللجوء إلى القضاء لتسوية الخلاف بين مكتب الصحة بالحي والطبيبة العاملة به. وَمَن يهملها إذا كانت إقالة لاحقة بهذا الشكل مخالفة للقانون؟

لا يهم هذا سواها وسوى مستشارها القانوني الذي تتولَّى المحكمة دفع أجره نظرًا لحالتها الماديَّة المتواضعة. لا تستطيع تَحْمُلُ تكاليف محامٍ حقيقي، وهي ليست بحاجة إليه أيضًا، هكذا تفكر؛ فَحَجَّجَها تقنع كل شخص. تَمَرَّض: غثيان، آلام في الأمعاء، صداع، حُمَّى. تَشَخَّص مرضها بأنه نتيجة انتقال عدوى. تَتَنَاوَل أدوية، بدون نتيجة. تَحْدِس السبب وراء ذلك. لم تُعَدْ تستطيع مقاومة الهجمات الوضيعة عليها. لا تريد أن تصدق، غير أنها تشعر وتسمع وترى يومًا بعد يوم: كلهم ضدها، باستثناء حفنة من الناس كانوا من مُناهضي هتلر. الابنان يَتَعَرَّضَان للمُضايقات، التلاميذ يُوجَّهُونَ لهما السَّبَاب في فناء المدرسة: «شيوعيون.» هناك مَرَضَى يأتون بعد حلول الظلام حتى لا يَبْثِي بهم أحد. الأمر يفوق طاقتها. سبع سنوات من مِمَارَسَةِ لعبة التَّخَفِّي في عهد النازية، ثم خمس سنوات عمل مُرهَق متواصل، الانتقال طوعًا عام ١٩٤٦م إلى كومة الأنقاض برلين، إزالة الأنقاض، إعادة النظام، تقديم يد العون، ليل نهار تُكَافِح البؤس، دائمًا تعمل، دائمًا في خدمة الآخرين أولًا، ثم في خدمة الأطفال، وأخيرًا تخلو لنفسها. وكيف يشكرونها على ذلك؟ لماذا يُلاحِقُونَ امرأة مُلاحَقة؟ لماذا يُعاقِبُونَ امرأة عاقِبها النازيون؟

في كوابيس الحُمَّى يظهر لها وحش، له رأس يُشَبِّه رأس كلب وعدة رءوس أفاعي، وحش أسطوري يبت أنفاسه السامة من منخريه، يضايقها، يطاردها، يطلب مُنازَلَتها، يلتف حولها برءوسه الأفعونانية التي تنفخ لها. لا تعرف أي الأَمْرَيْن أكثر سوءًا: إذا دافَعَت عن نفسها ضاربةً أحد الرءوس، أو إذا حَقَنَتْهُ حقنة تقضي عليه أو تصيبه بالشلل، فعلى الفور سوف ينمو له رأسان جديدان؛ ولكن إذا لم تُدَافِع عن نفسها، سيُسَمِّمها هذا الوحش بأنفاسه. وحش أسطوري كما يعرفه المرء من الكتب المدرسية، هيدرا في أسطورة هرقل،

حيوان قابِلها مؤخرًا في الليالي التي قَضَنُها في سجن الشرطة في «ألكسندر بلاتس» عندما كانت قاذفات القنابل تُزْمَجِر في الفضاء، بينما كان المُحَقِّقون يجلسون في القبو آمِلين أن تصيب القنابل — فهي تسقط على كل حال — المساجين السياسيين في زنازينهم تحت السقف. هيدرا، لم تكن تريد أن تفكر فيها مرة أخرى، ولكن ها هي أمامها.

بعد أن تحسَّنت حالتُها قرَّرت أن ترفع دعوى ضد صحيفة «تاجيس-شبيجل» حتى تقضي على تلك الوشاية التي وصَّمتُها بأنها «شيوعية حمراء»، فهي أصل كل الشرور، الكهف الذي تقبع فيه هيدرا. يقولون لها: الأمريكيون وراء الموضوع، لا فائدة. ولكن الأمريكيين — ترد — يقفون في صف الحقيقة! كم بَكِيتُ عندما قام الأمريكيون أخيرًا بتحريرنا! كما أن الصحفي الأمريكي في المؤتمر الصحفي لم يجد فيما فعلته أي مأخذًا!

آخ، يا دكتوراه! متى تفهمين أن الأمر لا يتعلق بك أنتِ. الموضوع سياسي! مكتب الصحة يتباطأ في إجراءات القضية، لا يرد على رسائلها، لا يلتزم بالمواعيد، يرفض التسوية — هكذا ينقضي صيف عام ١٩٥١م.

في الخامس عشر من أغسطس — عندما كان الابنان في حمام السباحة في الاستاد الأولمبي — تكتب رسالة من خمس صفحات إلى محكمة العمل، وتشرح موقفها المتواضع بخصوص الاستفتاء الشعبي، وكيف ورَّطها مكتب الصحة في الأمر. تَلَفَّت نظر المحكمة إلى أن قرار منع إجراء الاستفتاء الذي أصدره مجلس الوزراء في برلين لم يكن قد طُبِعَ بعدُ في الصحيفة الرسمية، وأنه لم يكن ساري المفعول بعد، وبالتالي لا يمكن أن يستند قرار الفصل عليه. تشير إلى أن اللوائح التأديبية التي تنص على الفصل الفوري مُخصَّصة لحالات إدمان الشراب، أو السلوك اللاأخلاقي، أو الانتهاكات التي يُجرِّمها القانون، كما أنها صِيغت في عهد النازية. تؤكد أنها، بصفتها طبيبة، ومن خلال خبرتها العائلية، تؤيد كل التأييد كافَّة القواعد السلمية التي تنظم الحياة بين الناس في المجتمعات، وأنها ليست عضوًا في أي حزب أو تنظيم سياسي. تشكو حُجَب راتبها منذ ثلاثة شهور. إنها مُقتنعة بأن حُجَجها المصاغة في موضوعية سوف تجعل القضاة يخلصونها قريبًا من كوابيس الصراع مع هيدرا.

في المساء، والابنان في الفراش، تُبَيِّض الرسالة، ثم تسمع من «محطة القطاع الأمريكي» نشرة الأخبار التي أعقبت موسيقى باخ: مُصادمات عنيفة قام بها مُشاغبون من «الشبيبة الألمانية الحرة» في كرويتسبرج ونويكولن. بالأنشيد الحماسية قام المشاركون فيما يُسمَّى بمهرجان الشبيبة العالمي بمسيرة في القطاعات الغربية. اعتقال ما يزيد عن المائة. تنتبه

حواسُها على الفور، فهي تعرف ماذا يعني ذلك: الانقسام يستشري، وسوف تتَحَمَّل هي العواقب. المهرجان العالمي الذي يقام هذه الأيام في القطاع الشرقي هو مهرجان البروباجندا بامتياز، على كِلا الجانبين. لم تكد تعير انتباهًا للأمر، فحالتها لا تسمح لها بمتابعة أحوال العالم أو المهرجان أو الشباب، أو الرايات الحمراء والقمصان الزرقاء. ولكن هناك مَنْ يتعاطف مع الشبيبة، يزعمون أنهم مليون تقريبًا، في مدينة الانقراض المقسمة تَجَمَّعوا من أجل السلام والوحدة، ولمنح الدولة الاشتراكية وجهًا شابًا فتياً.

ثم تأتي الأخبار من المحطة الشرقية: بضعة آلاف من الشُّبان المُسلمين لبُّوا دعوة السيد كريسمان، رئيس حي كرويتسبرج في برلين الغربية، وعَبَرُوا — مُقَسِّمين في عدة مجموعات — حدود القطاع وهم يَتَغَنُّون بأناشيد التَّجَوُّل، فحاصرتهم الشرطة وانهالت عليهم بالهراوات وخراطيم المياه، وطرحتهم أرضًا. اعتقال المئات.

حتى منتصف الليل تظل أذنها ملتصقة بالراديو، ومع ذلك لا تستطيع أن تُحدِّد أي الجانبين يكذب أكثر من الآخر. يدَّعي الغرب أن «الشبيبة الألمانية الحرة» قامت بمسيرة بالقمصان الزرقاء وفي مجموعات مُنشدّة الأناشيد الحماسية، مُستفزيين رجال الشرطة. الشرق: الجهات الحكومية الغربية دَعَت المشاركين — ومن بينهم «الشبيبة الألمانية الحرة» — لدخول القطاعات الغربية حتى يَطَّلِعُوا بأنفسهم على الديمقراطية والرِّخاء في الغرب، كان ذلك فخًا من الشرطة. الغرب: لقد استغلَّوا الدعوة وقامُوا بمظاهرات حماسية مُستفزة لإدخال الرعب في قلب الشباب الذي يشعر بالانجذاب إلى الغرب، وذلك عبْر ما أطلقت عليه الجهات في الغرب «الإرهاب الفاشي»، ولكن لماذا يقدم الغرب تلك الصورة المرعبة التي تُتيح للشرق أن يستخدمها في دعايته؟

في الأيام التالية تَتَجَمَّع لديها تفاصيل أكثر. عندما سار الشُّبان عدة مئات من الأمطار في الغرب، رأوا أفراد الشرطة يُحاصرونهم، دون أن يطلب أحد منهم التراجع، ثم انهالوا عليهم بالهراوات، وفتَحُوا خراطيم المياه التي أطاحت بهم أرضًا، ثم لاحقَتهم شاحنات، وتعرَّضوا للتهديد بالمُسَدَّسات إلى أن حوصروا في الشوارع الجانبية؛ حيث تعرَّضوا للضرب المبرح. تم إغلاق خط الرِّجَّة في وجه الهاربين، ثم حاصروهم أفراد الشرطة وواصلوا ضربَهم، على مُقدِّمة الرأس ومُؤخِّرتها، وعلى الظَّهر، وفي الوجَّه، وعلى صدر بعض الفتيات. كثيرون دُهِسوا بالأقدام على البطن والأعضاء التناسلية. أما الذين تهاوَّوا فلم يكن لهم أن يتوقعوا الرأفة. مَنْ تمكَّن من الفرار كان بانتظاره بالقرب من الحدود — كان ذلك يعني في كثير من الأحيان عبور الشارع فحسب — بلطجية في ثياب مدنية انهالوا على الشباب بالحجارة

والزجاجات والأحماض الكاوية. تم استجواب المئات في أقسام الشرطة، عديدون تعرّضوا هناك للضرب عندما لم يُقدّموا معلومات عن قادتهم ومُؤيّلهم. قال لها الزملاء في المستشفيات فيما بعد: أسوأ إصابات منذ الغارات الجوية أثناء الحرب: من بين عدد الجرحى الذين زادوا عن ٤٠٠ كان على ١٣٢ أن يَظَلُّوا في المستشفى لِيَتَلَقَّوا علاجًا. كسور في العظام، كسور في الجمجمة، إصابات في الكلى والبطن، ما يزيد عن خمسين حالة ارتجاج في المخ. إذا كان الشبان العُزَّل الذين يُؤيّدون السلام قد عُومِلوا بهذا الشكل، بينما كانت الصحافة الغربية تُهلِّل مُتحدّثة عن «العقوبة العادلة»، فماذا، إذن، ينتظر طبيبة غاضبة، هي نفسها محل اتهام؟

على المائدة الصغيرة

ما زالت معلوماتي عن «ر» الذي نال البراءة قليلة للغاية. في أيامنا هذه يذهب المرء إلى المكتبات أو يدخل إلى شبكة الإنترنت، وبيعض المَران يجد ما يريد، وخلال ساعة تتجمع لديه على الورق إجابات أكثر مما طرح من أسئلة. اليوم تنهال المعلومات فوق رأس الإنسان. آنذاك كانت أبواب معظم المصاير مُوصدة. واليوم أصبحت كل الموضوعات مادة للبحث العلمي، في حين أن الاهتمام بالماضي النازي كان يثير الشكوك في تلك الفترة، وكان على الإنسان أن يحذر حتى لا تحوم حوله الشبهات باعتباره «ذراع الشرق الطويل». غير أنني لم أجروُ على الذهاب إلى برلين الشرقية بأسئلتني عن «ر»، لم أثق في حُجج «الكتاب البني» البليغة، كما كنتُ أخشى — وبعد أن حذرني بيرمان — من أن أقع في شَرَك جهاز «شتازي». على المرء أن يجمع بشق الأنفس كل جزء صغير من الحقيقة إلى جوار الآخر، وأن يقرأ ما بين سطور منشورات ألمانيا الشرقية.

بعد قضية أوشفيتس كانوا يعتبرون أنفسهم قد فرغوا من الموضوع، موضوع قديم، بائت، يكاد يدخل دائرة التابو مرة أخرى، نادرًا ما تجرأ الصحفيون في الاقتراب من الحالات المثيرة للرأي العام. كان هناك بعض المناضلين الفرديين، مثل إجشتاين على سبيل المثال، ذلك الطالب المتقدم في العمر الذي كنتُ أعرفه معرفة سطحية.

بعد أن اتصلتُ به تليفونيًّا وأخبرته برغبتي في زيارته، ذهبْتُ إليه في شقته التي تطل على فناء خلفي. لم أكد أخلع المعطف حتى بادرنني بالسؤال عن سبب مجيئي. إنه لا يوجه مثل هذه الأسئلة على التليفون — أضاف شارحًا — لأنه متأكد من أنهم يتنصتُون عليه.

سألتُ بخجل: ماذا تعرف؟ ما الأشياء التي جمعتها عن «ر»؟

— فكرة عبقرية. فجأة أصبح الجميع مُهتَمِّين بالموضوع.

لم يعجبني ردُّه، توهَّمت أنني الوحيد الذي يهتم بجمع المعلومات عن القاتل القاضي الذي بُرِّئ. كاد ردُّه يكون إهانة. لقد اصطفيْتُ «ر» ليكون ضحيتي. «ر» ملك لي أنا، وليس لأي أحد آخر.

– كم عدد الذين أبدوا اهتمامًا بأمر «ر» إذن؟ سألتُه عندما اقتربنا من رفوف مكتبته.
– اتَّصل ثلاثة أو أربعة، ولم يأت سوى واحد، مُورِّخ يريد أن يؤلِّف كتابًا عن محكمة الشعب العليا.

– وهل أعطيتَه المواد التي جمعتها؟
– لا، أنا لا أسمح بإعارة المواد خارج المنزل. على المهتمين أن يأتوا إلي، وأن يجلسوا هناك على المائدة الصغيرة.

كنا نقف أمام رفوف تصل حتى السقف وتشغل جدارًا بأكمله، عليها ملفات مكتوب عليها أسماء أشخاص وعناوين موضوعات. أوبرلندر، جايجر، جلوبيكه، شبايدل، فرنكل، كيسينجر، هنا كانوا مُجمِّعين، ومُرتَّبين ترتيبًا أبجديًّا، أشهر الجُناة، النجوم اللامعة بين ما يزيد عن نحو مائتين من الأسماء الأقل شهرة. أصابني الخرس أمام تلك الشاعرية الكئيبة، شاعرية أبجدية المُجرِّمين، وغمَرني شعور بالإعجاب بإجشتاين الذي لم يُخفِ افتخاره بما جمعه.

– لماذا لا تسأل عن راتماير مثلًا، المدَّعي العام في محكمة الشعب العليا، الذي شارَكَ في إصدار ٥٢ حكمًا بالإعدام، والآن يعمل مستشارًا قضائيًّا في محكمة الولاية في بافاريا، وهو مسنود من وزير العدل في ولايته؟ أو عن هوجن، المسئول عن شؤون الجيش؟ أو عن إرنست كانتر؟ ما يزيد عن مائة حُكم بالإعدام، ثم رئيس مجلس القضايا الجنائية السياسية في المحكمة الاتحادية العليا؟ هنا لديك أوسع مجال للاختيار، خلف كل حرف أجمل المفاجآت. لماذا «ر» بالذات؟ على الأقل هناك حفنة من الصحفيين تكتب عنه.

انفعال خفيف في صوته، نبرة تشي باليأس والاستسلام، لم أستطع أن أستشف مدى جدِّيَّته فيما قاله. الشقة المُطلَّة على فناء خلفي كانت مُعتمة، المصابيح تنشر ضوءًا ضئيلًا، بدأ إجشتاين لي أشيب الشعر، رغم أنني كنتُ أعلم أن رأسه لم يشتعل شيئًا بعد. شرحتُ له سبب اهتمامي بـ «ر»، بسبب جروسكورت والحكايات التي تُرافقني منذ الطفولة.

– طيب، طيب يا شاعر! خذ ملف «ر»!
وانحنى وأعطاني الملف، ثم صب لي شايًا.
– كل شيء تجده هنا، كل شيء في متناول يدك.

على المائدة الصغيرة الموضوعة في ركن بعيد رُحْتُ أقرأ قصاصات الصحف ونسخًا من الأحكام التي أصدرها «ر»، وأخرى من رفض النيابة العامة في ميونيخ رفع دعوى ضد «ر». وسط طوفان المستندات غرق سؤالي عن مشاركة «ر» في جرائم القتل. غريب هذا التحمُّس البالغ الذي أبداه القاضي للحكم بالإعدام على القساوسة، ألم يكن ابن قسيس؟ دَوَّنتُ ملاحظاتي، نقلتُ جُملاً وحيثيات، ولم تكد تمض ربع ساعة حتى أصابني إجهاد مُشَل.

وجدتُ في ملف محكمة الشعب العليا اقتباسات مما قاله فرايزلر: إن محكمة الشعب العليا ستبذل دوماً قصارى جهدها لإصدار الأحكام على نحوٍ نعتقد أنك — يا قائدي — كنتَ ستصدر مثلها. ليس بمقدور القاضي اليوم أن يصبح أهلاً للمهام التي تضطلع بها الدولة الاشتراكية القومية إلا إذا تخلَّى عن حياديته. كان هتلر هو الذي يقوم بتعيين كلا القاضيين في محكمة الشعب العليا، إضافةً إلى ثلاثة من النازيين الموثوق بهم. حُجج كافية لإثبات أن محكمة الشعب العليا لم تكن أبداً محكمة عادية، بل أداة سياسية لسحق المعارضة. أدَّى كل القضاة فيها قسم الولاء للـ «فوهرر»، لا للقانون. لماذا لا يريد قضاة محكمة المحلفين الذين برَّءوا «ر» أن يفهموا ذلك؟

كان ذلك كافياً لي، تَجَمَّعتُ لديَّ معلومات وافية. كان إجشتاين يجلس أمامي مائلاً قليلاً إلى مكتبه الضخم، رأيتُه ممسكاً بالمقصد واللاصق وعدة أقلام ملونة، وأمامه كومة من الصحف. تطلعت إلى جبهته العريضة، شحوبه، شعره الأشيب الذي لم يكن أشيب. على هذه الحال تمكن من إقامة أول معرض له بعنوان: «قضاة نازيون بلا عقاب» الذي أقيم عام ١٩٥٩م في مدينة كارلسروه التي كانت وكراً كبيراً للقضاة النازيين في المحكمة الاتحادية العليا. وهكذا حقق الشهرة؛ لأن السُّلطات منعت إقامة المعرض في برلين، كما أن عميد جامعة برلين الحرة منع الطلبة من جُمع توقعيات لتوجيه التماس مهذَّب للبرلمان لفصل القضاة ووكلاء النيابة الذين شاركوا في الإرهاب وإصدار أحكام بالإعدام.

سَمِعْتُهُ وهو يتحدث في التليفون باستعجال، راقبْتُهُ وهو يجمع بسرعة محموعة، يقص، يلصق، يُرتَّب، شعرت بمرارته تزداد بازدياد المعلومات التي يجمعها، المرارة التي يشعر بها حيال دولة تُوظَّف هؤلاء القتلة، وتُسَمَّنُهُم بأفضل الرواتب والمعاشات، رأيت إجشتاين في نشوَّته ويأسه، رأيتُ قدراته وغضبه اللانهائي، وقلْتُ لنفسي وسط أرشيف الذنوب هذا، وب عقل صافٍ أدهشني: لا!

كدت أصرخ بأعلى صوتي. لا! إلى هذا الحد كنتُ حاسماً كي لا أتحول مُنْقَباً في الجرائم المجمعَة للسيد «ر». إذا عملت بدقة أكثر من اللازم — هكذا كنتُ أخشى — ستجلس

عشر سنوات هنا، إياك أن تغدو مثل إجشتاين الذي يعتبره الكل مجنوناً بعض الشيء، لا شيء إلا لأنه لا يُهادن ولا يتهاون. احصر جهدك في هذا الحكم وحده، في جروسكورت وأصدقائه، ألف الكتاب، اضرب ضربتك، ولكن إياك أن تسمي محارباً لطواحين الهواء، مشاكساً لطواحين العدالة يُقابل بالاستهزاء، إياك أن تتحول إلى هرقل قزم، مُنْهَك القوى أمام تلك الزرائب هائلة الاتساع، العفنة منذ الأزل.

كان ذلك أبيض رفضاً لإجشتاين نفسه الذي صب لي الشاي في لطف، وقَدَّم لي النصيحة وتركني أعمل في هدوء. لم أكن أستطيع أن أمضى هكذا ببساطة بعد نصف ساعة وإلا أهُنَّتُهُ. لم أجعله يلاحظ شيئاً مما يعتمل داخلي، واصلتُ القراءة، نقلتُ جُملاً، وشيئاً فشيئاً انزاح الهم والكرب عن صدري؛ لأن سلسلة من التداعيات أدخلتُ السرور إلى نفسي: ذنوب - جهنم - الكوميديا الإلهية - دوائر الجحيم في أرشيف إجشتاين وفي «الكتاب البني» - تعريف الجحيم تعريفاً جديداً - وصف كل العصاة المجتمعمة في «كوميديا إلهية» جديدة، وحرقتهم مثماً فعل دانتي بسبب آثامهم، إذلالهم بأكثر الأفكار شراً - كتاب «كوميديا شيطانية» - أو السُّخرية المرة: لا عقاب للمجرمين على غرار دانتي، بل إرسال النازيين إلى الجنة، وخصومهم إلى جهنم.

كان بإمكانني أن أنهض وأسلم على إجشتاين وأنصرف. لكنني خشيتُ أن أترك لديه انطباعاتاً بالسُّطحيَّة والرخاوة، فظلتُ ساعة أخرى أسجل ملاحظات لهذه «الكوميديا» التي لا تنتهي.

وأخيراً تجرأت على الانصراف، على الرغم من أن إجشتاين صب لي فنجاناً آخر من الشاي. سألتُهُ عما إذا كان هناك ربما مواد أكثر في شرق ألمانيا عن «ر».

- بالتأكيد، ولكن إياك أن تعتقد أنهم سيعطونك شيئاً. إنهم يستخدمون ما لديهم عندما يحتاجونه لشأن سياسي، وعندما يستطيعون توظيفه، ولكن ليس عندما يريد واحد من أمثالنا أن يعرف بعض الحقيقة.

- حتى أنت أيضاً لا تحصل على شيء من هناك؟

- أنا أفضل عدم الاندفاع. عندما يقول الألمان الشرقيون: ما زال فلول النازيين يتمتعون بالوجاهة في مناصبهم؛ أي إن جمهورية ألمانيا الاتحادية دولة فاشية، فإنني لا أشاركهم الرأي. في دولة فاشية ما كان سيُسمح لنا بإقامة المعارض، بل كانوا سيطلقون عليَّ الرصاص من أجل هذا الأرشيف وحده. الوحيد الذي أثق فيه، وهذا شيء أحب أن أردده في فترة حرب فيتنام تحديداً، هو الأمريكي روبرت كمبندر، أنت تعرفه، المدعي العام في نورنبرج.

زاد احترامي لإجشتاين، وتولّد لديّ الشعور بأن عليّ أن أتضامن مع هذا المكافح الفرد، رغم أنني لم أكن أريد ذلك على الإطلاق. كنتُ أود تشجيعه، غير أنني لم أُرِد أن أكون ألطف من اللازم، وإلا كان سيسألني: ألا تريد مساعدتي؟

— وما موضوع عملي الآن؟

— السبب الذي دفع بالمستشار أدناور في ربيع عام ١٩٥١م لإعادة توظيف كل النازيين السابقين، كلهم تقريباً، بل وكفّل لكل منهم الحق في الحصول على وظيفة؛ أي إن الأولوية كانت لمن لديه بطاقة عضوية في الحزب النازي، وقبل كل الآخرين، الديمقراطيين المسيحيين، والاشتراكيين الديمقراطيين بالطبع، وكل الذين لم يرتبطوا بحزب ما. وتعويضاً عن السنوات الست التي فقدوها سُمح لهم — ومن سُمح له بذلك غيرهم؟ — بالحصول على مُستحقّاتهم بأثر رجعي.

كان ذلك أكثر مما أستطيع تحمّله، كان عليّ أن أغادر بأسرع ما يمكن قَبو الظلمات الذي يسكن فيه إجشتاين. ادّعيتُ أنني أخذتُ من وقته الكثير وعطّلته عن العمل طويلاً، وشكرته واعدًا إياه بالمجيء مرة أخرى.

لم أدرك إلا في الخارج، في الشارع، عندما خَفَّ رعبي، معنى ما قاله إجشتاين. في ربيع ١٩٥١م حصل النازيون على عفو شامل، في الوقت نفسه بدءوا في مُلاحقة أشخاص من مجموعات المقاومة مثل أناليزه جروسكورت، لمجرد الاشتباه في وجود ميول يسارية لديهم، أو إذا عارض هؤلاء الأشخاص أيديولوجية الدولة المناهضة للشيوعية. أيّ علاقة تربط بين الأمرين؟ هل كان «أ» ذريعة «ب» أم العكس؟ هل يجب عليّ أن أومن بالمصادفات؟

الجستابو في مطبخ الفلاحين

كان لا بُدَّ من إلقاء القبض عليهما في فيردا، جيورج وأناليزه. في الثالث من سبتمبر وشئ باول هاتشيك بالأسماء. في الرابع من سبتمبر كان البوليس السري قد عرف أنه لن يعثر على آل جروسكورت في برلين، بل في القرية؛ حيث كان يقضي منذ عشرة أيام إجازته لدى أخته لويزه دورينج، وحيث بقي الأطفال أيضًا. أرسلوا ثلاثة موظفين من كاسل في سيارة رسمية عبر الطريق السريع المتَّجه إلى الجنوب، وفي الجيب الرسالة المطبقة التي تضم مواصفات الخائن الأعظم وزوجته. يَمَرِّقون بأقصى سرعة بجانب جبال هيسن، ويفحصون أرقام السيارات التي يسبقونها، فربما يكون المطلوبان على طريق الفرار. ليس هناك كثيرون يمتلكون سيارة خاصة مثل هذا الطبيب الأول. يحيدون في كيرشهاهيم عن الطريق السريع، وبسرعة مجنونة يجتازون طرقات نيدرأولا الواقعة على ضفاف نهر الفولدا، صاعدين المنعطفات حول فيتسلوس، وبيبصرهم يتعقبون من أعلى جبل شتوبل الطريق المؤدِّي إلى شلتسنرود، ثم يَرَوْنَ القرية الهدف الواقعة في المنخفض، والمحاصرة تقريبًا بالغابات، وفي منتصفها برج بصلي الشكل، مَكْسُوٌّ بأحجار الإردواز الرمادية.

أعترف أنني أشعر بالانزعاج في كل مرة أتخيل فيها رجال الجستابو الأفظاظ، وعبيد الصليب المعقوف الآخرين، يمرقون بسياراتهم التي يقودها سائق خاص وسط هذه الطبيعة ذات التلال اللطيفة، بين مراعي الأبقار وحقول القمح المحصود والمنازل الخشبية العريقة. وكأنَّ الرجال الذين يرتدون الأحذية ذات الرقبة الطويلة لا يتناسيون مع المكان، كما لا تتناسب مع تلك الجرائم المنكرة الشنيعة. كان عليَّ أن أدافع عن وهم العالم الجميل البريء في هيسن. أو كأني لا أعرف أن سكان هذه الناحية تحديدًا تَمَيَّزُوا بالجد والاجتهاد الشديد فيما يخص السُّخْرية من جيرانهم اليهود وطُرْدِهِم.

لا فائدة، لن يمكن إيقاف الجستابو، خلف لافتة تحمل اسم المكان يسألون عجوزًا عن مزرعة آل دورينج، ويدورون بسيارتهم حول الكنيسة، ثم يقفون خلف بيت القساوسة، أمام أول بيت من بيوت الفلاحين، بين الحديقة الأمامية وكوم السباح. يظل السائق في الخارج بعد أن تلقى تكليفًا بأن يراقب البيت ومخزن الغلال والطريق المؤدّي من الحديقة إلى منزل الجيران حيث تسكن حماة جروسكورت. يمسك كلٌّ من الشرطيّين الآخرَين بالمسدس المستعد لإطلاق الرصاص، ويدخلان المنزل دون أن يطرَقا الباب، ويسيران حتى يصلّا إلى مطبخ الفلاحين.

يرتدي كل منهما معطفًا جلدًا طويلًا أسود اللون وقبعة عريضة الحافة لم يخلعها أي منهما، يتعمدان أن يكون المسدسان واضحين للعيان. أحدهما ينبّح: من هو جروسكورت؟ العائلة كلها متحلّقة على مائدة العشاء، على الأطباق سلطة البطاطس، كلهم يحملقون، حتى العمال الغريباء. المطبخ مظلم ودافئ، حول الموقد شبكة لصيد الذباب وأسراب من الذباب. الصورة — هكذا قالت شاهدة عيان فيما بعد — لن تستطيع أن تمحوها من ذاكرتك طيلة حياتك: كلا الرجلين بالمعطف الجلدي الطويل الأسود في إطار الباب، سلطة البطاطس اللذيذة بقطع من الخيار وشحم الخنزير على الأطباق، الرائحة الذكية تفوح في الأنوف، أنت ممسك بالشوكة ولا تجرؤ على تناول الطعام، لا تجرؤ أحد على تناول الطعام.

— حان الوقت، أيها السيد الدكتور! ومن هي السيدة الدكتورة؟

يتمالك الأب دورينج نفسه، ويكون أول المتحدّثين: ليسا هنا.

— هه؟ وأين خبأتموهما؟

قال دورينج: سادتي، فلنذهب إلى غرفة المعيشة!

ياكوب دورينج، الذي تقذف به الكوابيس تقريبًا كل ليلة إلى معارك الحرب العالمية الأولى وخنادق القنّاصة، يشغل الآن منصب نائب عمدة القرية، وهو لم يقبل تعيينه قائدًا للفلاحين في المنطقة إلا بعد ممانعة طويلة، حسبما يقولون، فلا بد من أن يتولّى واحد هذه المهمة، كما تم تعيينه رئيسًا للبروباجندا، لكن كل ذلك على الورق فحسب. نازي يمنع أولاده من التلفظ بالعبارات المُعادية للسامية. نازي يثق في زوج ابنته جيورج أكثر من ثقته بالحزب. لا يعترض عندما ترسل زوجته مواد غذائية إلى برلين دون أن يعلم لمن. على الكنب في غرفة المعيشة أطلع جيورج حماه والبارون كامبنهاوزن على عمليات إبادة اليهود والموقف الحربي المتدهور والميثوس منه، الباب مغلق، ليس مسموحًا لأي طفل بأن يتواجد في الممر. قبل أمس قال ياكوب لجيورج وأناليزه: لديكما جواز سفر، اهربا، ما زال هناك

وقت، سافرًا إلى سويسرا، سنعتني نحن بالأطفال. لا، أجاب جيورج، أنا لم أرتكب شرًا. وفي الصباح سافر مع أناليزه إلى ابن عمه في مدينة فايسنهازل بالقرب من ببرا.

– ألم يحن الوقت، يا قائد الفلاحين؟

لا يريد السيدان أن يجلسا.

– إنه زوج ابنتي، لا أستطيع أن أقول عنه شيئًا.

لا يريد السيدان أن يشربا شيئًا.

– إذن فالدور عليك، ألم تسمع أبدًا عن المحسوبة؟

– لقد انطلقا بالأمس، لا أعرف إلى أين، نعم، لقد رحلا فجأة.

– القرية محاصرة، يا قائد الفلاحين، وسنفتش منزلك.

– تفضّلًا، فتشّ يا سادة، ليسا هنا.

– وفي مخزن الغلال؟

– ليسا هناك.

– إذن سنفحص الأمر، ونشعل النيران في مخزنك الجميل، كيف كان حصاد هذا

العام؟

يسير أحدهم ناحية الشباك ويفتح ويهتف للسائق: بوما، ابدأ بمخزن الغلال!

– لقد سافرا صباح اليوم إلى فايسنهازل إلى ابن عمه هاينريش جروسكورت الذي

يمتلك الطاحونة.

– ولماذا لم تقل هذا من البداية؟! ولكن إياك أن تكون كذبت على البوليس السري،

عندئذ سنعود في الليل مرة أخرى، ويمكنك من الآن أن تجهّز فرشاة أسنانك، يا قائد

الفلاحين. ولا تفكر مجرد تفكير في الاتصال تليفونيًا بفايسنهازل، فسراقب تليفونك.

القرية محاصرة، وإذا تسلّلت إلى أي من جيرانك حتى تتصل من عنده، فلن يمر ذلك علينا،

وَقَرَّ تعبك؛ لأن هذا سيكون تقديم المساعدة لارتكاب الخيانة العظمى!

يقفز الرجال إلى السيارة وينطلقون بها، بينما راح ياكوب دورينج يتحسس طريقه

عائدًا إلى المطبخ بوجه أكثر بياضًا من الثلج. لم يتفوّه بكلمة.

حسب رؤية أخرى للحكاية تم تحذير جيورج قبل أيام، أو أنه شعر بأنه مُراقب،

فطلب من آل دورينج بأن يخبئوه عندهم، أو يبحثوا له عن مخبأ. غير أنهم أنفسهم

كانوا يتعرضون لتهديد الجستابو منذ فترة طويلة: إذا ساعدتم هذا الرجل، فهذه

محسوبة؛ ولذلك رفضوا الطلب رغم مخاوف لويزه، ولكن من غير المرجح أن يكون

جيورج جروسكورت أحمق إلى هذا الحد ويبحث عن مخبأ له في قرية نازية بالقرب من أخته وحماته والأطفال. الأرجح أن يفعل ذلك بالقرب من الطاحونة في فايسنهازل.

حسب رؤية ثالثة للحكاية فإن منزل دورينج تم حصاره بالفعل، وتمت مراقبة الطرق المؤدية للقرية. حاول ياكوب دورينج أن يسير عبر الحقول ويحذر نسيبه مستخدماً تليفون الجيران. غير أنه رأى في الظلام الرجال المرتدين الزي الرسمي فتحتّم عليه الرجوع. ولكن من غير المحتمل أن يكون الجستابو قد استخدم مثل هذا العدد الكبير من الأفراد لإلقاء القبض على جروسكورت.

المؤكد أنه في مساء ذلك السبت نبتت بذرة الصدمة النفسية التي أصابت العائلة بأكملها. مساعدة؟ خيانة؟ ماذا يمكن عمله؟ يبدأ الأمر بالطفل رولف البالغ سنتين الذي يتم تفتيشه ونقله إلى كاسل، في الوقت الذي يتم فيه اعتقال والديه على بُعد نحو ٤٠ كيلومتراً في فايسنهازل بالقرب من ببرا. يصرخ الطفل صراخاً فظيماً ولا أحد يهدئ من روعه ساعات طويلة إلى أن تأخذه العمة لويزه والعم ياكوب إلى فراشهما. وبينما كان العم يواصل في كوابيسه معارك الحرب العالمية الأولى، كانت العمة تُحمّل روبرت هافمان ذنب قتل أخيها، وستظل تلعنه في أحلامها حتى وفاتها.

يبدو مؤكداً أيضاً أن لويزه دورينج التي كانت تعيش منذ سنوات في قلق على جيورج، ذهبت إلى خياطة في هونفلد لتقرأ لها الطالع، وكانت دائماً تعود من عندها مستبشرة غاية الاستبشار. ولكن قبل الاعتقال بأسبوع واحد رفضت الخياطة أن تخبر الفلاحة بطالعتها. لم تُبح بالأمر إلا بعد الإعدام: لقد رأيت أخاك ميتاً.

مبدأ الولاء

لا تريد أنأليزه جروسكورت أن يكون لها أي علاقة بالسياسة. لا تريد أن تحيا في حرب مرة أخرى، حرب يصفونها الآن على سبيل التغيير بالباردة. منذ نهاية الحصار تنتقم المصالح الحكومية الغربية من السوفييت لما سببوه من تقسيم وبؤس شديد، ضاربين بيد من حديد على كل الذين لا يعادون الشيوعية. تلتزم السيدة جروسكورت ضبط النفس. تصمت في اليوم التذكاري لضحايا الفاشية، في سبتمبر ١٩٥٠م، عندما تقوم شرطة برلين الغربية، وأغلب أفرادها من بقايا النازيين، بفتح النار على اليهود والشيوعيين الذين كافحوا ضد هتلر. تسمع بأن عصابات من الشبيبة يجري تمويلها من الغرب للقيام بأعمال تخريبية في محطات القطار، أو لإشعال الحرائق في أكشاك الصحف بالقطاع الشرقي، ربما تكون هذه الأنباء بروباغندا. ولكن المؤكد هو ما فعله مجلس الحكومة البرلينية، لقد وصف الاستفتاء الشعبي بأنه **مناورة وفق النموذج النازي**. لم تعد أنأليزه تفهم هذا العالم المقلوب، فتلتزم الصمت. يلقي القبض على شميت، المٌعد المسرحي ورئيس اللجنة، أمام مقر الحكومة البرلينية في حي شونيبرج؛ لأنه يتظاهر ومعه دستور برلين، ويتم التحفظ على الدستور كدليل على ذلك. يتناهى إلى سمعها ما يتعرض إليه أطباء وصحفيون يناضلون من أجل السلام على يد عصابات الشبيبة من اعتداءات وضرب على قارعة الطريق. يُلغون التعويضات التي تُدفع لضحايا النازية، ويمتنعون عن دفعها للناجين من معسكرات التصفية؛ لأنهم شيوعيون أو كانوا شيوعيين، أو من المُفترض أنهم شيوعيون، كل ذلك يثير سخطها، غير أنها تلتزم بضبط النفس.

لا تريد أن تشترك في هذه العداوة الشرق غربية. من لا يلتزم بالخط الرسمي في الشرق، يسوء وضعه؛ ومن لا يلتزم في الغرب بالخط الرسمي، فعليه ألا يتوقع أزمنة وردية. في الشرق تحكم رءوس عنيدة، هناك يرسلون الناس إلى سيبيريا أو إلى السجون،

ولكنهم في الغرب أيضًا يسلكون سلوكًا صارمًا فيما يخص موضوعات الرقابة والعنف والمنع. المعركة مع الشرطة في الخامس عشر من أغسطس بينت لها بوضوح: ليست هي الضحية الوحيدة. إنها تتعرض للانتهاكات القانونية فحسب، بمواد وضعها النازيون في القانون. لكن محكمة العمل، هي متأكدة من ذلك، ستلتزم بمواد القانون لا بالافتراءات.

من لا يشارك في العداوة الشرق غربية، يشعر بوحدة كبيرة. ليس لها حزب يعضد موقفها، لا تريد حزبًا، لا تريد أن تتبع أحدًا. ليس لديها سوى بضعة أصدقاء تحوم حولهم شبهاً بمائلة.

لحسن الحظ هناك روبرت الذي أصبح رجلًا مهمًا. ودّع روبرت الغرب عندما نشر مقالته عن أخطار القنبلة الهيدروجينية التي كتبها وهو مدير لمعهد القيصر فيلهلم. ما زال يحتفظ بشقته الثانية في تسيلندورف. أستاذ في جامعة هومبولت في برلين الشرقية، عالم ذرة، مناضل من أجل السلام ذو شهرة عالمية، دائمًا في الصفوف الأمامية، مشهور، نشيط.

بعد أن مرّت عدة أيام على أحداث الخامس عشر من أغسطس وقف أمام الباب، رجل فارغ الطول، جذاب ودافئ القلب، مُشجّع كعادته. كان يظهر كثيرًا في الـ «ليندن-أليه»، مرةً كمريض، ومرةً ليتبادل الدردشة معها. في هذه المرة — هذا ما تلاحظه فورًا — كان مكلفًا بشيء. يتحدثان عن حادث الاعتداء، تجمعهما الصدمة والخوف من فاشية الشرطة والمصالح الحكومية والقلق بشأن اندلاع حرب جديدة. لم يمر وقت طويل حتى — هكذا أخيل — أثار ارتباكها بالجملة التالية:

— يجب أن نقوم بعمل رمزي.

— أي عمل تقصده؟

— لا بدّ من مقاومة كل ما يحدث. طريقة تعاملهم معك ومع مناهضي الفاشية الشرفاء، لا يمكن أن نبقى صامتين فترة أطول، ولا يمكن أن نقف مكتوفي الأيدي.

ربما تكون أناليزه جاوبته بكلمات مثل هذه:

— ولكنني أدافع عن نفسي. الدعوى تُحقّق تقدّمًا!

— لا بدّ من فعل المزيد. مثلاً أن نفحص بدقة كيف حدث الاعتداء الذي نفّذته الشرطة

في الخامس عشر من أغسطس، بكل التفاصيل، علينا أن نحدد المذنبين، المسؤولين، وأن ننشر أسماء الجناة على الرأي العام.

— وكيف؟

- ربما يكون روبرت أجابها على النحو التالي تقريباً:
- سنؤسس لجنة لتقصي الحقائق، لرفع أسباب الظلم عنك وكشف المؤامرات الفاشية في برلين الغربية. أعتقد أننا بحاجة إلى رمز، إلى تقاليد راسخة، شخصية قيادية، اسم أحد مناهضي الفاشية المثاليين، ولهذا أرجو أن تمنحنا موافقتك على أن نطلق اسم جيورج على اللجنة، «الاتحاد الأوروبي»، حركة المقاومة التي أسسناها، اعذريني عندما أقول ذلك، طواها النسيان تماماً، وباسم جيورج يمكننا إحياء صراعه ضد الفاشية والحرب وإبقاء ذكره حياً؛ إنني متأكد من أن هذا يتناسب مع مبادئه.
- تشعر دوماً بالضعف عندما يتعلق الأمر بجيورج، هذا ما يعلمه روبرت.
- نعم، قالت بلا صوت تقريباً، إنه يتناسب مع مبادئه.
- وأنت، أشهر ضحايا الفاشية الجديدة في برلين الغربية، لن تكوني بالطبع بعيدة عن هذه اللجنة. ولذلك نرجو أن تعلمي معنا، وأن توجَّهي نداءاً للرأي العام باعتبارك أرملة جيورج.
- يجاملها روبرت، إنه يعبدها عبادة، تشعر بذلك. لقد غزا قلوب نساء عديدات، تعرف ذلك، والآن هو متزوج، ولكن عليها – مع ذلك – الحذر.
- أنت تعلم يا روبرت، ليست هذه طريقتي. بعد غدٍ لدي موعد في المحكمة، ولا بد من أن أنهي قضيتي أولاً.
- بالتأكيد، ولكن بعد أن فصلت، وبعد القضية، لم تعودني على الحياء، لقد غدوت شخصية عامة منذ فترة طويلة.
- لا أريد أن أدخل حزبكم، كنتُ وسأظل بعيدة عن الأحزاب.
- إننا نُقدِّرك بالذات؛ لأنك لستِ في الحزب.
- لا تستخف بي يا روبرت!
- في الحادي والعشرين من أغسطس سار كل شيء بسرعة شديدة في محكمة العمل الواقعة في «بالسبرجر شتراسه». راحت السيدة جروسكورت تشرح – بدون محام – الانتهاكات الثمانية الواضحة للقانون والدستور. تؤكد على أن البند الثاني من المادة رقم ١ من اللوائح التأديبية لم يُطبَّق حتى الآن إلا على مُدمني الشراب والعاهرات والمُجرمين، ولم يُطبَّق حتى الآن لأسباب سياسية أبداً.
- أكد ممثل إدارة الحي أنهم لم يتدخلوا إلا بسبب ما نشرته صحيفة «تاجيس-شبيجل» في الأول من مايو عن «فرع الشيوعيين في برلين الغربية». ثم كان عقد المؤتمر الصحفي

هو البذرة التي زرعها الطبية للقضاء لاحقًا على ربِّ عملها. هذا أمر لا يمكن قبوله، أن تُهدد ربَّ عملها؛ ولذلك فهي غير جديرة بممارسة عملها، كما أنها انتهكت مبدأً أساسيًا، وهو مبدأ الولاء، فتوجب فصلها بدون إنذار.

بعد خبرتها السيئة مع فرايزلر كانت تأمل أن تلاقي قاضيًا طيبًا يتصرف كأب. ولكن هذا الرئيس الشاحب، المريض بالمعدة، لا يبدو أنه يُصغي إلى الحجج، أو أن انتهاك القوانين والرعب الذي تلاقيه من المكالمات التليفونية قد يثير سخطه، لا يبدو أنه يدرك فقرها، ناهيك عن مصيرها.

تحتاج المحكمة إلى مزيد من المداوَلات، كما أنها تريد الاستماع إلى إفادات شهود جدد، ولذلك تُحدد يوم التاسع من أكتوبر موعدًا للجلسة القادمة.

سبعة أسابيع! أي شهود إذن؟ لا تستطيع أن تفهم الأمر، تشعر وكأن الديمقراطية قد لفظتها من فمها، وكأن الحرية تسخر منها، وكأن القانون يهزأ بها. ولكن واحدة مثلك، تقول لنفسها، لا تستسلم.

بعد ثلاثة أيام يحضر روبرت مرة أخرى. تسمعه يتحدث، تعرف عباراته، ولا تستطيع سوى الإيمان بنعم.

— أنا أشعر بالسخط. من غير اللائق أن يعاملوك هكذا. هذه فضيحة. ولكن هذا هو ما يتوقعه المرء! إنهم يريدون أن يصنعوا منك عِبرة لمن يعتبر. تمامًا كما فعلوا يوم الخامس عشر من أغسطس. أساليب فاشية. إنهم لا يطردون المُعد المسرحي شमित من مسرح شيلر، وهو الرجل الذي قضى الحرب صائدًا للدبابات، لا يفعلون ذلك، لكنهم يقلونك أنت، المرأة، أرملة رجل المقاومة. ولماذا؟ لأنك تذكرينهم، يا أناليزه، بأن هناك من لم يصرخ مثل غيره بالعبارات النازية، بأن هناك من اعترض، لذلك يحاولون القضاء عليك.

— اسكت، يا روبرت، اسكت.

راح يرسم لها الحياة الأفضل في دولة بلا نازيين. إنه يحترم قرارها بالبقاء في الغرب، ومع ذلك، عليها أن تصدر قرارها، حتى بدون الانتقال إلى الشرق. يسحب من جيبه — وهو شيء لا يدهشها — نداء لإنشاء لجنة باسم جروسكورت. تجد الأسباب مقنعة، والنص لا غبار عليه. لا تستطيع الوقوف مكتوفة الأيدي، هذا شيء تدركه. إنها تفعل شيئًا لصالح جيورج، حتى لا يُمسي موته بلا طائل. عليها ألا تفكر في نفسها فحسب. روبرت لديه حق، وهو دائمًا لديه حق، وبوضوح تسمع صوت جيورج يقول: ستقومين بالأمر على خير وجه، لا تَيْئسي أبدًا. فَكْري فيما كنتُ سأفعل.

تُوقَّع، وبعد عدة أيام كان بإمكان الناس أن يَقرءُوا في «برلينر تسايتونج»:

أيها البرلينيّات والبرلينيّون! في يوم الخامس عشر من أغسطس من عام ١٩٥١م، تم الاعتداء على عديد من المشاركين الشباب في المهرجان العالمي، وذلك عندما كانوا في برلين الغربية يتظاهرون من أجل السلام والصداقة ويَتَغَنُّون بأغاني السلام. حدث هذا أمام أعين شبّية العالم كله وهو ما يُعتَبَر عارًا كبيرًا بالنسبة لمدينتنا.

ولهذا فإنني أرى أن علينا التحقيق فيما حدث، وعلينا تقديم الدّعم للجرّحي والمُعْتَقَلين. ولهذا اتّوجّه إلى كل أهالي برلين الشرقية والغربية، وبصورة خاصّة إلى الشخصيات العامة، وأرجو منهم أن يعلنوا موقفهم مما حدث، وأن يقوم الشهود والضحايا بكتابة تقارير عما حدث. لقد فقدتُ زوجي — الذي أُعدم عام ١٩٤٤م — بسبب الإرهاب الفاشي، ولهذا أعتقد أن علينا ألا نسمح بتكرار مثل هذه الأحداث، ومواجهة الأمر بكل حسم منذ البداية.

هل تجاوزتُ أناليزه جروسكورت الحد؟ هل سمحتُ للآخرين بأن يستخدموها وسيلة لأغراضهم؟ هل كانت ساذجة؟ أم أنها كانت تتصرف وفق مبدئها: الاهتمام بالآخرين أكثر من الاهتمام بالذات؟

قهوة وجاتوه وآباء

لم يَعدُ الأصدقاء يذهبون للتمشية معًا. ابنًا المدينة كأننا مُنهمكين في الدراسة، لم تُتَحَ لهما الفرصة لرؤية بعضهما البعض إلا نادرًا، في مطعم الجامعة مثلًا، أو في الحانات، أو في شقق الطلبة في الدور الأرضي. ولكن عندما يتحدثان، كأننا يواصلان الكلام عن الرأس المقطوع، دون استخدام كلمة رأس أو مقطوع، وكأنهما لا يزالان يسيران بين الحقول في فيردا. حتى عندما جلسًا لتناول القهوة وجاتوه التفاح لدى حلواني «كامان» في «كايزردم».

– أترى، ثمانية أسابيع، ولم يَعدَ أحد يتذكّر القاضي النازي.

– قبل نهاية العام نُشِرت مجلة «شبيجل» مقالة عن السيد «ر» وقضاته، ومؤخرًا.

– مع ذلك، الموضوع يتوارى، مثل أي فضيحة.

– في مارس سيصدر الحكم، ثم ...

– هه! فَقَط إذا اهتمنا، نحن الطلبة، بالقضية اهتمامًا فعليًا، باعتبارها نموذجًا،

عندئذٍ ربما نصل إلى شيء، لا يكفي أن نقوم بمُظاهرة يتيمة يفرضها الواجب. لا بُدَّ من أن يظل «ر» موضوعًا دائمًا. ولكن منذ أن بدأ زملاؤنا الأعزاء يهتمون بالسياسية اهتمامًا مفرطًا، ومنذ أن تحوّلوا إلى «رفاق»، لم يعد بالإمكان الاعتماد عليهم.

لقد ظلَّ طفلُ المدينة طفلَ المدينة، واضحًا، بلا أوهام، دارسًا أسرار النفس. طفل القرية لم يتحوّل بعدُ إلى ابن حقيقي للمدينة، ما زال مثاليًا، مدافعًا، حالمًا. في المقهى المكسوة جدرانه إلى ارتفاع متر بالخشب البني الفاتح، ذي المقاعد الوثيرة الحمراء، كان الطفل يفكّر إذا ما كان سيصبح يومًا طفل مدينة حقيقيًا، لو كان نشأ هنا مثل الصديق الذي كان يسكن في مُقابل المقهى تقريبًا، على ناصية «كايزردم» و«فيتسليبن-بلاتس». في الدور الأرضي مطعم برليني قديم يقدم فُخْدة الخنزير المُشوَّية، «فستفالن-كلاوزه»،

وفي الطابق الثاني تقَعُ الشقة الصغيرة المُطلّة على بحيرة ليتسن، والتي تضم مسكن آل جروسكورت مع العيادة.

قال طفل القرية مدّعياً: الاحتجاجات والمظاهرات ليست واجباً بغيضاً، بل هي مفيدة للمجتمع.

– هه! إن العنف هو الذي يسيطر الآن على كل شيء، والعنف يدمر كل شيء.

– ولكنها مجرد أقلية!

كان الهدوء المريح يُخَيِّم على المقهى الذي احتفظ بأجواء الخمسينيات، المسيطرة هنا نادلة لطيفة ومَرَحَة، هي سيدة الفطائر وفناجين القهوة والمَلل. ليس هذا مكاناً للمتوترين، إنه يقع خارج المعارك والمناوشات، واحة سلام في المدينة التي تغلي بالرغبة في مُعادة الآخرين. السياسة والشرطة والصحافة تُعادي الطلبة، ومعظم الطلبة يُعادون الأساتذة والسياسة والشرطة والصحافة. أقلية من الطلبة تميل للعنف ضد أغلبية الطلبة المسالمين، وكِلَا التيارين مُتَّحِد ضد أقلية الطلبة غير المُبالين بالسياسة. الأساتذة الجامعيون ضد الشرطة، والصحفيون ضد الساسة، والعكس صحيح، الأساتذة ضد الأساتذة، الساسة ضد الساسة، وهكذا دواليك، جبهات في كل مكان.

لم يكن مظهر الصّديقين طَوِيلِي الشعر يشبه زعيم الطلبة دوتشكه الذي نال رصاصة في الرأس، ولا شبيهاً بأي من الشياطين الآخرين، لم يكن عليهما أن يَشْعُرَا بالخشية من أن يهاجمهما المُسنُون الذين يُحَلِّقُون في سموات الجاتوه، أو مندوبو المبيعات الذين يَمُرُّون بأقلامهم الرصاص على صفوف من الأرقام، أو الأزواج المُتَشَاكِرين مع زوجاتهم. مع ذلك كان عليهما الحيطة. كانا يجلسان إلى مائدة في الزاوية، ويتحدثان بصوت خافت. كانت الأجواء المنتشرة في المدينة هيسستيرية، البحث عن عداوة، التقارير الصحفية عن الجبهات المُخْتَلِفة تفيض بالسم، ولهذا فإن الاثنين لم يكونا ليلفتا النظر بمفرداتهم السياسية المثيرة. كان طفل المدينة يرى أن الأقلية تحديداً هي التي تدمر الأغلبية. إن بضعة عشرات من الناس يُلقون بالأحجار يَكْفُون تماماً لكي يَدْفِن عشرات الآلاف غيرهم آمالهم في التغيير. إن الهَذَيَان الذين يُرَدِّدُونَه عن الثورة أمر لا يثير إلا السخرية. منذ أن توفي دوتشكه والفوضى هي سيدة الموقف، وقد كان دوتشكه فوضوياً بما فيه الكفاية. الآن أصبح العنف «موضة»، كل من هب ودب من الطلبة الجدد يريد أن يكافح ضد رجال الشرطة، وأن يقفز فوق الحواجز، وأن ينتصر على الدولة. غدت «المعارضة خارج البرلمان» منقسمة على نفسها، لقد لفظت بالأحرى أنفاسها الأخيرة. وخلال عام أو عامين ستكون قد فقدت كل سحرها.

رغم الكلمات المثيرة الخطيرة ظل الهدوء سائدًا على الموائد الأخرى. هناك بدت كل الحواس مُتوجّهة إلى الجاتوه والطقس، وكل الشكاوى مُنصبّة على الذهاب إلى الأطباء وطوابير الانتظار أمام مكاتب البريد. في لحظة هدوء تَرَدّد عبْر الغرفة صدى جملة قالتها عجوز لابنها أشيب الشعر، بصوت عالٍ وفي لهجة اتهام: أنت لا تريد بالتأكيد أن تقف وحَدَك أمام قبري بعد موتي!

النظرات الشريرة صُوِّبَت الآن إلى العجوز، لا إلينا. ثم تساءل طفل القرية بصوت خافت:

– أنت على حق، للأسف. ولكن ماذا نفعل حتى نجعل «ر» موضوعًا يحتل صدارة الاهتمام الدائم؟

– نحن الاثنين، لا شيء مُطلقًا.

– على الأقل كانت النتيجة أنني استطعت أن أتحدث مع والدتك عن أبيك، وأن أكتب حكايتكم.

– طيب. وكم قارئًا يقرأ القصائد؟

– ألفان، ثلاثة آلاف.

– أترى؟ ولن تستطيع أن تبيع من كتابك عن أبي أكثر من ذلك. ولكن إذا كتبت عن أشهر مرضاه، عن هيس النازي المجنون في سجن شبانداو، أصدق أصدقاء هتلر، عندئذٍ ستبيع بكل سهولة مائة ألف نسخة أو أكثر.

– هناك طلب دائم على المجرمين، والكتابة عن الشر أرخص الفنون. أعرف أن الناس لا تحتفي بالأبطال الصامتين، ولكن ربما يبدؤون في الاهتمام بهم.

– متفائل!

– يا لك من متشائم عريق يا أكسل!

– كلاً، أنا واقعي يا عزيزي.

كان على أكسل الذهاب إلى طبيب العيون، وأنا لم أعد أستطيع طرد الظنون المبهمة: لقد كان والده ثاقب النظر سياسيًا، لقد كافح، لكن ذلك لم يُعْده في شيء. كان شجاعًا، فعاقبه الجبناء. أنقذ ملاحقين من الموت، فدفع بحياته الثمن. كان شريفًا، وهو ما ساقه إلى الجلاد وأثار عليه المُحرّضين حتى اليوم. أما والدته أكسل، فمن أجل بضعة كلمات عن السلام ظلّت طوال عشرين عامًا منبوذة تُعامل مثلما عُوْمِلَت الساحرات في عصور محاكم التفتيش. ليس غريبًا إذن أن يكون أكسل مستسلمًا.

كِلَانَا كَانَ يَدْرِكُ هَذَا الْمَنْطِقَ، لَكِنَّا كُنَّا عَاجِزِينَ عَنِ التَّحَدُّثِ عَنْهُ. بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ صَبَبْنَا
جَامَ غَضَبِنَا أَثْنَاءَ الْخُرُوجِ مِنَ الْمَقْهَى عَلَى آكِلِي الْجَاتُوهِ، مُطْلِقِينَ تَكْهَنَاتِنَا بِشَأْنِ النِّسْبَةِ
الْمُتَوَيَّةِ مِنْ زُورِ الْمَقْهَى الْمُتَقَاعِدِينَ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ ثَلَاثِينَ عَامًا يُهْلَلُونَ لِهَيْتَلِرِ.

الرغبة في الطيران

ودَّعْنَا بعضنا البعض، غير أن الحديث الذي انقطع تواصل، وتوقَّفتُ وسط الـ «كايزر دم»، بين الحلواني ومُتَنَزَّه بحيرة ليتسن، وقد أفزعني ما أدركته وما كنتُ أقاومه بكل قواي: إننا لا نستطيع الهرب من الآباء أبدًا، حتى لو كانوا قد لفظوا آخر أنفاسهم منذ سنوات طويلة. إنهم يحكمون مشاعرنا، بل وحتى قناعاتنا السياسية ومُثُلنا. كان والد أكلش ناشطًا، أكلش لا يريد أن ينشط سياسيًا. والدي كان سلبياً، وأنا لا أريد أن أكون سلبياً.

انزلتُ النظرة على الشارع العريض الممتد في غير نهاية الذي يسع لأربع سيارات على كل ناحية، وعلى جانبيه رصيفان سَخِيَّان مُحَاطَان بالأشجار وعواميد النور الضخمة. يصل المرء إلى الشرق إذا سار إلى الأمام. رأيت المارة الذين يبعدون عدة كيلومترات، والسيارات التي تتباعد حتى تنكمش إلى نقاط. كان الطقس باردًا نقيًا، لا قذارة في الهواء تعوق المرء على إرسال البصر بعيدًا. خلف «عمود النصر»، في الضباب المضيء الذي يحيط ببوابة براندنبورج، حاولت أن أستشف البرج المستطيل للمبنى الأحمر الذي تستقر فيه إدارة الحكم في برلين الشرقية، في وسط المدينة سابقًا.

وبينما كنت أقف وسط الطريق بين السيارات، مستسلمًا طوال دقيقتين أو ثلاث لرومانسية النظرة المستقيمة التي انزلت فوق كل الحقب ووحدت بطريقة ممنوعة الشرق مع الغرب، والعصر البروسي مع العهد النازي مع هذا الحاضر الملعون الملتبس، في تلك اللحظة — وأنا حبيس هذه النظرة — تَغَلَّغَنِي شعور جديد ما زال فجًّا، شعور بالحرية: لا تُلْقِي بالذنب على الآباء، فإنك لن تقدر على تغييرهم، لن تقدر على تغيير التاريخ الألماني الهمجى، لن تستطيع إلغائه أبدًا، أو أن تصححه بعملية قتل غريبة. أكلش مُحِقٌّ، هكذا فَكَّرْتُ، إنه للأسف مُحِقٌّ في معظم الأحيان، إنه مُحِقٌّ أيضًا فيما يخص العنف، أحدث صيحات الموضة، وسيبقى موضة لفترةٍ ما؛ لأن العنف يعوض عن شيء. إنه الصراع

ضد الآباء الذي يدفع الشباب إلى أن يُحطّموا الجدار برءوسهم. قبل عام ربما كانوا سيُعتبرون فعلتي فعلة جيدة، ولكن اليوم؟ لأن كثيرين يَتَمَادُون في العنف، لن يرى أحد فيما سأقوم به غير العنف العاري المُوجّه إلى «ر»، ولن يَرَوْا الحملة ضد «ر»؛ وكل الذين ثاروا آنذاك، الصحفيون والسياسيون ورجال القانون والطلبة، كلهم سينظرون إلى جريمة القتل باعتبارها مواصلةً لعمليات حَرْق المتاجر والمركبة التي نَشَبَتْ في طريق تيجل، سيُعتبرونها جريمة شخص يسير مع التيار، أو ثأراً لدوتشكه، ثلاث رصاصات متماشية مع الموضة الحديثة، الإمساك بالسلاح وتصويبه ضد أحد مستشاري المحكمة، ولن ينظروا إلى الأمر باعتباره رد فعل إنسانياً بسيطاً على إطلاق سراح أحد الشركاء في قتل والد صديقي.

كنت أقف وسط «الكايذرْدَم» عند المنزل الذي يضم شقة آل جروسكورت، وخلفي، على مَبْعَدَةٍ ليست كبيرة، يقع شارعان، هما «أهورن-أليه» و«ليندن-أليه»، حيث كانوا يعيشون، وهناك أيضاً «مازورين-أليه» حيث كانت أُناليزه تعمل طبيبة في دار الإذاعة، كنتُ أقف على مسرح أحداث الكتاب الذي أخطط له، وفجأةً شعرتُ بالخجل، خجلتُ من القتل الذي أنوي ارتكابه، من أنانية خططي. وشعرتُ بالخوف، لأول مرة ظهر هذا الخوف، فربما أُعرض صداقتي مع أكسل للخطر وأفقد مودة أُناليزه جروسكورت. ماذا إذا جاءوا وقالوا: لا يتوافق مع مبادئنا أن تقتل ذلك النذل الجبان، لم يكن جيورج ليوافق على ذلك وهو الذي ضحّى بنفسه من أجل حياة تخلص من الكراهية. إذا كان من حق أحد أن يقوم بذلك — هذه الخاطرة عبّرتُ خيالي — فمن حق أكسل ورولف. ليس من واجبك أن تحمل هذا العبء عنهما، إن خطة القتل التي تنوي تنفيذها متطاولة، وسيفهمها الجميع على نحو خاطئ، وفي النهاية ستكون قد دمرت الصداقة إلى الأبد.

كانت السيارات تمرق هادرةً إلى يميني ويساري. أحسستُ بأنني قد تخفّفتُ من ثقل، نعم، لن يزيد القتل عن عملية محاكاة، عملية رجعية، بل ربما خيانة للصديق. دَعُك من هذا! تصرّفتُ مع نفسي على نحو سُلطوي، شاعراً بالحرية والتسامي، بعد أن تَلَقَّيتُ الأمر الصارم: دعك من هذا! وقفتُ فوق الهضبة، وألقيتُ نظرة على الوادي: افرح لأنك لست قاتلاً! لقد أهدتك السيدة جروسكورت آنذاك كتاب نيلس هولجرسون كي تمنحك العزاء، والآن عليك إهداؤها الكتاب، هكذا فكَرْتُ، كتابها، وعليك ألا تلتطخه بجريمة قتل.

اكتسب الخيال أجنحة، ورأيتُ نفسي أطيّر مثل نيلس هولجرسون، ولكن ليس في اتجاه إوزة برية أو طائر آخر، بل رحْتُ أطيّر لرغبتني في الطيران مدفوعاً بقوة غير منظورة، ماراً

بكل الصعاب والمُضايقات، نازلًا «الكايزر دَم»، و«بسمارك-شتراسه»، ثم شارع «السابع عشر من يونيو»، عابرًا «أونت-دين-ليندن»، فوق كل الفروقات والأسوار والحروب، ثم عائداً إلى ساحة الانطلاق والهبوط، «الكايزر دَم» في وسط الطريق، إلى أن نضج قراري: أن أنسى القتل، وأن أستنفد كل طاقتي في الكتاب، والكتاب وحده.

الضوء، أو جورينج مرتدياً زي «بابا نويل»

الرجل الثالث في الاتحاد الأوروبي، هربرت ريشتر، ابن أحد الرّسامين الفاشلين، كان يعاني منذ طفولته من الربو. عرف اليؤس منذ نعومة أظفاره، لكنه يتعلم من لاوتسي: ابحت عن الخير دوماً داخل الإنسان! درس العمارة، ثم تعرّف إلى هاينريش فوجلر، وانتقل إلى برلين، ووصل بمشاريعه المعمارية إلى مكتب هانز بولتسيج الشهير. «كل هذه الخطط الجريئة تخرج من شاب مثلك.» قال له، «عليك بالاستفادة من خيالك الفوّار.» وقام بالوساطة ليعمل مهندساً معمارياً ومستشاراً فنياً في شركة «أوفا» للإنتاج السينمائي. قام الشاب بتصميم الديكور لفيلم «دكتور مابوزه»، و«سندريلا»، أفلام قام ببطولتها أستا نيلسن، وفرنر كراوس، وباول فيجنر. وفي فترة التضخم أخفق في تأسيس شركة للإنتاج السينمائي، فعمل مهندساً استشارياً لمدينة برلين، في المعارض ولدى شركة «بيفاج» لتقنيات الضوء، كما قام بتصميم النظام الجديد للأنواء في حديقة الحيوان. الاختراق المهني يحققه عبر معرض «التغذية» عام ١٩٢٨م، يُوظف آنذاك عدة أشخاص لديه، من بينهم هاينريش فوجلر، ويصمم معارض أخرى، ويصنع دمي حديثة مضيئة تقدم أفكاراً جديدة للأوبرات الموسيقية الضوئية: «حلمي القديم هو الضوء، الضوء، الضوء.» واحد كهذا يرتكبّ الخيانة العظمى؟

في عام ١٩٣٣م تجد الشركة لديه منشورات ماركسية، ولكن تهمة الاتصال بالشيوعيين لا يتم إثباتها. يشارك ريشتر في عام تولي هتلر السلطة في معرض بعنوان: «الشعب الألماني، العمل الألماني»، ويظل يعمل مصمماً لقطاعي الصناعة والحرف اليدوية، وفي عام الدورة الأولمبية يشارك في معارض عن ألمانيا وعن الصيد. يسأله أحد شركائه في العمل إذا كان

يريد تنظيم الحفل الذي يقيمه هرمان جورينج لتوزيع الهدايا على الأطفال بمناسبة عيد ميلاد المسيح. يتولى ريشتر إذن التصميم المعماري للحفل، وينظم البرنامج، ويحدد الهدايا التي يحصل على معظمها مجاناً نظراً لعلاقاته الجيدة مع قطاعي الصناعة والحرف اليدوية. الكل يتبرع عن طيب خاطر لرئيس الوزراء ومارشال الرايخ المحبوب. لمدة سبع سنوات، حتى عام ١٩٤٢م، يقدم ريشتر مساعدته لجورينج حتى يظهر في صورة بابا نويل الطيب في أكمل صورة. عام ١٩٣٩م يقوم بالتصميم الهندسي والفني لعيد «الصيد الدولي» الذي نُظم في مزرعة جورينج في كارينهاال. واحد كهذا تُرفع ضده قضية بتهمة تقديم التسهيلات للعدو؟

أهم من الدعوات التي كان يتلقاها إلى عيد ميلاد جورينج، وأهم من معارض الصيد والفن (الحيوانات البرية في صور) هي الصداقة التي كانت تربطه بمساعد جورينج الشخصي، القائد الأعلى لقوات الصاعقة النازية جورنيرت. كان رئيس الخبّازين في الرايخ، جروسر، أحد أصدقائه المقربين، وهكذا ارتقى هربرت ريشتر السُّلم، وأضحى وسيطاً بين قطاع الحرف اليدوية في ألمانيا وآل جورينج. كان وسيطاً و«رجل لوبي» ناجحاً، استطاع خلال أيام قليلة أن يحث جورينج على قبول لقب الرئيس الفخري للحرف الألمانية، وهو ما ضمن للحرف اليدوية في ألمانيا استقلالية ما أمام جبهة العمال الألمان. يُكافئ ريشتر على صنيعه ويحصل على النيشان الفخري الذهبي. رءوساء الحرف يقدمون الرشاوى لجورنيرت، مساعد جورينج الشخصي، ويقوم ريشتر بتنظيم ذلك. في الشرق الذي تم غزوه تنشأ شركات للأخشاب يؤسّسها مُمثلو الحرف، ومصلحة التخطيط، يقوم ريشتر بالوساطة ويحصل على مكافآت. واحد مثل هذا يساعد اليهود على الاختباء ويؤمنهم بالمواد الغذائية؟

في كافيتريا مصلحة التخطيط التابعة لقطاع الحرف اليدوية يتم بيع بضائع فاخرة لا تصل إليها يد في تلك الفترة، من الواضح أنها من هولندا، زبدة وكاكو، ثمن الكيلو ١١٦ ماركا، وكيلو الجبن مقابل ٦٦ ماركا. ريشتر أيضاً يتسوّق هنا، ويعطي أصدقاءه في بعض الأحيان من هذا الشيء أو ذاك. الزبد عملة نفيسة في السوق السوداء. واحد كهذا يصبح أحد مؤسّسي الاتحاد الأوروبي ويحصل على الاسم المستعار «ميلر»؟

بعد مرور ثلاث سنوات على اندلاع الحرب يقوم بتجهيز معرض للمرة الأخيرة، «زهور الصيف على برج البث الإذاعي»، بعد ذلك لا يكون هناك مجال للبناء، بل للهدم والأنقاض. في صيف ١٩٤٢م أوكلت رابطة الحرف اليدوية هربرت ريشتر لكي يجري مُفاوَضات

مع المصالح الحكومية لإزالة آثار الدمار الذي ألحقته القنابل، في صيف ١٩٤٣م يتم توظيفه. يسافر عبر ربوع الرايخ، يُقدّم الاقتراحات الخاصة بإزالة الانقاض، ويُنظّم أماكن لمبيت الحرفيين القادمين من خارج المنطقة وسُبل تقديم الطعام لهم. غير أن نقل الركاب والأنقاض يُصاب بالشلل من جرّاء نقص القوى العاملة والسيارات والوقود. يقوم ريشتر بالوساطة لحث المسؤولين الألمان في النقابات الحرفية المحلية على تقديم يد العون. وواحد كهذا يطبع في شقته منشورات؟ ويتناقش مع الأصدقاء، بل ومع العمال الأجانب، عن إسقاط النازيين؟

في ملخص حياته الذي ألفه في الحبس، يتحدث ريشتر عن حبين كبيرين لم يقدر لهما السعادة، وذلك قبل أن يتزوج عام ١٩٣٩م بماريا كلوتس. ويشكو من «الحرب التعيسة» وشقته التي أصابها إحدى القنابل ودمّرتها عام ١٩٤٠م. يرزق بطفل، وتنتقل زوجته مع الابن بسبب القنابل إلى بيت صيفي على بحيرة شارموتسه، بينما واصل هو رحلاته عبر ربوع الرايخ كي يسجل أضرار القنابل.

ترتبط الصداقة بينه وبين رينتس ابتداءً من عام ١٩٣٧م، ثم بدءاً من عام ١٩٤٠م مع جروسكورت وهافمان. لم يتحدث أمام الجستابو عن أي من الأصدقاء بمثل هذا الود والحب كما تحدّث عن جروسكورت: «يتمتع د. جروسكورت بقدرات ذهنية عالية جداً. إنني أعتبره واحداً من أهم أطباء المستقبل. إلى ذلك فإن د. «ج» رجل اجتماعي لطيف المعشر ومُتعدّد الاهتمامات إلى أقصى حد، رجل يقف بكلّتا قدميه على أرض الحياة، ويشارك مشاركة كبيرة في كافة الاهتمامات الحيوية لشعبنا. ولكانته المهنية الممتازة تُتاح له فرصة الاختلاط بكافة طبقات الشعب، وبذلك أصبح بمقدوره أن يطلع على حياة أسمى الطبقات وأدناها. إن الدكتور جروسكورت حريص، إنساناً وطبيباً، على تقديم يد العون كلما كان هناك احتياج إلى ذلك، وكلما استطاع إلى ذلك سبيلاً. من هذا المنظور أرى جهوده التي قدمها لليهوديين شفيهن وميخائيلوفيتش كتعبير عن طيبة قلبه، ولا أعتقد أنه كان يريد الوصول إلى هدف سياسي من وراء ذلك. إنني أعرف أن د. جروسكورت قد عالَج مرضى مُعوّزين ولم يطلب منهم نقوداً في يوم من الأيام. كما أنه قدم لهؤلاء المرضى أدوية مجانية. إن د. «ج» إنسان مثالي بالفعل، وصفاته الاجتماعية هي بالفعل نموذجية.»

كم رأساً للأفعى؟

عينا روبرت جميلتان، غير أنهما يَشَيان برجاء أيضاً. هل من الممكن أن تلتحق أناليزه بـ «لجنة جروسكورت لحماية الحقوق الديمقراطية وللدفاع عن الوطنيين في برلين الغربية» — يبلغ العنوان هذا الطول — عضواً في الرئاسة إلى جانب اثنين من الأساتذة الجامعيين المرموقين؟ مجرد شكليات، يقول روبرت: ليس هناك عمل تقومين به هناك، ولكن من الأفضل أمام الرأي العام أن تنضمي إلينا رسمياً باعتبارك أرملة جيورج.

لم تعرف أناليزه أبداً على وجه الدقة مَنْ أسَّس هذه اللجنة، هل هو روبرت نفسه أم حزبه، وَمَنْ شَكَّلها وَمَنْ يقودها؟ روبرت مُتَوَحِّد مع الحزب، والحزب مُتَوَحِّد معه. في بعض الأحيان تحاول أن تفك اللغز وتُحدِّد متى ينتهي الصديق، ومتى يبدأ الحزب. روبرت هو الرجل الوحيد الذي يجاملها ويساندها، الرجل الوحيد الذي تستطيع معه التحدث عن جيورج، الوحيد الذي عرض عليها وظيفة جديدة، كطبيبة موظفة لدى الإذاعة في مبناها الواقع بـ «مازورين-أليه».

في نهاية سبتمبر تستمع «لجنة جروسكورت» في جامعة هومبولت إلى ضحايا يوم الخامس عشر من أغسطس وشهوده. إنه لفظيع ما يَسِرده الشُّبان خلال الجلسة التي استمرت يومين. أما ما يثير مزيداً من السخط لدى أناليزه فهي أقوال أحد رجال الشرطة الذين شاركوا في الأحداث. لقد صُدم بالوحشية التي كان على زملائه أن يتَّسموا بها تنفيذاً للأوامر، ما جعله يهرب وينضم فيما بعد إلى شرطة برلين الشرقية.

إنها بالطبع محاكمة، ولكن الهدف خير. روبرت يبرز دوره على نحو خاص. إنه في أفضل حالاته. تنظر إليه أناليزه بإعجاب: يرى روبرت دائماً أنه يستطيع بذكائه أن يحكم نصف العالم. إنه يجد في كل مكان «أمثلة على عودة الفاشية»، ولا يدين الشرطة والدولة فحسب، أو إرنست رويتر، وكونراد أدناور، وكورت شوماخر، وبعض رؤساء

تحرير الصحف في برلين الغربية، كلاً، إنه يُوجّه اتهاماته إلى النظام الرأسمالي بأكمله، كما يهاجم «عملاء التسلّح الألمان والأمريكيين، وحكومات واشنطن وبون الواقعة في مخالبتهم». حكم بالإدانة كأنه مأخوذ بالحرف الواحد من تعليق لصحيفة «نويس دويتشلاند» الاشتراكية. أعلن هافمان الحكم الذي نُشر في الشرق، وسُكت عنه ودُفن في أرشيف الغرب. في التاسع من أكتوبر، أثناء جلسة محكمة العمل، تجلس السيدة جروسكورت وحيدة، بدون مُحامٍ، متأكّدة من أن الحق لديها. بصوت مُتهكّم يقول مُمثّل الطرف المُدعى عليه؛ أي الحكومة المحلية في ولاية برلين: المُدعية تشير إلى حقوقها باعتبارها إحدى ضحايا الفاشية. أحب جداً عندما يشير شخص أمام المحكمة إلى حقوقه باعتباره ضحية الفاشية! لا يقاطعه قاضٍ من قضاة المحكمة.

– أرجوك أن تُقارني نشاطك من أجل السلام بتصرّف طبيب يُقدّم لمرضاه حُقن تطعيم مُسمّمة!

يسمح القضاة بمثل هذه الجمل أيضاً. وعلى الفور تسمع في أذنها نبرة القاضي فرايزلر، وتساءل نفسها: هل هذه علامة على الهستيرية التي أصابَتْها، أن تسمع صوت فرايزلر في محكمة العمل؟

مما يثر الشكوك أن تدعي طبيبة مثلها أنها تتبع أهدافاً إنسانية؛ فبعد حصار برلين الغربية وقطع إمدادات الأدوية والمواد الغذائية، يكون «الاتجاه الذي تدعّمه» قد لفظ أنفاسه، يقول الرجل الغادر الحاصل على دكتوراه في القانون: إنه يحملها مسئولية الحصار الكريه الذي ضربته السوفييت! إن حق التعبير عن الرأي لا يشمل «العملاء الشيوعيين». هل يقول: عملاء؟ نعم، يقول عملاء، ثم يستطرد منتصراً:

والدليل هو الدعوة إلى تأسيس ما يُسمى بلجنة جروسكورت لدعم ضحايا الهجوم الوحشي المزعوم على المُشاركين في المهرجان العالمي من قِبَل شرطة برلين. ثانياً: لقد شاركتُ في رئاسة اللجنة التي هاجمتُ بحدّة بالغة الحكومة المحلية في ولاية برلين والحكومة الألمانية الاتحادية في بون وقوة الحماية الأمريكية. ليس لها أن تتوقع أن تعمل لدى جهة تقوم هي بمحاربتها بالحديد والنار.

يستمعون إلى أقوالها مرةً أخرى. عندما نطقت بكلمة السلام، الكلمة التي بدأ كل شيء بها، ابتسم الرجال ابتسامة صفراء. الحكم جاهز ومكتوب على ورقة على طاولة القضاة. يُنلى الحكم: الدعوى مرفوضة، وعلى أناليزه جروسكورت أن تتحمل المصاريف، باسم الشعب!

كم رأساً للأفعى؟

لقد سلكتُ سلوكًا — هكذا يحكم قضاة محكمة العمل — يتعارض تعارضًا واضحًا ويتناقض مع مصالح رب عملها، مجلس وزراء حكومة ولاية برلين. لقد حُجبت أهدافها المُعادية للدستور، وقامت بالالتفاف على النظام الأساسي الليبرالي للبلاد، ولم تلتزم بواجب الوفاء لرب العمل، وبذلك لم يعد الطرف الآخر المتعاقد معها قادرًا على الثقة بولائها، خارجيًا وداخليًا.

عند مغادرتها قاعة المحكمة تُفكر في الاستئناف، ثم تتلقى لكمة من مُمثل حكومة برلين الذي يتحدث بصوت فرايزلر: «إني أبصق على امرأة مثلك. تفو!» مَنْ يعتقد الآن أن حكومة برلين سترضى بهذا النصر الواضح، فهو لا يعرف بعدُ تفاصيل ما حدث في سنوات الخمسينيات والوحشية التي كانت تسود في المصالح الرسمية. ها هو ساعي البريد يحضر مرة أخرى رسالة مُسجلة، هذه المرة من وزير الشؤون الاجتماعية في برلين، بتاريخ ٨ / ٤ — لقد تم احتجازها ثمانية أسابيع ولم تُرسل إلا بعد صدور الحكم:

«لقد أمرتُ بسحب الاعتراف بك، باعتبارك من أهل أحد الملاحقين السياسيين المتوفين، استنادًا على لوائح قانون الاعتراف بالملاحقين، مادة ٧، بند ١ ب. وفقًا للمادة المذكورة من الممكن سحب الاعتراف بالملاحقة السياسية في كل وقت إذا ارتكب المُعترف به أعمالًا لا تبدو متوافقة مع الاعتراف به مُلاحقًا. حسب الإخطار الذي أرسله مكتب حي شارلوتنبورج في برلين فقد ساهمت مساهمة كبيرة في أفعال شيوعية غير مشروعة مُوجَّهة ضد نظام البلاد الديمقراطي. لهذا السبب قررنا إصدار القرار الوارد أعلاه.»

كيف كان ميشائيل كولهاز^١ سيتصرف لو حصل بعد يومين من صدور حكم محكمة العمل — الذي يستند إلى مادة قانونية من العهد النازي — وتحتم عليه أن يرد على مثل تلك الرسالة؟ من السهل تخيل ذلك، إنه الظلم، ثم يصرخ طالبًا العدالة، ظلم جديد، سلسلة من الثأر والسرقة والحروب، الحكاية معروفة، فَلَنَبْقَ في القرن العشرين المجهول. وكيف ردت أناليزه جروسكورت؟

حكم ورسالة خلال ثمان وأربعين ساعة — هذا يكفي ليفقد المرء صوابه ويطلق النار عشوائيًا على مَنْ حوله، يكفي للإصابة بجلطة في القلب، أو للانتقال إلى شرق المدينة، أو لكي تحقق الطيببة شهرةً مهنيةً كامرأة هستيرية لا ترى في كل مكان إلا النازيين. لكنها من القوة بحيث تُقاوم السقوط في هذا الدرك الأسفل. لكن صورة الأفعى المتعددة الرؤوس

تظهر لها من جديد، الكلب ذو الرؤوس التي لا تعد ولا تُحصى، تسيطر الصورة عليها في أيامها ولياليها. ستلدغها الأفعى وتدمرها وتسممها بأنفاسها إذا لم تدافع عن نفسها. أخيراً تقرر اللجوء إلى مُحامٍ، وتقدم على الفور شكوى. تُورد الحجج والأدلة، تشرح وتفصل؛ لأنها ما زالت تأمل أن تُهدئ أفعى المصالح الحكومية المتعددة الرؤوس بالحجج والأدلة والشرح. تتحدث عن القيم الأساسية للدستور. تُحصى عدد المشهورين من كل الأحزاب والمسيحيين من كافة التوجّهات الذين استجابوا لنداء السلام. تشير إلى وزير الداخلية المستقيل هاينمان. تُطالب بالتفهم؛ لأنها لا تستطيع أن تستوعب أن الأفعى لا تخشى شيئاً مثل التفاهم. تشرح مرة أخرى أن الصحافة هي التي جعلت من استفتاء شعبي «مزعوم» استفتاء «شيوعياً» وبذلك لصفتُ عليها وصف «الشيوعية» بدون أي وجه حق. تطالب بأدلة على «الأنشطة الشيوعية» التي يزعمون أنها قامت بها. تُود أن تعرف كيف تُهدد النظام الديمقراطي للبلاد.

إنها لم تتفأخر في يوم ما بما فعلته خلال الحرب، ولكنها تُحاول الآن أن تُهدئ من غضب الأفعى بالإشارة إلى كفاحها النشط ضد الحكم النازي. لكن الأفعى — وهو ما لم تدركه الطيبة بعد — ترتاب ارتياباً كبيراً فيمن يُقاوم أفعى أخرى أكبر حجماً؛ لأن السيدة خرجت سالمة من النضال، وأثبتت قوتها؛ أي خطورتها. إنها تطالب بأن يُلقوا نظرة على ملفات القضية التي رُفعت ضد مجموعة المقاومة «الاتحاد الأوروبي»؛ لأنها تُبرهن أكثر من كل الكلمات على أنشطة زوجها. وهو دفع حياته ثمناً لذلك. هل يجب معاقبتها؛ لأنها تتصرف وفق مبادئ زوجها المقتول؟

أرسل المحامي الشكوى إلى أفعى الشؤون الاجتماعية. كان أمل أناليزه أن تستمتع بعدة أيام من الهدوء، ولكن ها هو رأس آخر للأفعى يتحرّك. تخبرها إحدى ممرضات مستشفى موأبيت — حيث عمل زوجها — أن اللوحة التذكارية المعلقة في كافيتريا المستشفى تكريماً لجيورج قد نُزعت، من غير الواضح إذا ما كان ذلك قد حدث بأمر من رئيس الأطباء أم من وزير الصحة في برلين. انعقد لسانها؛ إنهم لا يكتفون بملاحقة الأحياء، بل يلاحقون الأموات المناهضين للفاشية أيضاً! لعنة الاستفتاء الشعبي تصيب حتى جيورج. تفكير قبلي! إنهم يحمون ذكرى شخص مثالي، الطبيب أول الذي أنقذ — هنا في موأبيت — حياة العشرات، بل ربما المئات، من برائن النازيين وحربهم. تُود أن تصرخ: فاشيون! ولكن، عليها أن تتحكم في أعصابها، وتتحكم في أعصابها، تقول لنفسها: لا تقولي شيئاً. عليها ألا تبدأ صراعاً ثالثاً، وألاً تقدم شكوى ثالثة؛ سيكون هذا أكثر ممّا تحتل، بل إن الوضع الآن أكثر ممّا تحتل.

في تلك الأثناء كانت لجنة جروسكورت قد انتهت من كتابة مُسوِّدة كتيب به نتائج التحقيق في أحداث يوم الخامس عشر من أغسطس. يطلب روبرت منها أن تكتب مقدمة. تتردد. باشتراكها في اللجنة أخطأت بالتأكيد، وقَدَّمت ذريعة لمحكمة العمل. من ناحية أخرى فإن إلغاء الاعتراف بها مُلاحقة سياسية قد صدر يوم الرابع من أغسطس. لم تكن لديها أية فرصة على كل حال. قبل الخامس عشر من أغسطس بوقت طويل كانوا قد قرروا أن يلعنوها. لم تُعد لديها فرصة في الغرب، الديون تتراكم، هنا يقولون: «شيوعية»، وهناك: «مناضلة شجاعة في سبيل السلام.» التسميتان خاطئتان، ضد أية أكذوبة تريد أن تكافح؟ ضدهما معاً، تبقى في الغرب، وتقبل عرضاً بوظيفة لنصف الوقت كطبيبة لدى إذاعة برلين في «مازورين-أليه». تتحكم ألمانيا الشرقية في هذه الإذاعة، لكنها تقع في قلب المنطقة البريطانية، ولا تبعد سوى خمس دقائق عن الشقة والعيادة. نصف العالمين هم من الغرب أيضاً. يا لسعادتها! بإمكانها أن تُعالج العالمين في الإذاعة قبل الظهر، وبعد الظهر مرضاها في حي «فست إند».

على المرء أن يتم ما بدأه، وأن يُتمَّه كما ينبغي، هذا هو شعارها. وهكذا تكتب مقدمة، أيضاً من أجل خاطر روبرت. النص، في رأيها، يفيض بالبروباجندا، يفيض بالكراهية ضد الغرب، تحت ركام الكلمات المشحونة بالاتهامات لا يكاد من الممكن اكتشاف قصاصات الحقائق. لا تود قراءة المصطلحات الحزبية، ولا أن تسمع النبرة الستالينية الفجة. تريد اللجنة التي تحمل اسم جيورج أن تفرض عليها لغة بائسة كانت ستجعل جيورج يمتعض امتعاضاً، ولكن ما أهمية اللغة إذا كان على المرء أن يكافح في سبيل السلام وضد النازيين؟ هكذا تقول لنفسها بشجاعة، وتكتب بكلمات أخرى، كلمات من اختيارها هي:

«لا يستحق الذكر ذلك الإنسان الذي لا يهتم بأخيه الإنسان.» هذه الكلمات التي قالها الكاتب القومي الأوزبكي الكبير أليشر نافوي الذي عاش في القرن الخامس عشر، تنطبق على الأمس واليوم والغد أيضاً (إذا كانت هذه هي الانحناءة الإجبارية أمام الاتحاد السوفييتي، فهي انحناءة بسيطة وصادقة).

إن القلق الذي نشعر به حيال شبابنا وحياته في سلام كانت هي الدافع إلى النداء الذي قمت به للتحقيق في أحداث الخامس عشر من أغسطس ١٩٥١م التي وقَّعت على حدود القطاعات في برلين الغربية (ليس بمقدور بوق دعاية أن يفكر بمثل هذه الموضوعية، ناهيك عن أن يكتب هكذا). إن نتائج التحقيقات أمامنا الآن (نقطة، وجملة جديدة، لم يكن باستطاعة شيوعية في الخمسينيات أن تكتب بمثل هذا الإيجاز).

إننا نتعلم مما حدث شيئين. أولاً: إن نتائج الخامس عشر من أغسطس ليست مصادفة ولا هي حادث منفرد (وهو ما سيوافقها عليه المؤرخون اليوم أيضاً)، بل كانت حلقة في سلسلة من الاستفزازات الفاشية (نبرة دعائية، ولكنها لم تجد من واقع خبرتها مصطلحات أخرى تستخدمها)، التي شهدتها برلين خلال الأشهر الأخيرة.

أما ما نستنتجه من ذلك فهو: علينا أن نكافح بحزم ضد كل شكل من أشكال الفاشية، على الفور، وأن نقضي عليه في منبته. فالفاشية تعني الحرب (إنها هنا تتحدث عن خبرة — كما أن السيدة جروسكورت ما زالت تتذكر ما قاله وزير الداخلية لير في حكومة أدنور في خطابه أمام البرلمان: إنه يود لو يفتح الباب مرة ثانية لهتلر).

يجب أن تكون هذه الوثيقة إسهاماً في كشف النقاب عن المحرضين على الحروب، فهم أعداء البشرية (جملة دعائية، لكنها تسمو فوق الجمل المشابهة التي كانت تُصاغ في العصر الستاليني؛ لأنها تخلو خلواً مريحاً للنفس من الصفات وأفعال التفضيل والتكرار وعلامات التعجب).

في عصر كان كل تحرك سياسي يُنظر إليه في الشرق والغرب نظرة أيديولوجية، كان من شبه المستحيل أن تكون رأياً خاصاً أو أن تجد لغتك: إنها تحاول. تنسحب من اللجنة. لقد أعارتهم اسم اللجنة، واستمعت إلى المفاوضات لمدة يومين، وكتبت المقدمة، هذا يكفي. ليست السياسة مجالها. عليها أن تهتم بالحصول على حقوقها هي، أن تهتم بالدعاوى المرفوعة، بأبنائها، ومرضاها وزيارتها لهم في المنازل، أن تهتم بلقمة عيشها.

تواصل لجنة جروسكورت عملها، في مكتب في «فريدريش-شتراسه» في برلين الشرقية، هافمان وأعضاء الحزب الآخرون يحتفظون بمنبتاهم. تقدم اللجنة المساعدة القانونية لأهالي برلين الغربية، ما يزيد على ٢٠٠٠ إنسان تم اعتقالهم في القطاع الغربي، خلال عام ١٩٥١م وحده، وذلك بتهمة «استخدام البروباجندا من أجل الاستفتاء الشعبي»، وما يزيد على الألف تواجههم دعاوى قضائية. في عام ١٩٥٢م يتم نشر كتيبات من أمثال: «انتهاك الحقوق الديمقراطية الأساسية في برلين الغربية، حالة الدكتور أناليزه جروسكورت، برلين الغربية والإرهاب في مدينة المواجهة»، ثم يحصل هافمان على مهمات إضافية في الجامعة، وبسرعة تختفي اللجنة أيضاً من الصحافة، ويختفي مكتبها من «فريدريش-شتراسه». الاتحاد الاشتراكي كان راضياً، وفقاً لما يمكن للمرء أن يقرأه اليوم في الملفات القديمة: «لقد نفذ الرفيق روبرت هافمان كل ما كلفه به الحزب من أعمال على نحو يبعث على الثقة».

وفي النهاية لم يدفع أحد الفاتورة سواها، المرأة الغربية، التي شاركت في تلك الأنشطة بضعة أسابيع، عن حسن نية حيناً، وغضباً عنها أحياناً، عن إدراك حيناً، وبدافع من

كم رأسًا للأفعى؟

الاضطرار أحيانًا. لقد صدّقت أنها باسم زوجها تُنقذ المقاومة من غياهب النسيان، ولم تفكر في أن المصالح الحكومية في برلين الغربية لا ترى في اسم جروسكورت سوى الدكتور أناليزه، وليس الدكتور جيورج جروسكورت. لقد أساءت التقدير، ولم تفهم أن الموظّفين الذين ثبت انتهاكهم للقانون لا يميلون إلى الندم واللين وإدراك ما فعلوه.

شليزفيج ضد المكسيك

وسط الثلوج المتراكمة على بحيرة ليتسن راحت كاترين تتحدث بحماس عن المكسيك. تساقطت الثلوج طيلة النهار والليل، فسادت الفوضى، وخرجت المدينة من إيقاع حياتها، وأصبح الناس أكثر مرحًا. في أيام قليلة في العام يُظهر البرلينيون مزاجهم الرائق. تحدث المعجزة في أول أيام الربيع الدافئة، أثناء المشي على سطح البحيرات المتجمدة، وبعد هطول الثلج الكثيف للمرة الأولى، عندئذ يتطلعون إلى السماء، ويتبادلون نظرات مندهشة، ثم يرسلون البصر إلى الأفق البعيد وكأنهم تحرروا من نير التذمر الذي يثقل كاهلهم. لوقت قصير يعتقد أهالي المدينة أنهم تألفوا مع الطبيعة، فلا يعودون يكتبون ميلهم إلى السعادة. بعد أن مهدت كاسحات الجليد الطرق تمهيدًا لمبدئيًا لحركة السير، انطلقنا بالسيارة إلى بحيرة ليتسن، لنتمشى احتفالًا بهذا اليوم المعجزة. كاترين بكاسكيت أسود فوق شعرها البني المحمر، ومن خلفها الثلوج. سرنا وقد اشتبك ذراعانًا، وكنا في أحسن مزاج — ورغم ذلك أفسدنا كل شيء.

انطلقتُ تتحدث عن حضارتي المايا والأزتيكن كالعاشقة، وراحت تتلو القصائد في مديح تلك الأجواء المجهولة، والأدغال، والعمارة الحديثة. كانت متحمسة للبراكين البعيدة، وجدرائات ديجو ريفيرا. لم تكن لدي أدنى فكرة عن المكسيك، ففوجئت بتحمسها ومعلوماتها التي قطفتها يانعةً من أحد الكتب السياحية، أو التقطتها من هوجو. نبرة صوتها وحدها كانت تثني بأنها عقدت عزمًا أكيدًا على السفر إلى المكسيك. لقد قابلت هوجو مرتين، بدوني، قبل أن نودعه معًا في محطة برلين الغربية للقطارات، محطة «تسو»، في طريقه إلى لندن. أذهلتنني قدرته على إشعال نيران الحماسة هذه لديها. أعماني ضوء الثلج الباهر، وكنمت الغيرة التي بدأت تنهش أعماقي.

راحت تحكي وكأنها تحتفل باكتشافها — رغم أنه اكتشاف هوجو — للرسم المجهولة فريدا كاهلو Frida Kahlo. في عام ٦٩ كان الاسم قد وصل ربما إلى أعتاب باريس ولندن، دون أن يتغلغل إلى برلين؛ إذ إن «موضة» كاهلو لم تزدهر إلا متأخرًا جدًا. عبرنا «نويه-كانط-شتراسه»، وبعد عدة خطوات، على الطريق المحاذي للضفة الواقعة على الخليج الغربي الضحل، رأيت المنظر المُنساب المُوطَّر بأشجار الحور، وتحت البحيرة التي تجمّد سطحها الرقيق والممتدة ناحية المدينة، وصولاً إلى صف المنازل في «فتسليبن-بلاتس». طلبت من كاترين أن تخذ هذا المنظر بكاميرتها. إلى اليسار خلف الغصون العارية يختبئ على ناصية «الكايذر دم» المنزل الذي يضم شقة جروسكورت، وإلى اليمين مبنى المحكمة الرمادي الذي يشبه الصندوق، والمُشيّد على الطراز الباروكي الجديد، مقر السادة الذين جرّعوها العذاب بأحكامهم القضائية. ثلاثة منازل تفصل بين الضحية والجناة، كنت أريد كل هذا في صورة واحدة.

ربما عبرت عن رغبتني بطريقة فظة، وربما شعرت بأنني قطعْتُ حبل أفكارها الذكية المسترسلة عن الرّسامة السياسية، كما أُسْمَتْها، عن المرأة ضحية، وعن الرسم والتصوير الفوتغرافي، على كل حال كان ردُّ فعل كاترين عنيقاً على نحو غير مألوف.

صورة تصلح لوضعها في كتاب مصوّر! هذه أشياء لا أقوم بالتقاطها، وخاصة في أجواء تصوير مثالية كهذه. ألا أستطيع أن أنصت إليها مرة لمدة خمس دقائق؟ هل لا بدّ من أن أقاطعها دوماً بحكاياتي عن جروسكورت؟

فلماذا إذن، ردّت عليها، تحمل الكاميرا في جو التصوير المثالي هذا؟

باختصار، انفجر شجار جميل، ثم التقطت الصورة رغم ذلك؛ إذ إن طبيعتها تميل إلى التصالح، وكانت مثلي تماماً، لا تتحمل هذه الصراعات، لكن الشرح بيننا كان قد امتد، ومنذ ذلك اليوم ونحن نخوض مباراة — في معظم الأحيان نُدّاري ذلك بلطف — بين جروسكورت والمكسيك.

عندما اقترَبنا من «الكايذر دم»، عند حديقة شيلر، حيث ينهض نصب شيلر التذكاري على قاعدة بسيطة، وهو اليوم يُزيّن ميدان «جندار من ماركت»، تشجّرنا حول السؤال: إلى أين سنسافر في إجازة عيد القيامة، إلى شليزفيج هولشتاين أم إلى لندن؟ كنت قد عقدت النية الأكيدة على السفر إلى شليزفيج كي أراقب «ر»، وأتعرّف على المنطقة التي يعيش فيها. كنت قد تخليت عن خطط القتل، إلا أنني كنتُ أودُّ أن أراه مرة على الأقل حتى أستطيع أن أنساه وأدفنه تماماً. بصورة في الرأس، وليس بمسدس في اليد. قلتُ لكاترين: عليّ أن أعرف كيف

يعيش القاضي «ر»، وإذا كان ما تكتبه الصحف عن البيت الريفي المريح صحيحًا، وبقدر الإمكان أن أجري معه حوارًا، كما أننا نستطيع أن نقضي إجازة في شليزفيج هولشتاين، بحر الشمال، أبريل، مكان جميل لا يعرفه إلا القلائل ... إلى آخره.

وبينما راحت كاترين تسب وترغي وتزبد، أخذت أنقل نظرتي المُحَمَلَّة بين منزل جروسكورت والمحكمة، بين الأطفال المُتَرَحِّلِينَ على الجليد وفريدريش شيلر بقبعته التي علاها الثلج.

سمعتها تقول: ولكنني وعدتها بأن أسافر معها يومًا إلى لندن، وأني قضيت عامًا بأكمله هناك، وهي تريد أن تقضي على الأقل أربعة عشر يومًا. إنها مُصمَّمة أن تقوم بالتقاط الصور في المكسيك، في سبتمبر على وجه التقريب، بصحبة صديقة أو مع هوجو، ولذلك علينا أن نزوره، فهو الخبير. إنها تفضل السفر معي، ولكن: هل سأقضي ستة أسابيع بدون المُخْذَر الذي يُدعى العمل؟ هذا غير ممكن! أنا ليس لديّ اعتراض بالتأكيد على سَفَرها مع لوطي؟

كان شيلر ينظر إلى بعيد. كان شيلر يعلم ما يريد. كان قويًّا تجاه كل ما لاقاه من مقاومة في عصره، وتجاه توقُّعات النساء. شيلر يُدعِّمُني: أنا أعرف ما أريد، وعليَّ أن أصمد أمام كل نوع من المقاومة. وظيفتي هي أن أجعل الناس ترى العلاقة غير المرئية بين هاتين البنائيتين، أن أكشف عن فضيحتين قضائيتين بضربة واحدة. كاترين تجري وراء مصالحها، وأنا وراء مصالحها، هذا شيء مقبول، وسوف نتحمله.

ولكن سرد تلك الأسباب التي تتسم بمنتهى العقلانية، ثم النطق بها بعقلانية شديدة، أدَّى إلى تحطيم قلبها. كانت تنتظر مني على الأقل — هذا ما أدركته بعد فوات الأوان — أن أفصح عن حبي. ولكننا ظللنا سجناء الجديَّة المُفْرِطة والمطالب السياسية الصارمة. أحسستُ بوخزات الضمير؛ لأنني كذبت عليها بسبب «ر». وهي أيضًا؛ لأنها وجدت نفسها مرغمة على التمرد علي.

بدلاً من أن نتقاذف بكُرات الثلج، واصلنا سيرنا حول بحيرة ليتسن، كما واصلنا نقاشنا المتعثر. برلين كلها كانت تتجادل، فلماذا لا نتجادل نحن أيضًا؟ كلُّ كان يقيم الحدود بينه وبين الآخر؛ لذلك بدا لنا طبيعياً تماماً — ونحن نتسم بالعناد مثل الآخرين — أن نظل نناقش السؤال: شليزفيج أم لندن؟ جروسكورت أم المكسيك؟ ما كان أسهل التوصل إلى حل وسط!

لم تعد كاترين — عموماً — تود التصوير إلا في البلاد الفقيرة، في العالم الثالث، هذا هو — برأيها — حل مأزقها، إنها هناك تجد مرة أخرى معنى للتصوير والتحميض. أما

آخر الدوافع لكي تعمل في المكسيك، فقد وجدته في إعلان لأحد مُصنّعي المقاعد، ٥٠ من الأرداف العارية. هذا هو الطريق الذي تسير عليه الفوتوغرافيا، قالت لي: كل شيء يتحول إلى إعلان، والإعلان إلى بورنوغرافيا، عنف وبورنوغرافيا. عما قريب سيعرضون ٥٠ فرجاً كدعاية للعصائر الرخيصة. هذا هو ما حدث مع صاحبك يوكو أونو، من تحت الأرض إلى التسويق التجاري في دقيقتين!

– في سنتين.

– لن أشارك في ذلك، بدون رغبة في ذكر حكاية أونو، لا بدّ من أن أذهب بالكاميرا إلى المكان الذي أستطيع أن أكتشف فيه شيئاً، إلى العالم الفقير، العالم البكر.

كلّاً، لن يوقفها شيء، لا الإرهاب في المكسيك، ولا المذبحة التي حدثت قبل الدورة الأولمبية، لقد أكلت علكة ساخنة أمام مبنى البلدية في شونيبيرج وتعلّمت أن تحترس من الجماهير. الإنسان الفرد، بين الفقر والجمال. هذا هو مشروعها، وبه ستبدأ في المكسيك، ولن تحيد عن طريقها، لا بسببي ولا بسبب أحد القضاة النازيين.

هذا التصميم كان يعجبني فيها، لكنني كنت أكثر جبناً وكسلاً من أن أعبر لها عن إعجابي. رغم ذلك، لم أشعر بالانجذاب إلى المكسيك، وكان يزعجني للغاية احتمال سفرها مع هوجو. ولكن لم يمكن مسموحاً لي بقول ذلك، وإلا كنتُ تعدّيت على أحدث الوصايا العشر: وصية تحرّر المرأة.

رجلان في ضوء القمر

في كل يوم كان ينهض أمام عيني، هيئته الفارعة، وجهه النحيف، مرّة أراه بجانب جيورج، مرة بجانب أناليزه. روبرت هافمان، الشخصية الرئيسية الثالثة التي شاركت في كل نقاط التحول الدرامية. نشيط دومًا، سريع، بليغ. إذا كان أحد يعرف الاتجاه الصحيح، فهو. الشخصية المحورية، ورغم ذلك فإن الإمساك به من أصعب الأشياء. هافمان الأربعينيات، وهافمان الخمسينيات، كلاهما حاضِر في الوثائق والتقارير، وحده هافمان عام ١٩٦٩م هو ما ينقصني، فهو الذي يستطيع الإجابة على أسئلة كثيرة باعتباره الشاهد الملك. لا يمكن الوصول إليه منذ أن ألقى محاضراته بعنوان «الدياليكتيك بدون دوجما» التي أعاد فيها تعريف الاشتراكية، وأضحى بذلك الشخصية الرمز المكروهة والمعبودة في آن واحد.

يجلس هافمان خلف ثلاثة أسوار، كل منها أعلى من الآخر. كل أنواع التفتيش والأختام لدخول الحي الذي يعتبرونه العاصمة لا تسمح للمرء بأن يتجاوز حدود برلين الشرقية لكي يسافر إلى الضواحي والقرى. مَنْ يجرؤ بالرغم من ذلك، ثم يُضبط، فعليه أن يتوقع العقوبات، المنع من الدخول إلى البلاد، ونهاية كل الزيارات. ثالثًا: فإن كل الطرق المؤدية إلى القرى المحيطة بهافمان كانت تُراقب مراقبة صارمة؛ لأنّ المواطن الألماني الشرقي يجب حمايته أيضًا من سُمّ نَبِي الاشتراكية الديمقراطية حتى لا تنتقل إليه العدوى. أما الاقتراب بالرسائل والاتصالات التليفونية فهو الغباء الكامل. هافمان كان نجمًا، مُحاصرًا، ومُراقبًا، يتنصّتون عليه ويحبسونه في قطعة الأرض الجميلة التي يعيش عليها، وإذا تحرّك مرة في المدينة، كان يُراقب من كل الجهات، لا يخطو خطوة من غير الشتازي، لم يكن هناك أمل. صديقه الذي يسكن في «شوسيه-شتراسه» — الذي يزوره كثيرًا — هو وحده القادر على أن يقوم بدور الرسول. أما الإجابة التي أحضرها لي ذات يوم فقد خيّبت أمني، بالرغم

من أنها كانت منطقية. هافمان يكتب ذكرياته، ودار النشر في ميونيخ تنتظرها، كما أنه مريض ولا يستطيع أن يأتي خُصِيصَى من أَجْلِي إلى شقة صديقه في «شوسيه-شتراسه». إنه يكتب الآن بالتأكيد — هكذا قال لي بيرمان — ما تَوَدُّ أَنْتَ انتزاعه منه، حكايات عام ٤٣ و ٤٤. إن بإمكانه أن يكتب روايات عن ذلك، فلماذا يحكي لك أنت تحديداً؟ سيكون ذلك غباءً شديداً يا عزيزي، عليك أن تترك له ذلك!

غير أنه أحضر لي تحياته، تحيات نَصَامُنِيَّة طبعاً، وقصيدة أيضاً، نعم، قصيدة نظمها هافمان، «أعز أصدقائي».

كنتُ أود طرح ثلاثة أسئلة عليه، لو كنتُ أعرف آنذاك كل ما أعرفه اليوم:

- قال أحد أصدقائك: إنك كنتَ تعتقد دوماً بقدرتك على خداع العالم كله، ولكن، إذا حدث خطأ أثناء ذلك، أو وقع أحد ما بين المطرقة والسندان؛ ماذا ستفعل عندئذٍ؟
- إن الانتهازية والمثالية لديك تسيران بكل سهولة يداً في يد، هكذا قال عنكَ شخص كان يعمل معك سرّاً، ولكن ماذا يحدث إذا كانت المثالية أقوى من الانتهازية لدى أصدقائك؟
- يصفونك كثيراً بأنك أستاذ في الخروج من المَحَن سائلاً. هل تستطيع أن تتخيل أن جيورج وأنا ليزه لا يحبان سماع ذلك؟

حتى لو كنتُ طرحتُ هذه الأسئلة آنذاك، لم أكن لأجرؤ على النِّيل من صورة الرجل العظيم. كان نموذجاً، يريدون له أن يبقى كذلك. كل ما لاحظته هو أن الرغبة في لقائه — وعلى كل حال لم يكن هناك أمل في تحقيقها — اختفت تدريجياً. لقد تخلَّيتُ خلال الفترة الماضية عن رغبتني في حل لغز هافمان. إنسان شجاع، مستمتع بالحياة، متفائل وذكي، مؤمن ومستفز، زير نساء، مقامر حذر: كل كُتَّاب سيرته يجمعون على هذه الصفات. لقد سأل جبر كثير عنه، كما أنه ترك أعداداً لا تُحصى من المقالات والمقابلات والتصريحات والاعترافات، إضافةً إلى الكتب التي ألَّفها، آلاف من الناس يدَّعون أنهم يعرفونه جيداً، وكل واحد يقدم أكثر الآراء تناقضاً عنه. لا أستطيع مسابقة كل هؤلاء. لا أستطيع سوى الاستشهاد بقصيدته، «أعز أصدقائي».

وسط الشارع الفسيح

كنا نقف.

قاسياً سطع ضوء القمر

في السماء الخالية من الغيوم.
المدينة المُعْتَمَة كانت تنتظر
مثل كل ليلة — ومنذ شهور—
نيران قاذفات القنابل القاتلة.
كنا نفكر في الحياة،
في أصدقائنا،
في عملنا السّري.
أنتَ تعرف — هكذا قلتَ —
ما ينتظرنا، إذا ...
لا ينقص الكثير
كي يحدث ذلك، رددتُ عليك.
لكنني أحب الحياة
أكثر مما يجب بالتأكيد، هل تفهم،
أحب الحياة،
أحياناً ينتابني الخوف،
ليس علي،
بل على ولدَيَّ، لماذا
يجب عليهما أن يعيشا في هذا العصر؟
وجهك الكبير يَخْتَلِج
اختلاجة غير عادية.
اليوم أعرف
أنك بكيت.
كان جيورج إنساناً رائعاً،
أعز أصدقائي.
عندما قَطَعُوا رأسه،
كان في التاسعة والثلاثين.

بالرغم من ركافة الأبيات فإنها حرّكت مشاعري. روبرت الذي واصل المقاومة في
سجن براندنبورج بشجاعة كبيرة وحِيل كثيرة، الذي صعد صعوداً مدهشاً في الحزب،

الذي احتكر الحقيقة، روبرت هذا ظل سنوات عديدة يفكر تفكيراً مكثفًا في دموع صديقه المسوحة، حتى إن الكيميائي امتطى حصان الخيال المجنح باحثًا عن العزاء في قصيدة. يقوم «زووم» آلة تصوير الماضي بتكبير المنظر: من «بسمارك-شتراسه» رقم ١٠٠ - حيث ينهض الآن هذا الصندوق الخرساني البائس - آنذاك كان المنزل الذي بُني في عصر تأسيس المدينة يضم قبل تدميره مكتب هافمان، في الناحية الأخرى الضحايا، القمر يسطع فوق المدينة المدمرة تدميرًا جزئيًا، الشارع الفسيح وفيه سيارة جيورج، هناك أراهما، كلاً الشابين، يتحدثان بصوت خافت: لكنني أحب الحياة.

كم نوعًا من السم تَبُّهُ الأفعى؟

بصفتها طبية بسيطة، هذا ما تُدركه أناليزه جروسكورت أخيرًا، فهي كالضائعة بدون سَدَد أو دَعْم في مواجهة رجال القانون المعادين لها، أو في المصالح الحكومية التي ترقد فيها الأفعى. يبعث المحامي الأمل في نفسها، قد يخطئ القاضي، وقد تُخطئ إحدى المحاكم، وقد يكون القضاة في المحكمة الأعلى درجة ليسوا مُشَبَّعين بالأحكام المسبقة إلى هذه الدرجة، إذن، فلنبدأ من جديد أمام محكمة العمل في الولاية، وليكن الاستئناف في نوفمبر مباشرة. تنطق نقابة أطباء قطاع الصحة العمومي (جمعية مسجلة) بحكمها أمام المحكمة: **قَرَّر مجلس الإدارة حرمانك من عضوية النقابة.** تتنفس بعمق ثلاث مرات، وتنوي ألا تَكتِفَ إلى الإهانة، إلا أنها بالرغم من ذلك تنفعل، ويجافها النوم. معظم أطباء هذه النقابة من النازيين المُخْلِصين الذين كانوا قبل فترة قصيرة يَتَنَقَّلون بالخطوة العسكرية بين غرف المستشفى مُلقين تحية: «هايل هتلر»، فأَي شيء تنتظرينه منهم؟

بعد ذلك مباشرة يمر عليها اثنان من أفضل أصدقائها، هي وهو طبيبان، جاران يسكنان في «ليندن-أليه»، طوال خمسة أعوام كانت تبث هَمَّها لديهما، أبنائهما يلعبون مع أطفالهما؛ يقفان الآن في المَرَمَر، يتنحنحان ثم يقولان: إذا لم تبتعدِي عن الشيوعيين خلال ٢٤ ساعة، سيتحتّم علينا أن نقطع كل الاتصالات بك، كلها. ويلتزمان بما قالَا.

لا تعرف ما إذا كان الصديقان تعرَّضًا للابتزاز. كل ما تعرفه أن الرعب قد دخل إلى قلوب المَرَضَى القلائل الذين يَتَرَدَّدون على عيادتها بسبب المكالمات التليفونية المجهولة، والبعض لا يأتي إلى عيادتها إلا تحت جناح الظلام. لن تسمح لنفسها بالانفعال، تحتاط، لا تريد أن تستفز أفعى كامنّة هنا أو هناك، ولكن ماذا تفعل إذا كانت الحقائق مستفزة؟ مع الشهيق والزفير، مع امتصاص المذكَرات القانونية وقَدْفِها أمام محكمة العمل في الولاية، تَبُّث الأفعى السم من منخارها: **لم تعلن إدانتها لما يُسمى الاستفتاء الشعبي**

- مؤيدة للشرق - تعطي مقابلات لصحافة الشرق - تواصل هجومها العدواني على مجلس الوزراء في برلين - تعاديه عداوة لا كبح لها - النية في إسقاطه - لم تظهر أية مشاعر إنسانية خلال الحصار - التمويه الذي تمارسه باعتبارها امرأة ساذجة، لكن هدفها هو زعزعة أسس النظام والاستقرار والعمل على إلغاء الحقوق الديمقراطية.

إذا قالت: إنها لسنوات طويلة بذلت الرخيص والغالي في خدمة مكتب الصحة بالقطاع البريطاني، هل تفيدها هذه الحجة في شيء؟ هل يفيدها في شيء أن تسأل عن براهين تثبت أن الاستفتاء الشعبي كان بالفعل حملة شيوعية أو هجومًا على الدستور ونظام الدولة؟ هل يفيد في شيء إحصاء عدد الوزراء والمسيحيين والضباط السابقين والديمقراطيين الاشتراكيين والشيوعيين والمناهضين للشيوعية الذين عارضوا - مثلهم في ذلك مثل ملايين الألمان - إعادة تسليح البلاد؟ لماذا لا يسمحون لأرملة مناضل من مناضلي المقاومة أن تتبنى هذا الرأي؟ إذا كان رئيس المحكمة الدستورية نفسه يؤكد أن عشرين محكمة في ثلاث ولايات ألمانية اعتبرت قرار منع الاستفتاء الشعبي مخالفًا للقانون؟ وكيف لها أن تمنع صحافة الغرب من أن تلعنّها وتُسبّها، وأن تنهال عليها صحافة الشرق بالمدح، طالما أنهم في الغرب لا يمدحون إلا من يلعنه الشرق؟

في مايو ١٩٥٢م تنهض أفعى محكمة العمل في الولاية وتنتصب بكامل حجمها، ثم تتحدث بصوت واحد يصدر عن كل الأفواه التسعة من الرؤوس التسعة: قرار الفصل يتطابق مع القانون. لقد اصطحبت الطيبة خلال سماع أقوالها في مكتب الحي نسخة من دستور ولاية برلين، ما يؤكد شعورها بالذنب، فهي كطبيبة لم تكن تحمله مصادفة. إنها - يضيفون - لم تُفصل عن العمل؛ لأنها مُعارضة لإعادة التسليح، بل لأنها - رغم أنها ليست شيوعية - شاركت في حملة دعا إليها رجال السلطة في المنطقة السوفييتية. إنها لا تستطيع أن تُطالب بأن تكون موظفة لدى ربّ عمل تُحاربه وتتهمه بممارسة جرائم وأساليب إرهابية لا إنسانية. بالنظر إلى وضع برلين الخاص، هكذا تهلّل الأفعى، سيُعني الأمر انتحارًا فعليًا إذا غض مجلس الوزراء الشرعي في برلين النظر عن أشخاص - كالمُدعية - يعملون في جهازه الإداري ويدعمون دعمًا إيجابيًا رجال السلطة الشرقيين الذين يعملون على قلب نظامنا الدستوري.

نقطة. تحمل المصاريف. تحمل العواقب. كم رأسًا للأفعى؟ بالرغم من أن السيدة جروسكورت لم تفصل رأسًا من رؤوسها فإن رؤوسًا جديدة تنمو، لا شيء إلا لأنها لم تستسلم. هذا شيء جديد، هذه المشكلة لم يتعرض لها هرقل القديم.

كم نوعاً من السُّم تَبَّهُ الأفعى؟

بعد أسبوع: وزير الشئون الاجتماعية يرفض الشكوى التي تعترض فيها على إلغاء الاعتراف بها ضحيةً من ضحايا النظام النازي. ليس لمقاومتها أية قيمة، ولا مقاومة جيورج، لن يتم تعويضها لأنها شيوعية.

ثم تلتفُّ الأفعى على رقبتها مرةً ثانية: بعد خسارة القضية بسبعة أيام تطالب محكمة العمل في الولاية بالمصاريف، ٨٥،٨٤١ ماركا ألمانيًا، ولا تنتظر المحكمة كثيرًا، حجز إجباري.

تحوض المعارك في ثلاث جبهات في وقت واحد، يجب على المحامي أولاً أن يشرح أوضاع آل جروسكورت المالية أمام قسم التحصيل في محكمة العمل بالولاية. تدر العيادة الصغيرة ما يكفي بالكاد لتغطية التكاليف. كطبيبة في المصلحة الحكومية كانت تكسب ٧٨٠ ماركا، أما الآن فإن راتبها من إذاعة برلين لا يتعدَّى ما يعادل ٢٥٠ ماركا. إنها لذلك لا تدفع ضريبة دخل. وما زالت تحصل على ١٣٦ ماركا معاشًا للأطفال اليتامى، ولكنها تخشى أن يمنعوها عنها قريبًا هذا المعاش أيضًا. ديونها تتراكم لدى المحامين. فلتعرض إذن على المحكمة، وحتى يتحسن وضعها المالي، أن تدفع ٢٠ ماركا قسطاً شهريًا.

لا ترضى الأفعى بمثل هذه المبالغ؛ تبدأ إجراءات الحجز عليها، وذات يوم يرن فريدريش فيزل، الموظف المختص بالحجز في المحكمة، جرس الباب في شقتها بـ «ليندن-أليه». تقول الطبيبة: لكنني مُستعدة للسداد. يلقي نظرات حوله، ويشير إلى سجادتين كبيرتين وبساط في المرمر. تقول: ورثتهما عن والدي، لكنه يلصق ختم الرهن. تضع قدمها فوقها، تعترض، ثم تستسلم أمام قُوَّته. يأمر بلف السجاد وأخذه.

تدافع عن نفسها وتقدم طلبًا بمنع تنفيذ الحجز. ولكن الأفعى تطلق رأسًا جديدة: يسهل لعب محكمة شارلوتنبورج الابتدائية بسبب الحجز الإجباري. من حق الأفعى بطبيعة الحال أن تلتهم السجاد، ليس لأنها تعتبرها طعامًا لذيذًا نادرًا، بل لأن الرخاء محظور على السيدة الدكتور. ينبغي على الأقل أن يأتي السعي للوفاء بالالتزامات المالية قبل الرغبة في الاحتفاظ بملكية أثاث فاخر. والآن من المسموح لكل أفعى صغيرة وشابة من أفاعي المحكمة الابتدائية أن تلقي المواعظ التهكمية: من المعروف للمحكمة أن السيدة المدينة قد شاركت مشاركة جوهرية في الدائرة الصغيرة التي كوَّنها ألمان هدفهم الأساسي (أو على الأقل الهدف القريب) هو الدمار الاقتصادي والانحيار السياسي للدائنة (مدينة برلين)، والآن تطالب هذه السيدة المدينة بحمايتها.

لا تعرف أناليزه جروسكورت أي رأس من رؤوس الأفعى يجب محاربته أولاً، ترفض كل شكل من أشكال العنف، لا تريد غير العيش في سلام، السلام الصغير مع المصالح

الحكومية، والسلام الكبير في ألمانيا، لا تريد إلا الحرية المنصوص عليها في الدستور، لا تريد أن تظل ملاحقة من نازيين أو أشباه نازيين أو رجال قانون متوحشين.

أهم شيء هو التعويض المُلغى. يقدم المحامي دعوى بها حيثيات تفصيلية للمحكمة الإدارية. يشرح بالتفصيل الأخطاء الإجرائية التي وقع فيها وزير الشؤون الاجتماعية، ويوضح للموظفين الجهلة أن من حق السيدة جروسكورت أن تحصل على تعويض، ليس فقط باعتبارها أرملة مُلاحق، بل لأنها هي نفسها أيضًا مُلاحقة معترف بها رسميًا.

وفيما كانت مجبرة على مصارعة الأفعى كل يوم، كان الحلفاء يخوضون صراعًا حول الإذاعة في «مازورين-أليه». كانت الإذاعة الألمانية الشرقية في القطاع البريطاني مثار نزاع منذ سنوات بين كافة أشكال البروباجندا، لا يمكن أن يستمر الوضع كذلك. في مايو يهدم الفرنسيون عمود البث، في يونيو يحاصر البريطانيون دار الإذاعة مدّعين أن الناس يتم اختطافهم على الرصيف أمام الإذاعة. يمنعون أيضًا العاملين العديدين الذين يسكنون في الغرب. في تلك الأثناء راح الشيوعيون يُشيدون الإذاعة البرلينية في الشطر الشرقي. وينبغي على أناليزه أن تتبعمهم إذا أرادت أن تحتفظ بالمال اللازم لبقائها على قيد الحياة. لن يعين أحد في الغرب ساحرة شريرة مثلها. بدلًا من أن تسير خمس دقائق على قدميها يتحتم عليها الآن ثلاث مرات في الأسبوع أن تقضي ساعة ونصف الساعة في الطريق في الصباح الباكر وفي الظهيرة، كي تظل تعالج مرضاها في الإذاعة من الشرق والغرب.

في يوليو ٥٢، ووسط كل هذه التقلبات، يصيبها أحدث السموم وأكثرها شَرًا وخطرًا، هذه المرة من أفعى وزير الشؤون الاجتماعية: كانت المدعية منذ عام ١٩٤١م عضوًا في الرابطة النازية للنساء، ولذلك يسرى عليها البند الأول من المادة ٦ من قانون الاعتراف بضحايا النازية. حسب هذه المادة لا يمكن الاعتراف بالمدّعية لا بصفتها الذاتية ولا بصفتها أرملة أحد الضحايا.

الغضب يغلي في نفسها: الرابطة النازية للنساء! الرابطة التي انضمت إليها تمويهاً! بقرار من منظمة الاتحاد الأوروبي، ولتوفير حماية أفضل لها! حتى لا يشك هيس ورفاقه الأشرار في جيورج! الرابطة التي لم تُمارس فيها نشاطاً في يوم من الأيام. الآن يصمك هؤلاء النازيون بالمرأة النازية! لأن الذين سبّحوا مع التيار لا يتصورون وجود مُعارضين للنازية، ولا يتخللون ساعة واحدة من المقاومة! في البداية شيوعية، والآن نازية! ألا يستطيعون أن يُدركوا أنك لستِ سوى أناليزه جروسكورت؟

تبرهن على أنها أستاذة في التحكم في الذات: مُهلة حتى ٢٣ من أغسطس. كيف تثبت خلال أربعة أسابيع من صيف عام ١٩٥٢م أنها لم تكن امرأة نازية؟

كم نوعًا من السُّم تَبَّه الأفعى؟

روبرت شاهد، روبرت يستطيع أن يقسم على أن ذلك كله كان تمويهًا. ولكن من الصعب الاتصال بروبرت، إنه رجل مهم، أما سكرتيرة روبرت في جامعة هومبولت فليس من صلاحياتها أن تعطي السيدة جروسكورت — وهي البرلينية الغربية — أية معلومات. تُظهر البطاقة التي تثبت أنها من ضحايا الفاشية وتشرح مأزقها، لكنها لا تعرف ما إذا كان موجودًا خلال الإجازة الصيفية أم أنه في الخارج، أم في دورة تدريبية، ومتى يمكن مقابلته. زوجته أيضًا لا تستطيع أن تقدم المساعدة، ربما يغازل روبرت الآن امرأة أخرى على أحد شواطئ بحر البلطيق.

آخر أمل هي جريته رينتتش، أرملة باول التي تعمل مساعدة طبية أسنان في حي فيلمرزدورف، الوحيدة من محيط المجموعة التي ما زالت أُناليزه تستطيع التحدث معها كصديقة. إنها مُستعدة بالطبع لأن تقسم على أن الطبية لم تكن يومًا نازية، ولكنها لا تعرف شيئًا عن موضوع التمويه. كما أنها عضو في الحزب الاشتراكي الموحد، ولهذا فإن شهادتها أمام المحكمة لا قيمة لها، ليس في هذه الأوقات الصعبة، بل إن القضاة سوف يستخدمونها ليلحقوا الضرر بها.

تقول جريته: كَفَى، أنت تَهْلِكِينَ نفسك، انضمي إلى الحزب، ودَعِي الحزب يكافح نيابةً عنك!

— أريد أن أقرر بنفسى القرار الصحيح. وجيورج يقول لي: ما الخطوة الصحيحة؟
إنني أدفع الظلم بعيدًا عني فحسب، تمامًا كما فعلنا قبل عشرة أعوام.
— لكنهم سيتركوك حطامًا، أنت منهكة تمامًا، المائة قضية التي رفعتها، عملك، أطفالك، هذا أكثر مما تستطيعين، لن تقدرى على كل ذلك.
— سأقدر، بدون الحزب أيضًا.

لا تستطيع أن تقدم الأدلة خلال أربعة أسابيع، وهكذا يتحتم على المحامي أن يشرح موضوع التمويه أمام قضاة المحكمة الإدارية وأن يتضرع إليهم: **إن العدالة والحس الإنساني السليم يطالبان بالألا يتم تطبيق القانون حرفيًا، وأن يُراعى روح النص.** إن من ينضم تمويهًا إلى إحدى المجموعات التابعة للحزب النازي حتى يستطيع مواصلة نشاطه السري بدون إزعاج، لا يمكن أن تُطبق عليه المادة ٦ من قانون الاعتراف بضحايا النازية.

العدالة! ستبكي الأفعى تعاطفًا! الحس الإنساني السليم! سيضحك التنين بكل رءوسه التسعة أو التسعة والتسعين لدى سماعه هذه الكلمات. لم تكد تمر ثلاثة أسابيع حتى يبخ رأس الأفعى لدى وزير الشؤون الاجتماعية بَخة سم جديدة في اتجاه «ليندن-أليه».

يكررون على مسامعها أنهم لن يعودوا يعترفون بها مُلاحَقة لأسباب سياسية أو عنصرية. وبناءً عليه فإن الأطفال أيضًا يفقدون حقهم في الحصول على معاش.

ماذا يتبقى لها — إذا لم تكن تريد أن تقع أسيرة الجنون الذي وقع فيه كولهاز بطل كلايست — إلا أن ترفع دعوى جديدة أمام المحكمة الإدارية للاعتراض على أكاذيب المصالح الحكومية، وإنكار المقاومة، للاعتراض على التفكير القبلي والفقر المهين؟

تأخذ الأفعى وقتها، وتترك الضحية ترتجف. وتعلمها، بعد مرور عام كامل، أن رعاية الأطفال شبه اليتامى أمر «من الممكن» أن يحدث، دون أن يكون لها الحق في المطالبة بذلك. ثانيًا: عليها أن تثبت عَوَظها الاجتماعي. ثالثًا: حتى لو كانت فقيرة، تقول الأفعى متهكمةً، فبإمكانها أن تحسن وضعها الاقتصادي بكل سهولة: إنها، تسخر الأفعى، تنتمي إلى دائرة أولئك الأشخاص الذين يكافحون النظام الديمقراطي للدولة والذين يعملون على استمرار النظام الشمولي في المنطقة السوفييتية المحتلة. يمكنها، إذن، تحسين وضعها الاقتصادي بالانتقال إلى تلك المنطقة.

الاستسلام؟ الهروب؟ إلى المنطقة الشرقية؟ إن قوانين الرعاية الاجتماعية — تتهكم الأفعى — وضعت ليستفيد منها الذين يستحقون رعاية ولاية برلين الشاملة فقط. عبر نشاطها السياسي لصالح النظام السوفييتي الألماني عملت هي بنفسها على أن تسوء أوضاعها الاقتصادية.

احتفظي بهدوءك، تقول لنفسها، لا تصرخي، لا تلقي بنفسك أمام مترو الأنفاق. أرادت أن تلطف من غضب الأفعى، أن تعيش في هدوء، ولكن بعد انتفاضة السابع عشر من يونيو^١ — هذا ما تلاحظه الآن — أصبح تهدة الأفعى ذات الرءوس المتعددة أصعب مما مضى، فحيح الأفعى يحتد، أما مفعول خلطة السم الزعاف فيزداد تأثيرًا، لا تتراجع، ولن تتراجع قيد أنملة.

عندئذٍ تدرك أيضًا أنها لن تذهب إلى الشرق، وتحديدًا بعد انتفاضة السابع عشر من يونيو. كما أنها لن تفعل ذلك مطلقًا استجابةً لأوامر أفعى الشؤون الاجتماعية.

هل ما زال أحد يتذكر، هكذا تسأل نفسها، كيف بدأت جريمتي؟ أنني استندت إلى مواد الدستور؟ وأن الآخرين استندوا إلى قانون نازي؟

أوسكار وكوبونات الزبد

من يستسلم لإغراء الاعتراف، يميل سريعاً إلى تجميل فعلته وتزويدها بأمثلة على الشجاعة وبُعد النظر وأفضل النيات. الوضع يختلف بالنسبة لي؛ إنني أدرك يوماً بعد يوم كيف كنتُ بليد الحس وفاشلاً. ماذا كنتُ سأستخرج على سبيل المثال من الرجل الذي كنّا نطلق عليه «القبة الصغيرة»، من السَّكَّير العظيم ونجم المقاومة! كان يتردّد على دائرة الشاعر فوكس، وسط أجواء إباحية مُشبَّعة بالخمِر والتمرّد البهيج ضد القواعد البورجوازية ولوائح الشرطة.

كيف استطعتُ في خضم تلك الأوقات الخشنة، أيام المظاهرات والإضرابات والسجلات التي كانت تُخاض حول العنف، في تلك الأشهر التي غلبها التعاطف الاشتراكي مع يان بالاخ ومع التشيك والفيتناميين، وسط كل تلك الخطط التي نسجتُها عن جروسكورت، وفي غمرة غضبي الهادف إلى فضّح قضاة برلين، كيف استطعتُ بين قراءة الروايات وفراش كاترين أن أجد الوقت لأذهب إلى محاضرات الجامعة، كل ذلك لا أكاد أستطيع تصوّره اليوم؛ أني كنتُ أذهب، مثلاً، إلى تسيلندورف لزيارة مانفريد بيلر، وجونتر برونو فوكس في المنزل المُطل على بحيرة فالد، وعلى بُعد عدة مقاعد مِنّي كان أوسكار هوت^١ يضحك، وأنا المغفّل لم أتحرك لأتحدث معه!

التاريخ مكتوب في مُفكّرة الجيب، غير أنه لا يعني شيئاً. كان ذلك خلال السنوات التي علّت فيها موجة المبادئ وحاول كثيرون ركوبها، آنذاك كانت العقول البسيطة تقرأ في العدد رقم ١٥ من مجلة «كورسبوخ»^٢ إعلان موت الأدب، في عصر كان على الكتابة أن تكون مفيدة على الأقل؛ لم تكن هناك قراءات تُعقد لأن أي منظم لندوة قراءة كان يَخشى الشوشرة والتشويش. في ذلك الوقت جلسنا ذات أمسية، نحو خمسين أو ستين شخصاً، وانطلقنا نضحك ونُقهِقه على التقليد الهزلي الذي قام به بيلر، وهو الذي كان قد هرب من

ألمانيا الشرقية قبل ثلاث سنوات، راحلاً إلى براغ، ثم فرّ إلى ميونيخ بعد الاجتياح الروسي، ثم ضحكناً على مزاح فوكس ونكاته السخيفة. لقد مرّت بي ساعات مثل هذه كنتُ أنسى خلالها أنني كنتُ حتى الأمس عاقداً النية على أن أصبح قاتلاً.

بالرغم من ذلك فإن هذه الأسمية جزء من اعترافي؛ لأننا بعد ذلك — كنا عشرين أو ثلاثين شخصاً — بعد أن حلّقنا تحليفاً رائئاً على أجنحة الأدب، تَجَمَّعنا في حانة جنوبي تسيلندورف، مباشرة بجوار السور، ثم تحدّث صديقي هانيس عن أوسكار هوت، المُسمّى «قبة صغيرة»، الذي يعمل ضابطاً لآلات البيانو، الرجل القصير النحيف الصاحب الذي كان يجلس إلى المائدة المجاورة مع فوكس وبيلر.

تساءلتُ: وهل يكتب أيضاً؟

كلّا، لا بدّ أن هانيس أجاب هكذا، كل الأصدقاء كانوا يَحْتُونه على الكتابة فهو عايش بالفعل قصصاً وروايات، لكنه يمتنع عن الكتابة. لقد نجا من أهوال الحرب في برلين، دون أن يصبح جندياً، ينبغي أن تجعله يحكي لك ذلك. لم يتهرّب من التجنيد فحسب، لقد اختبأ بأوراق مُزوّرة، كانت لديه آلة طباعة، وبها زوّر أوراق هوية وطبع كوبونات المواد الغذائية وقام بتوزيعها، على اليهود والأشخاص المختبئين، حكايات لا تُصدّق، وإذا كان في حالة تَجَلٍّ، فستجد نفسك تضحك على هذا الخراء النازي.

على الفور ذهب فكري إلى آل جروسكورت والاتحاد الأوروبي، ربما كان هناك اتصالات. لم أكن أعرف سوى الشائعة التي تحوم في الأجواء بأن «القُبعة الصغيرة» فعل شيئاً ما ضد النازيين، والآن أنظر إليه بدهشة. أعرف نفسي جيداً، وأعتقد أنني كنتُ شبه مُتَحَجِّر من الرهبة وأنا أطلّع إليه. وجه نحيف، ذو شارب، مليء بالتجاعيد، ساخر، يصلح هذا الوجه كي تصوّره كاترين، وجه من وجوه الأنقاض، لكنه بشوش. لم يكن الرائي يلاحظ أفعاله البطولية، فمثل هذا الإنسان لم يكن يحب التباهي بالمجد والفخار. لم أجروْ على الاقتراب منه حتى بعد أن احتسيت الكأس الثانية، كان يعبُّ الشراب عبّاً، كان يتباهى بكونه سكيراً متفرغاً. أنا لم أكن سكيراً، ولم أطمح في أن أكون واحداً، كما أن عليّ أن أقود سيارتي الواقعة أمام الحانة. بالطبع لم يكن بوسعي أن أترثر معه كما يفعل الصحفيون: سيد هوت، ماذا فعلتُ، يا ترى، أثناء المقاومة؟ كان سيففعني، بسبب كلمة «ترى»، وبسبب «السيد»، والسؤال كله. فرصتي الوحيدة كانت في الاقتراب بمقعدي إلى المائدة المجاورة، وأن أقدم نفسي على الأقل لضابط البيانو الماكر حتى أجس النبض تحيناً لفرصة قادمة أفضل.

ولكن، ولا حتى هذا نجحت فيه، مع أن الأمسية طالت وامتدّت. لم يكن الحياء وحده هو ما منعني من استغلال الرجل الطيب للوصول إلى أهدافي، إنه الخوف من اللعب أمام سكير يصعب للغاية حساب رد فعله، ثم الخجل من شخصية أظهرت خلال ست سنوات من الحرب شجاعةً كانت أكبر ربما من شجاعة كل الشعراء السكارى وصديقاتهم وأصدقائهم معاً. غير أنني في الحقيقة — لم أدرك ذلك إلا فيما بعد — كنتُ خائفاً من نفسي، من عدم تَمَكُّني من إلقاء الأسئلة. كنتُ أشعر بالإعاقلة لدرجة أنه لم يخطر على بالي أن أتخذ من كاترين حجة وأن أصطحبها مع كاميرتها لزيارة أوسكار ثم إمطاره بالأسئلة. حسب ذاكرتي الخُتُون انتهت الأمسية بما طالب به بيلر: هيّا، فلنبتول كلنا على السور! وأرانا نترنح في تلك الليلة المحتملة البرودة ونحن نسير عدة أمتار حتى وصلنا إلى السور، عشرة رجال تقريباً يتبوّلون ناحية السور الخرساني. كنا زمرة من الظرفاء، فلم نكتفِ بهذه «المعمودية»، بل رُحنا نَتبادل المزاح، واستخدمنا القول الشائع في دورات المياه: اقترب أكثر، فهو أقصر مما تعتقد!

أثناء رحلة العودة إلى المنزل، بعد أن احتسيت أربع كنُوس من البيرة على أقصى تقدير، انتابني الغضب تجاه نفسي؛ لأن غريزة البحث والتقصّي تَنَقّصني، ثم عقدتُ النية على أكثر الأشياء جنوناً، وكما هي العادة عندما أعود متأخراً وحدي إلى المنزل. لا بُدَّ من توجيه الأسئلة التفصيلية إلى أوسكار، وفي أقرب وقت ممكن. توجيه الرسائل إلى كل الأشخاص المحيطين بـ جروسكورت والذين يمكن الوصول إليهم، الاتصال تليفونياً، زيارتهم، توجيه الأسئلة، في البداية السيدة رينتس والسيدة ريشتر. ثم التوجه إلى اليهود المختبئين، بالتأكيد يمكن البحث عنهم والعثور عليهم في أحد أحياء برلين. لماذا لا يعرفهم أحد؟ لماذا لا يزالون مختبئين حتى اليوم؟ كنتُ أعرف أين أبدأ، عند أصدقاء أناليزه، آل بلوخ. هي تعمل سائقة تاكسي، وهو يهودي وشيوعي. تخبئه في شقتها المكونة من غرفة ونصف، يحالفهما الحظ، ألف مرة يحالفهما الحظ، يَنحَابَان، يعيشان بالقرب من أناليزه، حتى اليوم في الشقة ذات الغرفة والنصف في «هورست-فيج». يا للحكايات الدرامية ذات النهاية السعيدة التي يمكن قراءتها! يا للكنوز التي يمكن التقاطها!

لم أفعل شيئاً من كل ذلك، باستثناء السيدة جروسكورت لم أتحدّث مع أي أحد كان عضواً في المقاومة، ولا حتى مع الأرملتين رينتس، وريشتر. حقاً، لم يكن بإمكانني أن أتحوّل إلى مؤرّخ بقدرة قادر، باحث ميداني يتنقل بالمُسجَل والورق من مكان إلى آخر في ربوع الوطن مقتفياً كل أثر وكل اسم. لم أُرِد — وكان هذا عين العقل — أن أثقل كاهلي

بالمزيد، وأن تتضخم خططي إلى ما لا نهاية، ولكن هذا ليس عذراً. كان بإمكانني — بدلاً من مطاردة قاضٍ نازيٍّ عجوز متحجّر وجمّع الأدلة ضده — أن أبحث عن المختبئين في صمت، والمجهولين الذين قدّموا العون، أن أسألهم وأكتب عن أفضالهم، وهو ما تم تداركه بعد ذلك بخمسة عشر أو عشرين أو ثلاثين عاماً. كما كان بإمكانني أن أحمس آخرين كي يقوموا بمثل هذه الأبحاث. لكنني — أعترف — لم أفكر إلا في نفسي. من يبحث عن فضيحتي، فهي تكمن هنا، في الكسل والأناية، لا في جريمة القتل.

هذا ما أعنيه بكلمة «فاشل»: ها هنا شاب باسّم مزور وبأوراق قام بتزويرها بنفسه، يعيش وسط نازيين لا حصر لهم في شقة تم إخلاؤها كانت تملكها صديقة، ليس لديه مال، ثم يقرر عام ٤٢ وبمساعدة آلة طباعة، ماكينة يدوية ليتوغرافية، أن يواصل الحياة. يفهم بعض الأشياء عن الطباعة، عليه ألا يظهر بمظهر المبالغ المهول، بل بمظهر المتواضع. يدعي أنه رسام فني في متاحف داليم، وأنه يمر على مطابع برلين ليسأل إذا كانت لديهم هذه الماكينات القديمة. بعد مشاورير لا تنتهي يحصل أخيراً على نصيحة، يقابل مدير مطبعة يبدو عليه أنه ليس نازيًّا. يكفي ما بذله من جهد لكي يتحدث بطريقة لا تجعل المرء يلقي به خارجاً بعد أول كلمة، أن يتحدث بطريقة مُقنعة كمتخصص في آلات الطباعة، التحدث وكأنه يعمل على نحو مشروع، التحدث بطريقة تجعل المدير شخصياً ينزل معه إلى القبو ويقدم له أصغر الماكينات، بل ماكينة يمكن فكّها، التحدث بطريقة تجعل الرجل يعطيه الآلة مجاناً تقريباً، بل ويعيره عربة يد ينقل بها الشاب ماكينة الطباعة، التي يبلغ وزنها تسعة أرباط على كل حال، بدون مساعدة أحد، متنقلاً عبر نصف مدينة برلين إلى أن يخفيها في قبوه، بل ويقدم له أبشع النازيين في المنزل يد العون، ثم الحصول على ورق، وطباعة كوبونات الزبد، وتوزيعها وإهداؤها بعد مشاورير لا تنتهي على قدميه عبر برلين المدمّرة، وتوصيلها إلى المختبئين. مثل هذا الرجل يجلس على بعد مترين منك، وأنت تعجز عن أن تجعله يحكي لك، أو أن تستدرجه لكي يبوح ولو بإحدى ذكرياته الأسطورية. بعد سنوات طويلة فعلها شخص آخر، ولم تقرأها أنت إلا في التسعينيات بعد أن مات تشارلي تشابلن المقاومة.

سراب على «جبل الشيطان»

سقط الثلج في الليل، اثنان أو ثلاثة سنتيمترات، آخر ثلوج الشتاء الطويل. إذا ارتقى المرء «توفلسبرج»، أو جبل الشيطان، في الطقس البارد بحق فإنه يرى مناظر رائعة في تنوعها، كما يستطيع أن يمد بصره إلى أبعد نقطة ممكنة عبر السور والحدود. مزاج كاترين راثق، ربما لأنها قررت أن تسافر بدوني إلى المكسيك، ربما تُسعدُها الرحلة كفيلم روائي مليء بالإثارة والتناقضات. كانت تحمل الكاميرا، وأثناء صعودنا إحدى هضبتي الأنقاض المنخفضة، أمسكت بيدي.

بمجرد وصولنا إلى الطريق الأملس الذي يحاذي ذرى أشجار غابة «جرونه»، أحسّنا بالهواء أنقى، ومع كل خطوة كانت الصورة الغائمة للمدينة البعيدة تكتسي معالم أكثر وضوحًا وتجسدًا. أسطح المنازل، أبراج الكنائس، العمارات السكنية العالية، مداخل، أوعية الغاز، الشريط الضيق والبعيد بُعدًا لانهائيًا الذي تحيط به الحقول المتاخمة للمدينة التي تتناثر فوقها الثلوج تحت سماء شتوية مضيئة، كل ذلك بدأ لي قريبًا وبعيدًا في آن، دانيًا ونائيًا، لدرجة أنني — بعد أن كاد الرعب يسيطر عليّ أمام هذا المنظر المألوف — قطعْتُ حكايتي الساخطة عن قضاة أناليزه جروسكورت. النظرة من القطاع الغربي في اتجاه الغرب كانت تتغلغل بعيدًا في القطاع الشرقي، قلب المدينة، وفي الضباب البعيد بجانب عمود النصر يلمح المرء بُرج المدينة الجديد.

امتدَّت برلين أمامنا كالسراب، تبتعد عنا كلما ارتقينَا الجبل واقتربنا منها. صورة بانورامية يعكسها الهواء، يكاد يبلغ اتساعها ٣٦٠ درجة، لم تكن تظهر أي شيء مما كنّا نسميه «حياتنا»، لا شيء، لا مسكننا أو دراستنا أو تمرُّدنا أو صعلكتنا. وكأننا غير موجودين في هذه الواحة في قلب صحراء غابات الصنوبر. لا قضاة، لا رجال سياسة، لا موظفين، ولا متقاعدين، ولا كل تلك الأشكال الفظة. إننا نتساوى جميعًا — هكذا قالت

الصورة — تحت الأسطح وأمام برج اللاسلكي والمركز الأوروبي الكنيسة المبنية بالطوب الأحمر. بدت المدينة بالأسفل حيادية تمامًا مثل واجهات بناياتها، رحبة ومتسعة، وكثيرة الإمكانيات. المستقبل، العقل، الحجاج الأفضل، والحق والخير والجمال، كل ما فُكِّرَتْ فيه آنذاك كان في صفِّنا، وكان يتناسب مع برلين المجنونة المشبعة المنقسمة. أفكارنا، هكذا توهَّمت، ستنقذ برلين من التحجُّر والتَّعَفُّن. وهكذا استيقظ فيَّ شعور جديد للمرة الأولى خلال ست سنوات: إنني أحبها، هذه المدينة الملعونة!

وفي اللحظة التي أردتُ فيها أن أنطق بهذه الفكرة الرهيبة، باحثًا عن كلمات مناسبة، سألتني كاترين: ألم تدمهم أيضًا بالذخيرة؟
لم أفهم على الفور أنها تعني أناليزه جروسكورت.

— بالطبع فعلت، غير أن ذلك لا يهم كثيرًا؛ لأن هؤلاء الموظفين والقضاة يقبلون كل كلمة تقولها ليستخدموها ضدها، بالإضافة إلى ذلك فإنها لم تمد الحكومة البرلينية بذخيرة أكثر مما نفعل نحن اليوم عندما نحتج أو نعترض. الفارق هو: كانت الفترة أصعب، وكانت وحدها. بالطبع كانت تتعاطف مع ألمانيا الشرقية، ولكن على نحو لائق إلى أقصى حد.

— أقصد: هل ارتكبتُ خطأ من وجهة نظرك؟

— لا شيء، أحببتها، لا شيء تقريبًا. كانت مثل ملايين غيرها مُعارضة لإعادة تسليح ألمانيا الغربية، ومن أوائل مَنْ دفعوا ثمن ذلك عبر منعها من ممارسة عملها. كانت باختصار سابقة لعصرها في أشياء عديدة. ما يمثله الثاني من يونيو بالنسبة لنا، هو الخامس عشر من أغسطس بالنسبة لها: عندما تسلك الشرطة سلوكًا إجراميًا، فيجب — على الأقل — إجراء تحقيقات في الأمر، وهذا ما فعلوه في جامعة برلين الحرة بعد مصرع أونيزورج^١. كانت لجنة جروسكورت، للأسف، في يد مَنْ يحركها، هذا هو سوء حظ السيدة جروسكورت. ثم سافرت عام ١٩٥٢م إلى بولندا، إلى أوشفيتس، وتحدَّت مع أقارب الضحايا، فاتخذوا من هذه الزيارة ذريعة ليوجهاها الاتهامات بشماتة، هنا أيضًا تَصَرَّفَت التصرف الصحيح، ولكن قبل الأوان. يمكنك أن تقول إن ذلك كان تدخلًا منها في سياسة ألمانيا الغربية تجاه الشرق. ومن غيرها في الخمسينيات كان يصر على أن النظام الأساسي الديمقراطي الليبرالي لا يعني أن تقول نعم، بل إمكانية أن تُعبَّر عن رأيك النقدي المغاير؟ هذا شيء ما زال علينا أن نعلمه للأغلبية اليوم. وفي النهاية فإنها — مضطرةً — مارست عملها في الشرق والغرب؛ أي إنها بذلت جهدًا في سبيل الوحدة الداخلية، وهو ما يطالب به كل خطيب مفوه. صوّبت كاترين إليَّ نظرة مُستَريّة.

– نعم، هذا ما تدّعيه دعايات لجنة جروسكورت، أعرف، ولكن الدعايات الغربية استخدمت الأسلوب نفسه، انحياز إلى جانب واحد، أبيض وأسود، إنها تنضح بالشماتة والكراهية. كلا الجانبين كان يكذب، في الشرق أكثر من الغرب. بالإضافة إلى ذلك كانت المساعدة القانونية المحددة بالنسبة لها أهم من لغة الكتيبات. عندما أقول: لم تفعل تقريباً شيئاً خاطئاً، فإني أفكر في ترشيحها لنفسها لمجلس النواب البرليني، لم أحكِ لك ذلك من قبل، في ديسمبر ١٩٥٤م، على قائمة الحزب الاشتراكي الموحد، وهي لم تكن عضواً فيه، في مكان في ذيل القائمة باعتبارها ضحية للفاشية. لم يكن هذا تصرفاً جميلاً، ولا سيماً بعد عام ونصف من أحداث السابع عشر من يونيو. كانت تريد — هذا ما تقوله — أن تقوم بعمل رمزي فحسب، فلم يكن أحد يتوقع انتخابها، كانت تريد لفت الأنظار إلى وجود ضحايا الفاشية، وأن تبعث بإشارة مناهضة للنازيين في الحزبين الديمقراطي المسيحي والحزب الليبرالي. إلى ذلك فإن برنامج الاتحاد الاشتراكي في الغرب كان يخلو من الأهداف المعادية للدستور، كما أنها لم تلق خطاباً واحداً أمام هذا الحزب. عليك أن تتفهمني ذلك. إن من يكون سنوات طويلة ضحية لما يسمى برابطة الكفاح ضد اللإنسانية، وهو أمر عُرف بعد ذلك بسنوات، من يتلقى المكالمات الإرهابية والسباب والأكاذيب المتعمدة.

قالت كاترين: خلاص، خلاص!

الجزء الأخير من الطريق مائل، والجليد قاسٍ أُمّس. انزلت قدامنا ولم نستطع مواصلة السير إلى أعلى إلا بخطوات صغيرة عرضية فوق المنحدر. عندما وصلنا إلى القمة المستديرة، أرسلنا البصر إلى القمة الأخرى لجبل الشيطان، حيث ما زال الركام مكوماً. الرياح ضعيفة والبرد محتمل. كنا وُحْدنا تقريباً على القمة؛ بالنسبة للمتزلّجين كان الجليد قليلاً، وبالنسبة لهواة الطائرات الورقية كانت الرياح ضعيفة، وبالنسبة للمتجولّين كان الطريق زلقاً.

قلتُ لها: إن صراع الحرب الباردة كله صراع لغوي أيضاً. لم يقدم لها أحد لغة تناسب أفكارها ومعتقداتها بعض الشيء إلا في الشرق. لكنهم استخدموها، ومنحوها الأوسمة. أما الغرب فكان مشغولاً بكراهيته للشرق إلى حد أن أناليزه لم تسمع هنا سوى لغة حربية. ولهذا هاجر أشخاص مثلاً بالعشرات إلى ألمانيا الديمقراطية أو انضموا إلى حزب مناسب من أحزاب الغرب، لكن أغلبهم كان يخرج من الحزب مُحبطاً بعد عدة سنوات، لقد قاومت هذا الإغراء أيضاً، ولهذا تحديداً راح القضاة يتجاذبونها على مقصلة مواد القانون.

صدرت عني هذه الجملة بتلقائية، وكنتُ فخورةً بها، يجب تسجيلها على الفور. غير أن كاترين واصلت إلقاء الأسئلة دون تأثر: أوسمة؟ ألم يكن باستطاعتها أن تفرضها؟ والحجة: أنا على الحياد، وهذا وسام من الاتحاد الاشتراكي؛ أو: أنا برلينية غربية.

- قالت إنها كانت تجد هذه الأوسمة فظيعة، غير أنها نظرت إلى كلا الوسامين على أنهما اعتراف بالمقاومة التي أبداها جيورج. أعتقد أننا لا نلتفت على نحو كافٍ إلى العداء الذي كان مسيطراً على العلاقة بين الشرق والغرب آنذاك. من ناحية هناك ممثلو الحكومة البرلينية الغربية الذين أهانوها أمام المحكمة ناعيتين إياها بالطبيبة التي تمسك بحقنة سموم، مُتهكِّمين من مقاومة النازيين، ومن الناحية الأخرى يأتيها بعض الاحترام، هناك يعتبرونها محبة للسلام. هل عليها في هذا الوضع أن ترفض مثل هذا الوسام وتغضب القلائل الذين يقفون إلى جوارها ويُحيون ذكرى زوجها؟ إنَّ فَقْدَ الدِّعْمِ والتعاطف من جانب الأصدقاء كان يثير مخاوفها أكثر من إمداد غرمائها بذخيرة جديدة. كما أنها حصَلَتْ على بعض المال الذي كانت آنذاك في أمس الحاجة إليه، لكنها لم تكن فاسدة، أنا متأكدة من ذلك، في هذه النقطة أيضاً. لم تكن شخصياً فخورة إلا بميدالية «كلارا تستكين»؛ لأنها لم تكن تُمنح إلا للنساء، النساء العاملات المثاليات الجسورات. ولماذا كان يتحتم عليها أن ترفض تكريماً مثل هذا، إذا كان قد سُمح في الوقت نفسه، وابتداءً من عام ١٩٥٧م، بحمل أوسمة القَتْلَة التي وزعها النازيون؟

راحت كاترين تضبط كاميرتها، ازدادت ألوان السماء وضوحاً. اكتسبت السحب الفاتحة لوناً أحمر خفيفاً، أما الغمام الداكن في الشمال الشرقي الذي كان يعد بهطول ثلوج جديدة فقد أكَسَبَتْهُ الشمس المنحدرة لوناً بنفسجياً. زرقة السماء أيضاً اكتسبت لوناً أغمق، بينما راح اللون الأحمر المشبع يتنامى في الجانب الذي سطعت فيه الشمس. كانت لعبة السماء مع الألوان تتغير وتتبدل في كل دقيقة، في كل ثانية. لم أحسد الرِّسَّامين أو المُصوِّرين على عملهم عندما يُخلِّدون أكثر هذه اللحظات بهاءً. انشغلت كاترين بتبديل العدسات والمرشحات. لم يكن مسموحاً لي أن أزعجها بأي ملاحظة. تصوير الطبيعة، هكذا فُكِّرْتُ، أفضل من دراسة علم الاجتماع.

سمعتها تلعن، ثم استسلمت.

- الاستاد الأولمبي، أردت أن أصوره وفوقه السماء الصاخبة بالألوان، قالت: ولكننا بعيدون للغاية.

أَحَدُنَا نهبط مُتَشَبِّثِينَ ببعض الشجيرات على المنحدر إلى أن وصلنا إلى طريق يخترق الغابة. تساءلتُ كاترين:

– أَلَمْ تكن السيدة جروسكورت في الحقيقة غير سياسية؟
– هُراء! نعم، لقد نشأتُ في عائلة من كبار البورجوازيين، رجال صناعة، وربما ظلَّت غير سياسية لو كانت عاشتُ في أزمنة أقلَّ خطورة. لقد سَيَّسَهَا النازيون، آنذاك، وعلى وجه الخصوص بعد الحرب: أن تواصل العمل انطلاقًا من مبادئ زوجها، لم تكن تريد أكثر من ذلك أبدًا. ولكن عندما تَرَيْنَ أن الموظفين النازيين هم الذين يشغلون الوظائف، أن جنرالات النازيين قد عادوا لِيُصْدِرُوا الأوامر للشُّبَّان، عندما تتقابل جمعيات «سلاح الإس إس» النازية وتحتفل، أو عندما تُكْرِّم الحكومة الفِرَقَ الوطنية التي تَتَحَرَّقُ شَوْقًا إلى غزو بولندا أو تشكوسلوفاكيا، والأفضل أن يحدث ذلك غدًا، بينما تمنع اجتماع الملاحقين من النظام النازي علنًا.

– أعرف، ولكن هذا كله أخلاقي فقط.
– فقط، تقولين: فقط؟ منذ متى والأخلاق ليست سياسة؟ هل علمك أساتذتك في الاجتماع ذلك؟

وعلى الفور اشتبَّكْنَا في نزاع لا معنى له حول السلوك السياسي المثالي، وحول العبارات المبتذلة التي شاعت أواخر الستينيات. ولِحُسْنِ الحظ ليس عليَّ أن أكتبها في اعترافي.

الإضرار بالحياة، الإضرار بالحرية

البقية تأتي: لا تتخلّى الطبيبة جروسكورت عن مغامرة البحث عن القانون في دولة القانون.

أُعيدت صياغة قوانين التعويض، تَخْتَفِي تعبيرات مثل «ضحايا الفاشية»، و«مُلاحق سياسيًا وعنصريًا»، والآن فإن «القانون الاتحادي لتعويض ضحايا الملاحقة النازية» هو الذي يُحدّد الضرر الذي أصاب الناس في حياتهم وحرّيتهم. فلتُقَدِّم إذن مع محامية شابة نشيطة طلبًا جديدًا في خريف ١٩٥٤م، يهدف إلى إعادة الاعتبار إلى جيورج وإعادة الاعتبار لكرامتها، مُصرّةً على الكلمة القديمة «كرامة».

عليها أن تُثبِت كيف كان الوضع الاقتصادي لجيورج خلال السنوات الأخيرة قبل موته، وأن تتحرى عن دخله طبيبًا في موابيت وأستاذًا في الجامعة وطبيبًا ذا عيادة خاصة في مستشفى «لاندهاوس». عليها أن تبحث عن زملاء جيورج القدامى كي يُحرّروا لها شهادات عن نشاطه المهني ويحسبوا دخله. يطلبون الإقرار الضريبي للأعوام من ١٩٣٩م حتى ١٩٤٤م. أدلة تثبت أن موته له علاقة سببية مع الملاحقة التي تعرّض لها. الحكم بالإعدام لم يُعدّ موجودًا. يحمل روبرت آلة تصويره إلى غرفة المعيشة في «ستالين-أليه»، ويضع الحكم الصادر بحقه على البساط، ويقوم بتصويره. عليها أن تُقدِّم إقرارًا يعادل القسم عن الاعتقال والتفتيش، وما أتلّفه الجستابو. لا يعرف مُوظفو المصالح الحكومية شيئًا عن المقاومة، لقد فهمت ذلك عبْر السنين، إذن، تُرفق كتابًا من الغرب، «التمرد الهادئ» للكاتب فايسنبورن، وفيه يحتفى المؤلّف بالاتحاد الأوروبي ودور جيورج فيه. لا طلب بدون عقد زواج وشهادة ميلاد الأطفال وشهادة وفاة. عليها توضيح مقدار الدخل وإيجار مسكنها. إضافةً إلى الأضرار التي أصابت حياة زوجها يمكنها أن تُطالب بتعويض عن الأضرار التي لحقت بحريّتها، وبأموالها وثرواتها، وتُقدِّمها المهني. مسك الختام طلب

إضافي: في أي منظمة نازية؟ إذن الرابطة النسائية، لا بُدَّ من ذكر ذلك. في أي المنظمات الشيوعية؟ لا يوجد، ولا حتى رابطة ثقافية، أو رابطة النقابات الألمانية الحرة، أو منظمة الملاحقين من النازية، كلاً. غير أنهم لا يستسلمون سريعاً: هل قمتَ ابتداءً من التاسع من فبراير ١٩٥١م بنشاط شيوعي؟ أو هل قمتَ منذ ذلك الحين بتشجيع أهداف المنظمات الشيوعية، أو الديمقراطية الشعبية الأخرى، وهل كنتَ عضواً في منظمة شبيهة؟ كلاً. إذا كانت الإجابة بنعم، فأنتُ المنظمات؟ تشطب على هذه الخانة. ثم التاريخ والتوقيع.

يستغرق الأمر عامًا حتى تجمع كلتا المرأتين المستندات المطلوبة. مكالمات تليفونية لا تُحصى، رسائل، مشاوير إلى المكاتب الحكومية، ساعات من الانتظار. عمل شاق، ولكن كل شيء قد تم إثباته الآن والتصديق عليه وفق اللوائح، وأخيراً يمكنهما، في سبتمبر ١٩٥٥م، تقديم الأوراق في مصلحة التعويض في برلين، مصحوبة باستمارات الطلبات الأخرى باسم الأبناء.

تحتاج المصلحة إلى عدة أشهر، السيدة جروسكورت سعيدة بسبب هذه الاستراحة من النضال مع الأفعى. تريد أن تنسى كلمة «نضال»، إنها تكره النضال، ولا تحب الكلمة التي ينسبها الشرق إليها، «مناضلة من أجل السلام»، إنه تعبير خاطئ ومنبئري، تمامًا مثل تعبير «مقاوم» الذي استقر في الغرب. إنها تفضل القول: الشرفاء. منهكة تمامًا هي بعد أربعة أعوام من المقاومة المستميتة للأفعى الرابضة في المصالح الحكومية والمحاكم، لم تستطع منذ الحرب أن تأخذ إجازة، سوى بضعة أيام في الشرق أو في فيردا، تحلم بالراحة والاستجمام، بعيداً عن ألمانيا. وها هي هدية تهبط عليها من السماء، دعوة إلى مؤتمر في دافوس في مارس، أسبوع من الدورات العلمية، هواء الجبال، تتحمل شركة الأدوية كافة التكاليف، ليس عليها إلا أن تجهز جواز السفر وتقدم طلباً.

لكن الأفعى لا تغفو، لا تتركها بعيداً عن أعينها، لا تدعها تهرب. الأفعى الكامنة في أعلى رسالة رئيس الشرطة تخبرها بتاريخ ٢٣ نوفمبر ١٩٥٥م بأن المصلحة لا تستخرج جواز سفر لأشخاص مثلها: إن النشاط السياسي المناهض للديمقراطية الذي قمتَ به حتى الآن يجعلنا نعتقد أن حياتك جواز السفر سوف يلحق ضرراً جسيماً بمصلحة جمهورية ألمانيا الاتحادية وولاية برلين.

ثم تتنازل الأفعى وتذكر الأسباب: لجنة جروسكورت، رحلة إلى المناطق الألمانية الخاضعة إدارياً للسيطرة البولندية، ثم «وسام الاستحقاق الوطني»، و«ميدالية كلارا تستكين» من ألمانيا الديمقراطية.

جواسيسهم يعملون بكفاءة، لكنهم جهلة، تقول للمحامية، كل شيء يستخدمونه ذخيرةً تُطلق نحوها. لقد مُنِحَ الوسام لها نيابةً عن جيورج؛ تكريماً للمقاومة ضد النازية. هل كان عليها أن ترفضه، لا شيء إلا لتريح رأسها من المتاعب هنا؟ إنكار المقاومة إذن بدافع من الانتهازية. لماذا لا يجعلونها تنعم بتقدير صغير وسط هذا السيل من الكراهية الذي يهطل فوق رأسها؟ أما «ميدالية كلارا تستكين» فتمنح للنساء الجسورات، لقد أراد هافمان أن يُكرّمها بعد أن انسحبت من اللجنة. ثم الرحلة إلى بولندا، لم تكن تمر بأراضٍ ألمانية، بل كان هدفها أوشفيتس، برفقة مناضلين آخرين من حركة المقاومة، ولا سيما من فرنسا. هل تُهدد زيارة أوشفيتس الآن جمهورية ألمانيا الاتحادية؟ أما اللجنة التي هجرتها منذ زمن بعيد، اللجنة التي احتضرت منذ زمن بعيد، هل ستظل تهمة تواجهها حتى أبد الأبديين؟

دعوى أخرى، الرابعة بعد الدعاوى التي رُفِعت أمام محكمة العمل، ومحكمة الولاية، والمحكمة الإدارية لتنال تعويضاً، الآن أمام المحكمة الإدارية مرة ثانية من أجل الحق في حيازة جواز السفر.

تَرُدُّ الأفعى الكامنة لدى رئيس الشرطة بالحجج القديمة التي استخدمتها محاكم العمل، باقتباسات مُسهّبة من صحف برلين الشرقية عن لجنة جروسكورت، وكأن السيدة جروسكورت مسئولة عما تكتبه صحافة الحزب الاشتراكي، وكأنها أولبرشت، بل أسوأ من أولبرشت؛ لأنها تتخفى، والأسوأ في الأمر أنها لا تعيش لدى أولبرشت.

إذن الرد مرة أخرى، كل شيء من البداية. أناليزه مُعجبة بصبر محاميتها في مواجهة عناد الأفعى: المساعدة القضائية كواجب من واجبات لجنة جروسكورت، براهين تُثبت أن لا علاقة لها باللجنة منذ وقت طويل، ولا يد لها إطلاقاً فيما كُتِبَ عنها، ثم مرة أخرى الحديث عن مقاومة جيورج. مرة أخرى محاولة شرح موقفها: إذا كانت المدّعية تشعر بواجبها في أن تساهم بجهد لها لكي تمنع وقوع تعديّات وسط الصراع التعيس بين الشرق والغرب، وإذا كانت وجّهت نداءً إلى ضمائر الدوائر المشاركة كلها ... الضمير، كلمة تُحب الأفعى سماعها، ثم تكرر: ليست شيوعية، بل مناصرة للسلم أجرت اتصالات بناء على خبرتها المُرّة مع تلك الدوائر التي — حسب رأيها — تُناهض الفاشية والإرهاب، وتُناضل من أجل السلام.

مرة أخرى يبصق الوحش بحكم قضائي، في فبراير ١٩٥٦م. تُرفض الدعوى، وعلى الطيبة تحمّل المصاريف: لا جواز سفر. السُّمُّ البرليني بدلاً من الاستجمام في دافوس.

وهل كان أحد ينتظر من المحكمة الإدارية شيئاً آخر، أو من الرؤوس الأخرى للأفعى؟ المحكمة الإدارية تستخدم حُجج مَحَاكِمِ العمل وما قامَتْ به من لِيِّ الحقائق، وكذلك ما قام به رئيس الشرطة من تهويل للأمور، ثم تضخم كل ذلك مرة ثانية. ولأن السيدة جروسكورت تتمتع بثقة كبيرة باعتبارها أرملة أحد مُعارضِي النازية المُقتولين، وتستجد في البلدان الأخرى أذاً صاغية وتفهُماً، فإن القضاة يخشون أن يُصدّق الناس آراءها عن جمهورية ألمانيا الاتحادية وبرلين، وهي آراء مُعادية للنظام الأساسي الديمقراطي الحر. هذا هو سبب آخر يمنح مَنَحها جواز سفر.

فات أوان رحلة سويسرا على كل حال، إلا أنها لا تريد أن تظل محبوسة في ألمانيا، الدعوى الخامسة إذن، الاستئناف لدى المحكمة الإدارية العليا. تَطْلُبُ المحامية النظر إلى السيدة جروسكورت أخيراً على حقيقتها، امرأة تريد مَنَعُ نُشُوبِ حروب أخرى. مرة أخرى نداء إلى النزعة الديمقراطية لدى الأفعى: من سِمَاتِ الديمقراطية الحقّة إعطاء الفرصة للمُخالفين في الفكر السياسي لكي يُعبّروا عن رأيهم وعدم إشعارهم بسطوة رأي الأغلبية.

عندئذٍ تفكر الأفعى في شيء جديد: التسويف والمماطلة، استنزاف الخصم. طرحت المحكمة الإدارية العليا عدة أسئلة بخصوص اللجنة: أيّ الحقوق الديمقراطية أرادت لجنة جروسكورت حمايتها؟ وما هي لائحة اللجنة؟ مَنْ هم الوطنيون؟ وَمَنْ هم المُحرّضون على الحروب؟ وَمَنْ هم — من فضلك — الفاشيون؟

أجابَتْ حتى على هذه الأسئلة، رغماً عن إرادتها، متعبة، بكل ضمير.

ما كادت تفرغ من هذا الواجب المدرسي لتنتزع حق كل مواطن في الحصول على جواز سفر، حتى وصلها كالقضاء المستعجل إخطار من محكمة التعويض، عدة أيام قبل عيد الميلاد في عام ١٩٥٦م: كل الطلبات والإثباتات والوثائق ليس لها قيمة، لا شيء، ولا مارك بسبب مُلاحقة جيورج وقَتْلِهِ؛ لأنها شاركت في أنشطة لجنة الاستفتاء الشعبي، وبذا حاربت الدستور، وساندت نظام حكم فردي غاشم.

لا تترجع الأفعى، مَحْزُونُ السم لا يفرغ، إنها تريد أن ترى ضحيتها مُلقاة على الأرض، مُنهكةً وبأكيةً مُستعطفة. ليس أمام أناليزه اختيار آخر إلا أن ترفع دعوى أخرى، للمرة الأخيرة، فموضوع الدعوى هذه المرة هو جيورج، وليس رَبَّ عَمَلٍ عنيداً أو الحق في الحصول على جواز السفر.

دعوى أخرى، السادسة، في مايو ١٩٥٧م لدى محكمة ولاية برلين ضد ولاية برلين، ممثلة من خلال وزير الداخلية وينوب عنه مدير مصلحة التعويض. تعليم الديمقراطية

للأفعى مرة أخرى: إن وجود تعارض مع برنامج حكومة ألمانيا الاتحادية لا يعني في حد ذاته نشاطاً معادياً للدستور. إن من حق كل مواطن، بل من واجبه، أن ينتقد رأي إحدى المنظمات الحكومية، أو قانوناً، أو لائحة من اللوائح، ولا سيما فيما يتعلق بقضية مهمة ومصرية مثل إعادة تسليح ألمانيا. ومرة أخرى تذكر أسماء الذين تبناوا آنذاك الرأي نفسه. ومرة أخرى تحيل إلى المحاكم التي برأت — حتى في برلين — أنصار الاستفتاء الشعبي من أي تهمة. مرة أخرى ترجو الأفعى أن تدرك أن الطيبة بعيدة كل البعد عن أي نشاط معادٍ للدستور، وأن مساندة نظام حكم فردي غاشم لم يكن يوماً في نيّتها.

ليس الأفعى المستولة عن التعويض كسولة، إنها تنفث سماً مضاعفاً ومثلثاً: لقد أرادت عبر الاستفتاء الشعبي أن تُرغم البرلمان والحكومة، مُنتهكةً بذلك مواد الدستور. تستند الأفعى — حتى تصيبها بالخرس — إلى الحكم الصادر من أفعى محكمة العمل في الولاية. ثم تنهال على أذنها بالاتهامات والتفسيرات الملتوية والأكاذيب التي نشرتها أفعى الشرطة عن لجنة جروسكورت التي هي وسيلة مهمة من وسائل النشاط الشيوعي الهدام.

لم تعد تستطيع قراءة كل ذلك أو سماعه، تقدم إقراراً علهم يفهمونها أخيراً. أود أن أطلق على هذا الإقرار اليوم «المرسوم الجروسكورتى»:

عندما أنظر إلى مرضاي، أجد ما يزيد عن نصفهم بحاجة إلى المعونة الطبية من جانبي؛ لأنهم يعانون من عواقب الحرب، ولم يستطيعوا بعد التغلب جسدياً ونفسياً على هذه المعاناة. لا يمكن، ولا يجوز في المستقبل، أن نطلب من الأطباء أن يزيلوا الأضرار الصحية الناشئة عن الحرب والتي تزداد إلحاحاً. إننا نعلم أن علينا مكافحة المعاناة المنتشرة في العالم التي لم يتسبب فيها الإنسان؛ مثل أمراض السرطان والأوبئة وما شابهها. وإننا عازمون على بذل الجهد للوصول إلى هذا الهدف. ولكن هذه المهمة لا يمكن إنجازها إلا إذا عمّ السلام، وعلى الطبيب أن يُشارك مشاركة إيجابية من أجل أن يظل السلام سائداً.

بكاء الأمهات لدى رؤية الدبابات

يا لها من مفاجأة! وصلتنني من أمي رسالة سميكة، كان ذلك حتمًا أواخر مارس. عندما سألتها عن السيدة جروسكورت أثناء أيام عيد الميلاد، قَلَبَتْ أمي في بعض الأدراج وأخرجت ما كَتَبَتْه في فيردا خلال شَهْرِي مارس وأبريل ١٩٤٥ م، ثم طَبَعَتْ كل شيء على الآلة الكاتبة. لم تكتب في حياتها يوميات إلا آنذاك، عندما انتهت الحرب وجاء الأمريكيان، وفيها وجدت بعض الأشياء عن السيدة جروسكورت. ولكنني مُحَرَّجة، هكذا كَتَبْتُ لي، بسبب هذه الأوراق التي أُعْطِيها لك، إلا أنني كُنْتُ صغيرة للغاية.

ثمانِي صفحات بالخط الصغير، قرأتها فورًا.

«٣٠ / ٤ / ٤٥. يوم الجمعة العظيمة. في الصباح تَحْتَمُّ على قوات الدفاع الشعبي في القرية التَّجْمُع وبدء المسيرة. جاءهم الأمر بالتوجه إلى أيزناخ. وداعُ صعب! القُدَّاس الإلهي بدون إزعاج. بعد ذلك سيقوم الأطفال الذين يَنالون الأسرار المقدَّسة لأول مرة بتزيين الكنيسة استعدادًا للاحتفال بهم يوم عيد القيامة. تبدو الكنيسة بالفعل جميلة للغاية. لا تنقص إلا أكاليل الزينة. وعلى المذبح سَيُوضَع المفرش الأبيض والزهور. لن نقوم بهذا إلا في الغد. بعد الظهر، نحو الثانية والنصف، أرى قوات الدفاع الشعبي تَعود إلى القرية، ثم أسمعهم يقولون: إن الدبابة الأولى ستصل إلى هنا خلال ثلاث ساعات. هل هذا صحيح؟ على كل حال أتأكد من أن متاعي الذي سأخذه خلال السَّير جاهز. نسمع أزيز الطائرات والرصاص. أذهب إلى الأطفال وأقول لنفسي: من المستحيل أن أهرب بالرضيع والطفل المريض عبْر الغابة، إذا تَحْتَمَّ عليّ ذلك وإذا صدر الأمر. نحن في يد الرَّبِّ الحنون، فليغفر لنا ذنوبنا. ألم يُصَلِّب المسيح من أَجلنا؟ وليدخلنا الرَّبُّ في ملكوته اليوم إذا كانت هذه إرادته! يريد الكبير أن يتفرج على الكتاب المقدَّس المصور. يُناسبني هذا تمامًا. أجلس

بجانبه. وفجأة أسمع أزيز طائرات تطير فوقنا على مستوى منخفض تمامًا، ومن الشارع تتصاعد فرقعات وهدير. بعد وهلة أذهب إلى الشباك لأرى ما يحدث. أرى دبابة تلو الأخرى تزحف من اتجاه لانجنشفارتس. ولأن كل مُقاومة نُبديها نوع من الجنون فقد غلّقوا علمًا أبيض عند بنك الائتمان. والآن، منذ الخامسة إلا الربع تقريبًا، والدبابات والعربات المدرّعة والسيارات الصغيرة الرشيقة تخترق القرية بلا انقطاع في اتجاه رينا-نويكيرشن. أنتهز فرصة أن طفلي الأكبر هادئ، وأنه يتفرّج في سكون على الكتاب المقدّس المصوّر، وأخرج إلى المزرعة، حيث أجد آل جروسكورت. تبكي السيدة الدكتور «ج»، والسيدة بلومبه تقول لي: «لو كانوا جاءوا قبل عام، لكان زوج ابنتي ما زال على قيد الحياة!» لم أعد أطيق سماع ثرثرتهم. تجنّبُهم. وطفرت الدموع من عيني أيضًا، ولكن لأسباب أخرى في الحقيقة. مسكينة يا ألمانيا، مسكينة يا ألمانيا. ما أكثر التضحيات التي ضحّى بها الناس في الحرب! والآن يا للبؤس الذي سنيّتش: بطالة، مجاعات، أمراض! أشياء لا يتصورها العقل. العزاء الوحيد الباقي لنا هو أننا نعرف أن يد الله تحميننا، وأنه يعلم احتياجاتنا قبل أن نطلبها منه. بعد ثلاث إلى أربع ساعات تمرّق بسرعة عظيمة دبابة بعد الأخرى عند منزل آل لوتسن في زاوية الطريق. في المساء ساد الهدوء. بين الحين والآخر تعبر الطريق سيارة بمفردها. «في البداية أدهشتني المؤرّخة التي لم أكن أعلم بوجودها، ثم سذاجة المؤرّخة. وما حدسته من أن حياتها كانت أعمق تشابكًا مع حكاية جروسكورت ممّا ظننت.

في المساء عرضت هذه الأوراق على كاترين، شاعرًا بالانتصار؛ لأنها تبرر حماستي لجروسكورت. قالت كاترين: إنها على كل حال صريحة وأعطتكم اليوميات، بالرغم من أنها تعرف أنك تفكر تفكيرًا مختلفًا تمامًا.

- ومع ذلك: ليس هناك حرف من التعاطف. مع أنها دائمًا متعاطفة مع الجميع.
- كم كان عمرها؟
- ٢٣.
- طيب! ومن ربّاه؟ نازيون ومسيحيون، كما نعلم. إذن، لا تكن قاسيًا معها هكذا!
- ولا كلمة أسف على جيورج جروسكورت.
- من أين لها أن تعرف ما تعرفه أنت اليوم؟
- جربى هذا الحديث في وقت كانت كاترين تستمتع فيه استمتاعًا متزايدًا بمعارضتي. بالطبع كانت على حق. وأنا كنتُ الأبله الذي لا يريد الاعتراف بذلك.
- «لم أعد أطيق سماع ثرثرتهم. تجنّبُهم.» هذه الجملة أشعلت نار حماستي. عندما كنتُ أشعر أنني أكلّف نفسي فوق طاقتها، أو عندما أفكر بسرعة في الاستسلام، فإن أكثر

النساء وداعةً كانت تمنحني العزاء، أُمي الخائفة. لقد تجنَّبْتُهم، والآن عليَّ أن أُكفِّر عن هذه
الخيانة التي ارتكبتها، أن أحمل الفضيحة، ليس مسموحًا لي بأن أتجنَّب أحدًا. وخاصةً
الآن!

زيادة قدرة الإنجاز البدني أثناء العمل بقناع الغاز

حتى القنّلة يلتزمون باللوائح. يرسل فرايزلر و«ر» حكم محكمة الشعب العليا إلى المدّعي العام في الرايخ، هو أيضًا عيّنه هتلر، ثم يُقدّم المدعي هذا الحكم إلى شركائه في الجريمة لدى وزير العدل في «فيلهلم-شتراسه». استبشر الرفاق في الوزارة خيرًا، وهم أشخاص مثقفون يحبون أن يتحكموا في مصائر الناس كالقياصرة، ثم يرفعون الإبهام إلى أعلى أو إلى أسفل. إلى أسفل يعني: إحالة الأوراق إلى الجلاذ روتجر. إلى أعلى: تكليف الجلاذ روتجر في البداية بأشياء أخرى، وتأجيل الإعدام بعض الشيء، وترك مرتكبي جريمة الخيانة العظمى في حق الشعب الألماني يتقلبون على أحر من الجمر، ترك الأمل يداعب جفونهم، عدة أيام أو أسابيع أو شهور على أقصى تقدير، هذا إذا كانت لهم فائدة للشعب الألماني، أو إذا كان من الممكن اعتصار أقوال منهم تُستخدم في قضايا أخرى. لا يمكن الطعن في أحكام الإعدام. أما التماس الرأفة فلا يؤدي في أفضل الحالات إلا إلى وقف تنفيذ الحكم مؤقتًا. إلى متى، وماذا تعني كلمة «مؤقتًا»؟ القرار في ذلك يرجع إلى عصابة «فيلهلم-شتراسه».

كان المحكوم عليهم يُقدّمون مثل هذه الالتماسات. عن د. جروسكورت ترافع المحامي هندلر قائلاً: إن الطبيب والعالم الذي يعترف بجميع بمهاراته الممتازة فَقَدَ — ذهنياً — الأرض التي يقف عليها، فارتبك واختلطت عليه الأمور، وورط نفسه في أنشطة مُعادية للدولة. إن جَسامة أفعاله أمر غير مطروح للنقاش. إن المحكوم عليه يريد أن يُحرّر نفسه من أفكاره الخطيرة، كما أنه ينبغي الحفاظ على حياته من أجل العلم.

يُرسل الالتماس إلى فرايزلر و«ر»، فيرفضانه ويُرسلانه إلى الجهة الأعلى. يتولّى الأمر في «فيلهلم-شتراسه» المدّعي العام لدى محكمة الشعب العليا، السيد ياجر، ووكيل الوزارة

فيلمان من الإدارة الرابعة. ينظر فيلمان في طلب التماس الرأفة وفي الملف، ثم يُلقي نظرة على إبهامه الأيمن. الأظافر مقصوفة بعناية، والحكم مُصاغ بعناية. الأمر واضح للغاية، لن يشير الإبهام إلى أعلى، إن المِقصلة لم تَرَ خونة مثل هؤلاء منذ فترة طويلة. كان شعار عام ١٩٤٤ م هو: أوقات قاسية ومهام قاسية وقلوب قاسية، كل ختم من أختام البريد يذكر بذلك. خارج نطاق العمل، وهو ينطلق بسيارته في طريقه إلى المنزل ماراً بأطلال فندق، تُذكره أقواس نوافذه العالية بالكولوسيوم في روما، عندئذٍ يشعر قيصر «فيلهلم-شتراسه» بالأسف من أجل شيء واحد فقط: إن الأحكام سُرّ من أسرار الريح، لن يرى أحد في يوم من الأيام الإبهام الجميل وهو يستدير إلى أعلى أو إلى أسفل. القيصر وحده في مقصورته، لا يشجعه سوى رضا وزيره والنظرات المُعجبة من جانب أمينات مكتبه. الكولوسيوم الصغير الذي شيّده خالٍ، لا جمهور، ولا صحفيين، لا تصفيق، ولا تهليل يصاحب إشارات القيصر ويُدعّمه عندما يتحدّ وعيّه بالقانون ووعيه بالذات اتحاداً منتصراً. كلاً، على الموظف أن يتحلّى بالتواضع، يجب أن يبقى كل شيء سرياً داخل ثلاث غرف متوسطة الاتساع من غرف الوزارة. أما الجمهور والصحفيون والتصفيق والتهليل فمن حق القائد وحده، الفوهرر يكره الحشرات الضارة، الفوهرر بحاجة إلى جثث بمناسبة عيد ميلاده، المزيد من مئات الجثث بدلاً من الكريمة فوق التورته. كلاً، القيصر الموظف لا يزاحم، ولا يستبجح لنفسه شيئاً ليس من حقه، إنه يلتزم بالقوانين واللوائح التنفيذية، ينقر بإبهامه على سطح المكتب ويملي: مع رجاء عدم النشر في الصحافة.

الجلاد روتجر مشغول بأشياء أخرى، فليداعب الأمل المحكوم عليهم. لقد اجتازوا أسوأ مرحلة. كان الجستابو في برلين هو الأمر النهائي: المنع من الكتابة، المنع من الكلام، تقييد الأيدي بالسلاسل أثناء النهار، وفي الليل ضوء باهر داخل الزنزانة. خلال التحقيقات ضربات في البطن، تعذيب، قيود، مسدس على الطاولة جاهز لإطلاق الرصاص. الآن وصلوا إلى نقطة الهدف وصدر الحكم. لم يعد الأربعة الذين يرتدون زي السجن يتعرضون للضرب في سجن براندنبورج، غير مسموح لهم بتلقي طرود، مسموح لهم بتلقي أشياء خاصة بالنشاط المهني، أبحاث مهمة للحرب. مسموح لهم كل أسبوعين بكتابة رسالة من صفحتين من الحجم الصغير، بخط مقروء، عدد السطور ٤٥ سطراً: لقد تأقلمنا جميعاً مع وضعنا، بل واجتمعنا معاً، ما ترك راحة في نفوسنا كلنا. لم تقم أنا ليزه بمواساتي أنا وحدي، بل بمواساتنا جميعاً. فليحدث ما يحدث، لم نعد نشعر بفداحة ما حدث، هكذا كتب جروسكورت بعد صدور الحكم بقليل.

يضع هافمان أمله في الزملاء المرموقين في كلية الصيدلة الذين يريدون أن يكلفوه بأبحاث لصالح القيادة العليا للجيش الألماني. يُنشط ريشتر علاقاته بمكتب جورينج، ويريد العمل في نظام لبناء الشقق السكنية سابقة التجهيز. يسعى رنتش إلى اختراع عوامة لسلاح البحرية يمكن تشييدها في وقت قصير للغاية. عبر الاستعانة بالمراجع وموقد «بنزن» وقطارة وما شابه، وهي أشياء يُسمح لزوجته بإحضارها، يخطط جروسكورت لكتابة مقالات وإجراء سلسلة من التجارب الطبية على نفسه للتوصل إلى التالي: زيادة قدرة الإنجاز البدني أثناء العمل بقناع الغاز.

السادة شركاء الجلاد الذين يجلسون في وزارة العدل في الرايخ غير سعداء بهذه الطلبات الكثيرة التي تُقدّم من أجل إجراء أبحاث مُهمّة للحرب. لقد أهان الخونة الفوهرر، وخدّعوا الرايخ خدعة مُخزية، لقد أرادوا أن يُقدّموا الشعب الألماني لقمة سائغة لأعدائه، وشكّكوا في النصر النهائي، والآن يقدمون مُساهمات مُهمّة للحرب؛ مَنْ يُصدّق هذا؟! من يستطيع أن يحكم على صدقيته؟ حيل، تسويق، العلم في مُختبر السجن، إلى أين سيصل بنا هذا الطريق؟! على كل حال، لا يمكن الاعتماد على آراء المؤيدين، أساتذة الجامعات والخبراء. إلى أين سيصل بنا الأمر إذا تناول الباحثون على أحكام محكمة الشعب العليا؟! غير أن الإبهام صبور، هناك احتياج للخونة في قضايا أخرى، لم يتم القضاء على وكر الجرذان بعد. بعد أن تصدر أحكام الإدانة ضد كل المشاركين الثانويين، وبعد أن تغدو أوراقهم من نصيب الجلاد، عندئذٍ سنخفض الإبهام، فلندعهم يرتجفوا ويرتعشوا ويمتثلوا دور العلماء إلى أن يحين الوقت.

قبل أن تُرسل رسائل السجناء بالبريد لا بدّ من مرورها أولاً على السادة الموظفين للاطلاع عليها. ماذا يكتب الطبيب أول؟ هل يقوم مرة أخرى بتبذير الورق في توجيه النصائح إلى تلاميذه الذين يكتبون أطروحة الدكتوراه؟

الظلام يحكم قبضته على كل شيء أمامنا. إنني أشعر بألم لا نهاية له عندما أفكر فيكم، مع أنني لا أفكر في شيء آخر طوال الليل والنهار. كثيراً ما أرغب في سماع كلمة عزاء منك، في رؤيتكم واحتضانكم. أعرف أنك ستفهمين كل شيء؛ لأنك تعرفين ما أريده وأرغب فيه. يسيطر القلق على قلوبنا، هذا هو سبب تعاستنا. من نافذتي أشاهد في كل مساء نجوم «العربة الكبيرة»، في الساعة السادسة ستتوجه أبصاري دوماً إليها، أما أفكاري فهي لديكم.

يتناول الجلاد روتجر الفأس ويقطع شجرة عيد الميلاد، البرودة قارصة في يناير، والذين ينتظرون الحكم بالإعدام يرتعدون في ملابسهم الخفيفة. في الصحن الطعام الفاتر

بالغ الرداءة، لا يكاد يحتوي على سرعات حرارية، هكذا يحسب جروسكورت، أما التدفئة فضعيفة لا تكاد تدفئ أي زنزانة. في الأسابيع الأولى يحالف الحظ هافمان وجروسكورت، فيسكنان بجوار بعضهما بعضاً. عندما يكونان غير مشغولين بالعمل، يقفان بجانب المدفأة، أنصاف ليالي بأكملها يقفان هكذا، يبحثان عن بعض الدفء والأحاديث. يطوران نظاماً للأحرف وعُبره يتبادلان الحديث. يقسمان الأبجدية إلى ثلاث مجموعات، من الألف إلى السين، ومن الشين إلى الكاف، ومن اللام إلى الياء، وبلاستعانة بِزُرٍّ من سروال قديم يدقان بصوت خافت على أضلاع المدفأة. في البداية يتم تحديد مجموعة الأحرف بدقة أو دقتين أو ثلاث دقات، ثم يحددان مكان الحرف في المجموعة بعدد الدقات. وهكذا يتحدثان عن الحرب والتوقعات والأصدقاء. تك — تك. تكتكتك — تكتكتكتكتك. تك — تكتكتك. هذا معناه: أنت. بدقات صبورة يتم جيورج جملة الموجهة إلى الزنزانة المجاورة: أنت متفائل ميثوس منه.

يكتب روبرت رسالة سرّية إلى رفيقه في السجن: خبرات كLINIكية خاصة بحالات التجمد الشديدة، الجديد في رسوم القلب الإليكترونية، الفرق في تأثير مختلف أنواع السلفوناميد، استخدام السلفوناميد في حالات الحروق بالغاز وحالات الإصابة بالتيتانوس، الزرنيخ والنقص الحاد في كُرَيَّات الدم البيضاء كعاقبة متأخرة لحالات التسمم ... الموضوعات التي كتبتها خلف الصفحة تتعلق بتنظيرات، وفي بعض الأحيان بتكهّنات، عليك أنت، بخبرتك العملية الكلينيكية وإطلاعك على المراجع، أن تقوم بصياغتها تحريرياً وإرسالها لإبداء الرأي فيها إلى الجهات المختصة (رئيس نقابة أطباء الرايخ — السيد هيملر، قائد حرس الـ إس إس في الرايخ — الأكاديمية الطبية والعسكرية) حتى تُقَوِّي مركزك في التماس الرأفة الذي تقدمت به.

يطلب جيورج من أناليزه أن تستطلع الجهات التي قد تكون مُهتمة بأبحاث مُعيّنة، بينما كان هو في زنزانتة عرقاناً ومبهور الأنفاس على الدراجة التي يقيس بواسطتها الجهد العضلي المبذول وعلى وجهه قناع الغاز، مُسجلاً نسبة حامض اللبنيك وارتفاعه أو انخفاضه. طلاب الدكتوراه يرسلون له أطروحاتهم، وهو يقوم بالتصحيح. ليس لدى إدارة السجن مانع في أن يعالج د. جروسكورت موظفي السجن. هؤلاء المرضى يقابلونه بالتقدير أيضاً. أجمل أوقاته يقضيها مع علم الفلك. يقرأ في المراجع المتخصصة عن الجاذبية وسُرعة الضوء والمسار الذي يأخذه جُزَيء الطاقة والضباب المحيط بالنجوم.

حُموه كان أول شخص سُمح له بزيارته. زيارة الوالد كانت مصدر بهجة عظيمة وهذوء كبير لي. شعرتُ بما كنتُ أشعر به أيام الطفولة عندما كانت تنتابني الحمى

ثم يضع أبي يده الباردة على جبهتي متحدثاً معي. لقد بكيت؛ لأنني فكّرتُ في كل ما فقدته، فكّرتُ في الألم الذي تعانونه وأعانيه. ليس السبب هو الخوف من النهاية، لستُ خائفاً؛ إذ ليس ثمة شيء باستطاعته أن يدخل الرعب إلى قلبي. لا بُدَّ من تحمّل كل شيء كما يجيء؛ ففي وضعي لا يستطيع الإنسان أن يؤثر في مسار قدره. كان تخيلي للحياة مختلفاً تماماً!

تبعث أخته لويزه بفطائر «الكرابفن» من فيردا إلى برلين حيث تأخذها أناليزه وتُسَلِّمها إلى قس السجن في براندنبورج. يخفي القس الفطائر ويهربها إلى الزنزانة، ويقف أمام ثقب المفتاح إلى ينتهي السجن من الأكل. يعرض القس على السيدة جروسكورت أن يوصل رسائل سرية إلى زوجها، بعيداً عن أعين الرقابة.

في تلك الأثناء يستفيد حموه — رجل الصناعة هاينريش بلومبه — من علاقاته ويحاول إقناع شخصيات مشهورة من مَرْضَى جروسكورت كي يُؤيّدوا تأجيل إعدام طبيبهم. ولكن حتى وكيل وزارة الخارجية وأحد كبار المسؤولين في فرق الـ «إس إس»، فيلهلم كبلر، يتحدث في رسالته عن الفعل العمد والجهة المعنية، وكأنه هو نفسه يخشى الجستابو واتهاماتهم. الفرع ينتاب ألفريد هيس أيضاً، النائب السابق لرئيس المنظمات الخارجية النازية، بسبب الاتهامات الموجهة إلى طبيبه القدير الذي أنقذ حياته. إنه للغز من الألغاز، أن يغدو فجأة رجل طيب ومتواضع وذكي للغاية، رجل ليس لديه أي طموح سياسي، مرتكباً لجريمة الخيانة العظمى.

ليس هناك سوى جونتر، مالك إحدى شركات الأدوية، والزملاء الصيادلة في الجامعة، هؤلاء لا يريدون على أية حال الاستغناء عن تعاون جروسكورت وروحه البحثية الوقادة، ولكن منذ متى يهتم القياصرة الصغار في وزارة العدل بتقدّم علم الصيدلة؟ رغم ذلك ينجح المحامي هندلر في حثّ الباحثين ورجال الصناعة لكي يساندوا التماس الرأفة. يصل الالتماس إلى القتلة الذين يحتلون أعلى مكانة في الرايخ، إلى كالتنبرونر، رئيس شرطة الأمن والقائد الأعلى لفرق الـ إس إس. وتحدث المعجزة. يعترض هملر، قائد الـ إس إس في الرايخ، على الحكم بتنفيذ الإعدام، على ما يبدو دون أن يطلع على الملفات. لكن ذلك لا يعجب السادة القتلة في وزارة العدل. وبعد أن يتشاور هملر مع السيد تيسين يسحب اعتراضه.

سيكون حصاد الجلاّد جيّداً في عام ١٩٤٤م. أخذ المحكوم عليهم يعملون لإنقاذ حياتهم. كان جروسكورت، من وراء قنّاع الغاز، يُخَطِّط للقيام بأبحاث عن الحمض اللبني والعلاج بالحديد وبأقراص البروجينون، ثم بأبحاث لشركة لايتس عن مقدار كُرَيَّات الدم

الحمراء. يسمحون له مرة أخرى بكتابة رسالة، ولكن دون الخوض في مسائل طبية: إن التفكير في الولدين يؤلني جدًّا؛ لأن التواجد معهما أعظم بهجةً لي. سيتأقلمان على الحياة بدوني؛ لأن لديهما أفضل أم يمكن تصورها. يعزيني دومًا التفكير في ذلك. ألا تريدون بسبب هذه الغارات العنيفة السفر إلى فيردا؟ في كل غارة أشعر بالخوف عليكم. كما أنك بتواجدك الشخصي لن تستطيعي فعل الكثير في حالتي.

عندما ترغب أناليزه بزيارة زوجها في براندنبورج، يتحتم عليها في كل مرة أن تقدم طلبًا للحصول على إذن خاص من محكمة الشعب العليا، تحصل عليه كل أربعة أسابيع تقريبًا. القطارات المسافرة إلى براندنبورج هدف دائم لقنابل الطائرات. من المسموح لهما أن يشجع كل منهما الآخر بعيون حزينة. ترى أنه يبدو بائسًا ونحيفًا. وهو يرى أنها تبدو بائسة ونحيفة. ولكنهما لا يتحدثان عن ذلك. نصف ساعة: الولدان. العمل. المواد التي تحتاجها للأبحاث. العلاقات. أمها، والداهما، الأقارب. العمل. الأطفال. حبيبي، حبيبتي.

يُدوّن أحد المُرتدين الزّي الرسمي كل كلمة ينطقان بها، أو يُمثّل أنه يفعل ذلك. زيادة قدرة الإنجاز البدني أثناء العمل بقناع الغاز. يتوصل جيورج إلى النتيجة التالية: بعد حقن ٥٠٠ ملجم من فيتامين سي في الوريد أمكن التوصل إلى مدة إنجاز بقناع الغاز تعادل تقريبًا المدة التي ينجزها المرء بدون قناع وحقن. يواصل الأبحاث التي يأمل أن تنقذه، ورغم ذلك يشعر باليأس في كل يوم: هل سيقولون لي — إذا انتهيت مبكرًا — شكرًا، ثم ينتهي كل شيء؟ يجيب روبرت: تك — تك. تكتك — تكتكتك. تك — تكتكتك. تكتك — تكتكتكتكتكتكتكتكتكتك. تكتكتك. هذا معناه: اشتغل! يتم نقل روبرت إلى زنزانة أخرى.

دفاع أيمن

هل كنت بالفعل مشغولاً ليلًا ونهارًا بالقاضي «ر» وآل جروسكورت؟ عندما أمعن في التفكير، وإذا استثنينا كاترين، فلا أجد سوى كُرّة القدم. قرب نهاية الشتاء البرليني الرصاصي، ومع البشائر الأولى للربيع المرتقب بشوق وهذوء، بدأ موسم الكرة الجديد. على الأقل مرة في الأسبوع، وعلى الأقل في أيام الأحاد أستريح من الملفات، وطوال ساعتين أظل أجري وراء الكرة، في الغبار، وعلى العشب المبتل بماء المطر.

غير أنني — حتى في أول أيام اللعب بعد استراحة فصل الشتاء — كنت أريد مواصلة العمل في ملعب كرة القدم. كنّا في مارس، أخيرًا كان بالإمكان الاطلاع على الحكم الصادر على «ر» من هيئة المحلفين بمحكمة برلين. أعطوا قاتل جروسكورت شهادةً تثبت أنه التزم بمواد القانون، وأن أحكام الإعدام كانت صحيحة ومشروعة باعتبارها رادعًا لموجة الانهزامية الخطيرة التي تَفَشَّت بين الشعب. غلّى السخط في صدور الصحفيين مرة أخرى واستمر الغليان يومين كاملين.

بالإضافة إلى الباقية المُنوّعة من اللاعبين في يوم الأحد، وإضافة إلى الفنانين والصحفيين والممثلين الكوميديين والأطباء والمُصوِّرين، كان هناك رجلان أو ثلاثة من رجال القانون. بعد المباراة أو في الاستراحة أردت أن أسأل أوتو أو يوخن عمّا إذا كانا يعرفان القضية الذين برّءوا ساحة القاضي «ر»؟ وإذا ما كان أحد سيَطعن في الحكم؟ وما هي فرص الطعن؟

كان حظُّنا جيدًا مع الطقس، لم تمطر السماء، وفي عصر ذلك الأحد كنّا واحدًا وعشرين شخصًا في الملعب المهمل بالقرب من أتوستراد المدينة؛ أي إنه تَحَتَّم علينا أن نلعب عشرة مقابل أحد عشر لاعبًا. كالمعتاد، اختار لاعبان من أقوى اللاعبين بالتبادل، أفراد الفريقين، هارون بدأ باختيار أوفه، أرنو باختيار نويس، ثم نوادي الواحد تلو الآخر. كنت، مثل أوتو وبيتر، من اللاعبين غير المرغوب فيهم، كان مكاننا في الربع الأخير بين أضعف اللاعبين

الذين كانوا في نهاية الأمر يُوزَعون على كِلا الفريقين بدافع من الرحمة. المهم هنا بالنسبة لاعترافي هو أن أوتو وأنا كنا في فريق أرنو.

لم أكن مُهاجمًا، ولا ظهيرًا حرًا، ولا حتى حارس مرَمَى. لم أكن سريعًا، وكنت أتجنَّب الكرات العالية، لم أكن أجيد السير بالكرة، ولا أن أُلقي بكل قوتي في حومة اللعب. وهكذا لم يبق إلا الدفاع، وكان عزائي الوحيد في قاع هذا الترتيب أن أَلعب مدافعًا أيمن، وأن يَقنَع لاعب أكثر ضعفًا مني، هو أوتو هذه المرة، بمركز المدافع الأيسر.

مثل كل يوم أحد كان هدفي الأهم ألا أتسبب في إحراج نفسي. مَنْ لا يجيد لعب كرة القدم يلقي نفسه وحيدًا؛ لأنه كلما حرك قدميه، ارتكب خطأ، وكل خطأ صغير يُعاقب بالأحكام المسبقة من قبل الخصم وباللعنات من ناحية الزملاء. إذا سار الأمر سيرًا جيدًا كان بإمكانني أن أظهر في صورة براقة كلاعب دفاع، بشجاعة وغريزة صائبة أقوم بإزعاج المهاجم الخصم وإعاقة طريقه إلى المرمى، أو منع وصوله إلى الكرة وقطع تمريراته إلى زملائه. كانت النظرات مُوجَّهة إلى وسط الملعب وإلى اليسار، إلى الخلف ناحية حارس المرمى، وعلى أقدام الخصوم المهاجمين وحركات أجسادهم حتى أضمن مبكرًا بقدر الإمكان ما إذا كان الواحد منهم سيمرُّ من يميني أم من يساري، أم أنه سيمرر الكرة قبل ذلك. لم يكن لاعبو يوم الأحد الهواة مثلنا يرتدون فائلة مميزة، كلُّ يرتدي اللون الذي يروق له، الأمر الذي جعل الدفاع عسيرًا، كان عليَّ أن أكون في غاية الانتباه عندما تنتقل الكرة في منتصف ملعبنا.

ليس المهم كم هدفًا دخل مرمانا في ذلك الأحد، بالتأكيد صَوَّب هارون الضخم السريع — وأمامه كان على أوتو أن يبذل مجهودًا أكثر مني — كالمعتاد ثلاثة أهداف أو أربعة. ولكنني ما زلتُ أتذكر، ولهذا أقصُّ ذلك، أنني لم أستطع خلال المباراة نسيان القاضي «ر». إذا نظرتُ يسارًا، أو إذا مرَّرتُ الكرة ناحية أوتو، كنتُ أتذكر — شئتُ أم أبيتُ — قضيتي المُلحَّة.

بين الحين والآخر كانت لحظات هادئة تمر علي، عندما كان مهاجمونا يحاصرون المرمى الآخر، فنتقدَّم نحن المدافعِين إلى الأمام. غير أننا كُنَّا نقف على مبعدة من بعضنا البعض بحيث تعذر علينا أن نتبادل جملاً بأكملها، وحتى بالنسبة إلينا نحن الهواة لم يكن سيغفر لنا أحد لو التقينا في منتصف الملعب بدلًا من تغطية الأماكن الشاغرة. وسط التصويبات والتمريرات والصراخات بدت لي نيتي ساذجة. منذ البداية كنت أشعر بالحرَج من محاولة أن أدير دفة الحديث ناحية القاضي «ر»، في الاستراحة أو بعد النصر أو الهزيمة،

على كل حال في تلك اللحظات غير المناسبة على الإطلاق؛ كنتُ عرقانًا ومصابًا ومجهّدًا مثل الآخرين.

مررتُ الكرة تمريرة جيدة على غير عادتي، وحصدت من أرنو بسرعة كلمة «جميل!» بعد المديح الذي شتّت ذهني عن فكرتي الملاحقة، تميّز لعبي بسهولة أكثر. ثم الضربة الحرة المعتادة من نويس البدين خفيف الحركة. لحسن الحظ لم أكن أنا خصمه في تلك الكرة. كان نويس أكثر مهاجم أخشاه؛ لأنه كان يغضب سريعًا، وعندئذٍ يدهس خصمه بلا رحمة أو يمسك بخنقه أو يركله في كعبه. كان كريستوف — الذي رقد على الأرض في منطقة جزاء الخصم — ضحيته هذه المرة. «فاول» حقيّر للغاية، كل حكم سيصفر فور حدوثه. ولكن، لم يكن لدينا حكام، وعندما لا تتفق الأغلبية على إعطاء ضربة حرة، كانت معارك كلامية عنيفة تندلع بيننا. مَنْ يصرخ أعلى من الآخرين، ومن يحرك يديه على نحو أعنف، من يدافع عن حقه الموهوم بطريقة أكثر حسماً، هو الذي يفرض رأيه. في هذه الأمور كان نويس الساخر وسليط اللسان أستاذًا أيضًا. قال بصوت عالٍ سُمع في الملعب كله: «أنا لم أكسر القانون، بل الركبة فقط! إذا كان «ر» قد حصل على البراءة، فالبراءة لي أيضًا!» ضحكنا. وعندما تم تنفيذ الضربة الحرة أخيرًا، بقي نويس رغم ذلك هو المنتصر؛ إذ إنه استقطب كل المشاعر، وحصد رفضنا لعنفه، وإعجابنا بـ «الشو» الذي قام به.

في الاستراحة تشاجرنا حول الضربة الحرة، فما زال كريستوف يشعر بالألم. ظللتُ بجوار أوتو وكأنني أنتظر أن يبادرني بالحديث. لم أزعجه بالأسئلة؛ لأنني كنت أمل أن أتحدث معه بعد المباراة ونحن نحتسي البيرة.

في الشوط الثاني كثرت أخطائي. كالمعتاد كانت المهارات والسرعة والقسوة تنقصني، ولكن ما دامت الكرة تتدحرج، كنت أنسى القاضي «ر». عندما خسرنا المباراة، لم نضيع — أوتو ويوخن وأنا — وقتًا طويلاً في التعليقات والشكاوى، وذهبنا إلى السيارة. تحدث الاثنان مع بعضهما البعض، ولم أرَ فرصة في طرح أسئلتي. كان أوتو أول من غيّر حذاءه، ثم اختفى عن أعيننا وهو يلوح من السيارة متوجّهاً إلى أتوستراد المدينة. في أيام الآحاد اللاحقة لم أجرؤ كذلك على الحديث في موضوع تخصصي — وهل كان «ر» يهم الآخرين في شيء؟

بين طواحين أجهزة المخابرات

لا تحصي السيدة جروسكورت عدد سعاة البريد الذين وَقَفُوا في غرفة الانتظار بعيادتها، وطلبوا منها أن تُوقَّع على استلام مظروف أزرق اللون من إحدى المحاكم أو المصالح الحكومية. إنها تسكن الآن وتعمل في شقة بشارع «كايزردم»، ناصية بحيرة ليتسن. اقتصادياً تحسَّن وضعها، رغم ذلك ما زالت حالتها سيئة، يجهدا الذهاب إلى الشرق والعودة منه، كما أن هذا السلام المُتَعَطِّش للحروب يضني أعصابها، ولكن حتى في غرفة الانتظار بالعيادة الجديدة تجِد ساعي البريد بانتظارها، محاولاً أن يترك بين المرضى انطباعاً بالصحة والتفوق، وطالِباً منها أن تُوقَّع على الاستلام.

أقلَّعت عن عادة فتح الرسائل القانونية أثناء فترة الكشف على المرضى؛ على المرضى ألا يشعروا بسخطها على القضاة والمُحامِين والمصالح الحكومية. تُعقِد العزم على أن تقابل مرَّضاها ببشاشة أكبر وصبر أعظم.

دعوى للحضور إلى قاضي التحقيق، يتهمونها بمخالفة قانون حماية الحريات. النيابة الاتحادية العامة تحقق في الأمر، لا تعرف ما يمكنه عليها، كما أنها لا تعرف ما هو قانون حماية الحريات. تشعر بوخزات مؤلمة في المعدة كالتي شعرت بها أثناء الاعتقال في سبتمبر ١٩٤٣م. تتصل هاتفياً بالمحامية. يعاقب هذا القانون الأشخاص الذين يُعرَّضون غيرهم لخطر الملاحقة السياسية. إذا كانت النيابة الاتحادية العامة هي التي تتولَّى التحقيق فمعنى ذلك أن التهمة ليست هيئَةً. لا تتذكر شيئاً، تجهد نفسها، ولكنها لا تتذكر أي شيء. تقضي خمس ليالٍ من النوم المُؤرق إلى أن يحين موعد سماع أقوالها لدى القاضي. نحن الآن في أبريل ١٩٥٦م. ثم تهبط الهراوة فوق رأسها: يتهمونها بالوشاية بطبيب من برلين الشرقية – الدكتور (م) الذي قابلته مصادفةً في برلين الغربية – يتهمونها بالوشاية

به لدى السلطات في القطاع السوفييتي بسبب انتقاده الأوضاع هناك، ما أجبر الطبيب على الهرب إلى الغرب بعد أن تلقى تهديدات من مخابرات ألمانيا الشرقية.

من فترة طويلة — هكذا أجابت على أسئلة القاضي في محضر جلسة الاستماع إلى إفادتها — في خريف ١٩٥٥م، أثناء جولة سياحية في قلعة شبانداو، تقابلت مع السيد الدكتور (م) الذي لم أكن رأيته منذ مدة طويلة. لم أتعرف عليه إلا عندما بادرني بالحديث لدى خروجنا من القلعة وناداني باسم عائلتي قبل الزواج؛ ولأن ذلك حدث، كما قلت، بعد انتهاء الجولة في القلعة، لم يطل حديثنا، واقتصر في البداية على السؤال المتبادل عن مقر الإقامة. خلال ذلك عبر الدكتور (م) عن استيائه؛ لأنه ما زال يعمل في ليشتنبرج. لا أتذكر ما قاله بالحرف. على كل حال، أجبته بطريقة تخلو من الخشونة، موضحة له موقفى السياسي على نحو — هكذا أرى — لا يدع مجالاً للشك، خاصة وأننى لم أر داعياً لإخفاء آرائى. كما أننى لم أكذ أعير تلك المقابلة أية أهمية، ولم أذكرها إلا بسبب ما حدث لاحقاً:

انطلاقاً من مبادئى ورؤاى أحاول دوماً أن أحسن وضع الأطباء في شرق برلين، وفي هذا السياق شاركت في أكثر من اجتماع حتى أوضح ضرورة الاهتمام المتزايد بوضع الأطباء، وربما أكون قد ذكرت حالة الدكتور (م) في اجتماع من تلك الاجتماعات لتوضيح ما أعنيه، وليس بسبب موقف مُعادٍ للسيد الدكتور (م)، ناهيك عن أن يكون قصدي الإضرار به، على العكس لقد أردت أن ألفت انتباه الجهات الطبية في الشرق إلى ضرورة أن تتفهم مطالب الأطباء على نحو أفضل. أنا لم أذكر ما قاله السيد الدكتور (م) — وأريد هنا أن أوضح موقفى مرة أخرى — بهدف الإضرار به، ناهيك عن أن أعرضه لخطر الملاحقة السياسية كما ينص الاتهام. أكرر مرة أخرى أن العكس هو الصحيح، وأن المتحدثين معى فهمونى، وكان لا بد من أن يفهمونى على هذا النحو.

لم يمنع هذا التوضيح المدعى العام من رفع دعوى ضدها في أغسطس. إنهم ينظرون إليها على كل حال باعتبارها مُجرمة، وذلك بسبب نشاطها السياسي المتشعب بالمعنى الشيوعى. لقد وفّرت عبر لجنة جروسكورت الحماية القانونية لُنْتَهْكِ القانون. لقد كرّرت حرفياً ما قاله الدكتور (م): «ليس هناك بارقة أمل بالنسبة لسكان القطاع السوفييتي ما دامت العصاة الحمراء هي التي تحكمه»؛ كما ذكرت اسمه في أحد اجتماعات نقابة الصحة في برلين الشرقية. كانت على وعى بأن السكرتير الأول في النقابة سينقل هذا الرأي

إلى مباحث أمن الدولة. إنها لم تتردد في ذكر اسم الدكتور (م). إثر ذلك قامت مباحث أمن الدولة بزيارة الدكتور (م)، وهددته بالاعتقال، ففر إلى الغرب.

منذ الإلقاء بإفادتها وهي تتهم نفسها تهمة محدّدة: أنها نطقت باسم الدكتور (م). كيف حدث ذلك؟ لقد شارك في تلك الجلسة زميلها من الإذاعة الذي يسكن أيضًا في حي شارلتنبورج وكذلك طبيب من برلين الشرقية. كانت النقابة تريد أن تحصل على نصائح بخصوص وقف هروب الأطباء إلى الغرب. بعد الكلام المعسول والتجميلي الذي ألقاه السكرتير الأول تجرأت السيدة جروسكورت على القول بأن على المرء أن يعرف أسباب عدم الرضى، وأن هناك الكثير مما ينبغي فعله، إلخ. وكدليل على عدم الرضى تذكّرت ذلك الدكتور (م).

كلّما تمعنّت في التفكير، تذكّرت الأمر على نحو أوضح. إنها لم تذكّر اسمه في البداية، ثم ذكرته بعد أن سألتها أحد المشاركين. ألم يكنّ السائل ذلك السكرتير الثالث الذي غالبًا ما يلزم الصمت؟ هل يمكن أن يكون هو نفسه الشخص الذي يُقيم في هانوفر والمُدعو الآن كشاهد إثبات؟ رغم ذلك كان من الغباء أن تذكّر الاسم، لم يكن ذلك ضروريًا. لم تفكر آنذاك وحتى موعد سماع أقوالها في عواقب ذلك بالنسبة للدكتور (م)، ناهيك عن التفكير في مباحث أمن الدولة. إن من يقع بين أذرع طواحين النيابة الاتحادية العامة، وأجهزة المخابرات في الخمسينيات، وفي برلين، ساحة التوتر والصراعات، فهو في وضع لا يُحسد عليه. والآن تواجهها عقوبة السجن عدة أشهر.

تتشاور مع المحامي البرليني الشرقي المخضرم كاول الذي يرى في الأمر مكيدة من المخابرات الأمريكية، وإلا فكيف للمُدّعي الاتحادي العام أن يعرف ما قيل في تلك الجلسة التي لم يحضرها سوى خمسة أشخاص؟ ومن هو ذلك الشاهد (د) الذي كان عليه أن يكتب تقريرًا عن الجلسة في قسم الصحة لدى النقابة؟ كثيرًا ما يحدث أن تقوم جهات غربية باجتذاب أطباء من الشرق، وفي أغلب الحالات يكون ذلك مصحوبًا بتحذيرات من اعتقالات مزعومة، لماذا لا يكون الدكتور (م) إحدى هذه الحالات؟

هذا التأويل يزيد من فزع أناليزه، إنها لا تريد الوقوع ضحية لمكائد أجهزة المخابرات، هذا أمر خطير، لا تريد أن تواجه الأمواج العاتية لبحر السياسة الملعونة، تخشى أن يعاقبوها على غبائها، وفي كل يوم تتوقع عقوبة أكبر من اليوم السابق. ولكن، ليس لديها خيار آخر. وكاول متفائل بطبيعته.

في نوفمبر، وأمام محكمة الولاية في موابيت، استطاع كاول أن يفرض دعوة الدكتور (ب) شاهدًا، وهو الطبيب الذي كان يرأس الدكتور (م) الهارب إلى الغرب. حتى في أكثر

أوقات الحرب الباردة عداوةً وضراوةً كان يتم الاستجابة لطلبات الإنابة القضائية بين محاكم شطري المدينة. كان لا بُدَّ من أن يقوم قاضٍ برليني شرقي بالاستماع إلى أقوال الدكتور (ب)؛ لأنه يعيش في القسم الشرقي، ثم يُرسل محضر الأقوال بعد ذلك إلى الغرب. عندئذٍ تستطيع محكمة الولاية مواصلة النظر في القضية. خاب أمل الصحف الغربية التي استمتعت بلق دماء أناليزه بلومبه، المسماة د. جروسكورت: **تأجيل قضية الطليبة الشيوعية.**

عليها أن تدافع عن نفسها على ثلاث جبهات في وقت واحد. من أجل الحق في حيازة جواز السفر لدى المحكمة الإدارية، والحق في التعويض لدى محكمة الولاية. كم يبدو هذا كله هيئاً أمام عقوبة السجن التي قد توقع عليها في موابيت! كم شهراً ستدفعه من حياتها مقابل رحلة قامت بها في يوم أحد إلى قلعة شبانداو؟ وما ثمن اللعبة التي تلعبها كبيرة أفاعي أجهزة المخابرات؟

عليها الانتظار ثمانية شهور حتى يحين موعد المحكمة في يونيو ١٩٥٧م، إلى أن يقرر قضاة قسم العقوبات السياسية أن القضية لا يمكن البتُّ فيها بشكل قاطع وواضح. تستمر الجلسة عشر ساعات، ثم مرة أخرى لمدة ثلاث ساعات. يعترف الشاهد (د) — الذي كان يشغل في وقت الاجتماع المعني منصب السكرتير الثالث في نقابة الشئون الصحية في برلين الشرقية والذي يعيش منذ يناير ١٩٥٦م في الغرب — بأنه استدرج السيدة جروسكورت لتبوح باسم الدكتور (م)، كما أنه قام بإبلاغ الجهات الغربية بتفاصيل الجلسة، وكذلك باسم الدكتور (م). في شهادته قال الدكتور (م) إن رئيسه في مستشفى ليشتنبرج البرليني كان يقوم دوماً بتهدئة سخطه. ليس متأكداً ما إذا كان العميل الذي زاره بالفعل عميلاً لألمانيا الشرقية. ينبغي على الدكتور (م) — بعد أن طرح كاول أسئلة أخرى — أن يوضح ظروف هروبه. لقد طلب منه رجل الحضور إلى مقهى في فريدناو؛ أي في الغرب؛ لأنه أراد أن يحذره. هناك تقابل مع الشاهد (د) ورجلين آخرين قالاً عن نفسيهما إنهما موظفان في الـ CIC، وهي المنظمة التي عُرفت لاحقاً بالحروف CIA. شرح له (د) أنه هو نفسه هارب من الشرق. ألح عليه الرجلان الآخران كي يهرب هو أيضاً ويبقى في الغرب؛ لأنه في خطر جسيم، ثم أقسم الدكتور (م) على صحة هذه الشهادة. أما الدكتور (ب) فقال في شهادته إنه تلقى في الوقت نفسه، مثل الدكتور (م)، تحذيراً من مباحث أمن الدولة — حسبما قيل له — لا لشيء إلا لأنه رئيس المشتبه به الدكتور (م). لكنه ما زال بعد عام ونصف على تلك المكالمات التليفونية يعيش حرّاً طليقاً في برلين الشرقية.

سأل القاضي الرئيس: «هل مرّت بك حالة طبيب تم اعتقاله بسبب آرائه السياسية الناقمة على الأوضاع؟» بعد تردّد طويل أجاب الشاهد بـ «لا».

الآن لا يستطيع حتى قضاة المحكمة الجنائية في موابيت أن يَغُضُّوا النظر عن أن الشاهد (د) كان — كما هو واضح — يعمل في نقابة الشئون الصحية بتكليف من الأمريكان لدفع الأطباء إلى الهجرة إلى الغرب، على الأقل في حالة الدكتور (م). وهكذا انهارت الدعوى المرتكزة فحسب على أقوال هذا الشاهد والعميل. فشل مُخز للنيابة الاتحادية العامة التي تريد حفظ ماء وجهها، فتطالب بسجن المدّعى عليها أربعة أشهر مع وقف التنفيذ.

تحكم المحكمة ببراءتها. ليس هناك إثبات على أنها كانت تهدف إلى الملاحقة السياسية للدكتور (م) عندما أفسّحت ما قاله، ولا سيّما وأنها لم تَقُمْ بذلك طيلة شهرين كاملين.

تتجاهل صحافة برلين الغربية موضوع اجتذاب أطباء الشرق عن طريق المخابرات الأمريكية، وتختزل الموضوع متذمّرة: عدم كفاية الأدلة. قضية سياسية ضد الطببة الشيوعية. محامي الحزب الاشتراكي المُوَحَّد يستفز المحكمة. أما صحافة الشرق فتَهْلُل للوقائع التي جاءت من موابيت والمساعدة المجانية في نشر البروباجندا الخاصة بها: فيلم أمريكي فاشل.

يا لسعادتها! أن يحالفها الحظ مع القضاء أخيراً ومرة واحدة على الأقل! تتنازل النيابة العامة عن الاستئناف. «وبذلك يصبح الحكم نافذاً»، كتب كاول لمُوَكَّلته بتاريخ ٣٠ / ١٠ / ١٩٥٧ م، «وبهذا يُغلق ملف القضية نهائياً. أهنتك وأهنت نفسي، وأهنت نفسي أكثر قليلاً!»

سعداء معًا

لافتة نحاسية ضخمة مُثبتة بجانب باب الفيلا المكسوّة من الخارج بالطوب المُزجّج: حرف الرء المحفور المنساب يواجه الزائر داعيًا إياه إلى الدخول، بينما يجد الضيف وجهه المنفعل مصغرًا ومنعكسًا على اللوحة النحاسية النظيفة البراقة. رب البيت يفتح بنفسه بعد دقة الجرس الأولى مباشرة، تلك النغمة المزدوجة لفرقة خماسية مرحة، قدم لي يده اليمنى التي يؤدي بها القسم، وبعبارات الترحيب النمطية قادني إلى غرفة المعيشة وقُدّم قهوة من الإبريق الموجود على الطاولة تحت قبعة من القماش تحفظه دافئًا.

وقع بصري أولاً — وكأن «ر» هو الذي وجهه إلى هناك — على حائط مُزيّن بشهادات داخل إطار أنيق، وبجانبيها، على حافة المدفأة، عدد من الكؤوس. تولّد لدي الفضول، لذا تردّدت في الجلوس على الفوتيه الوثير الذي أشار إليه. فقال لي: ألقي نظرة حولك كما يحلو لك، فالقهوة لن تبرد سريعًا.

عرفتُ بسرعة خاطفة أن الشهادات أحكام، الصفحات الأولى من الأحكام القضائية المكتوبة وفق النموذج المعتاد: باسم الشعب الألماني. في القضية المرفوعة على (اسم المدعى عليه) أصدرت محكمة الشعب العليا والمكونة من (أسماء القضاة) الحكم التالي: إننا نحكم بالإعدام على الذي (التي/الذين) فقدَ شرفه (فقدت شرفها/فقدوا شرفهم) إلى الأبد.

— أجمل ما أصدرتُ من أحكام. لم أستطع بالطبع أن أُعلّقها كلها.

وضحك في صبيانيّة قبل أن أفهم ما يعنيه.

— لم أختَر هذه النكتة من أجلك. إنني أقولها دائمًا.

تنقّلتُ من إطار مُزيّن إلى الآخر، محاولاً أن أحفر الأسماء في ذاكرتي أو القضية: الخيانة العظمى، إشاعة الروح الانهزامية، الخيانة العظمى، الاستماع إلى إذاعات مُعادية، الخيانة العظمى، الخيانة العظمى. وسمِعته يقول: لا تقف متسمّرًا هكذا أمام هذه الأحكام،

إنها تتكرر، مع تغييرات طفيفة، الفروق الدقيقة تجدها في الحثيات والصيغ القانونية على الصفحات التالية. إنني أعرض هذا على كل زوّاري، وعليك أيضًا بالطبع حتى ترى أنه ليس لدي ما أخفيه.

اقتربت من المدفأة، أربع كنّوس مُتجاورة في صف واحد، أكبرها مُتوّجة بمقصلة فضية يبلغ ارتفاعها عشرة سنتيمترات. على الفور أجاب «ر» على نظرتي المندهشة:

– كأس رولاند فرايزلر لعام ١٩٤٤م!

وإلى جانبها المقصلة نفسها ولكن مُصغّرة ومن الصفيح، ومحفور عليها: كأس رولاند فرايزلر لعام ١٩٤٣م من الطبقة الثانية. وإلى يمينها وعلى عمود صغير العلامة المزدوجة للمواد القانونية § المكسوة بالفضة، وإلى اليسار كتاب برونزي مُزَيّن بالصليب المعقوف في حجم علبة سجائر، قانون العقوبات.

– تعال، القهوة ستبرد.

وابتسم وهو يجلس بجانبني على الأريكة في غرفة المعيشة، قرب الحليب والسكر ناحيتي، وطلب مني أن أتناول أيضًا بعضًا من البسكويت. استرخى وجهه، الملامح البارزة بدون تجاعيد المראה. قال: لاحظت بالتأكيد أنني فخور بكأس رولاند فرايزلر على نحو خاص. رئيس المحكمة كان يمنحه مرةً في العام إلى أفضل معاونيه. كان الكأس الأخير الذي قام بتسليمه، ما زلت حتى اليوم أشعر بيده وهي تضغط بقوة وودّ على يدي.

سدّدت البصر إلى يده اليمنى التي مدّها إلي عند الباب. واصل كلامه قائلاً: كانت بالطبع أيضًا جائزة رياضية، مسابقة، صراع قاسٍ إلى حدّ كبير بين الزملاء، لكنه عادل: من يصل إلى أكبر عدد من أحكام الإعدام، آنذاك كنّ قد سجلت ١٩٧ حكمًا واستحوذت على نصيب الأسد، رغم أن ذلك العام كان وافر المحصول لنا جميعًا، ورغم أن علاقتي بموضوع العشرين من يوليو لم تكن إلا هامشية.^١

أرسلت نظري عبْر باب الشُرْفة إلى الحديقة، واستقرت نظراتي على عش صغير تحوم حوله طيور القُرْقُف، وللحظة فكرتُ في الهرب.

– الكأس الأخرى ... أنت تعلم، من يؤدّي واجبه بضمير، يُكافأ مكافآت صغيرة.

كانت القهوة فاترة. لم أنتبه إلى البساط الفاخر إلا الآن، بساط فارسي على الأرجح.

مرةً أخرى حدس مُضَيِّفي اليقظ ما أفكر فيه.

– أنت تتعجّب لأنني لا أخفي شيئًا عن الأعين؟ ولكنك بالطبع لا تصدقني تمامًا. أنت تظن، هه، لا بدّ أنه يصمت عن شيء ما. كلاً، أنا بالفعل لست بحاجة إلى أن أخفي شيئًا وأكنسه – كما يقول المثل – تحت السجادة.

ورفع طرف السجادة عاليًا، وقلبها حتى منتصفها، ثم الطرف الآخر، وبعد المرة الرابعة ضحك قائلًا: كل شيء نظيف، كله عن اقتناع. كله تمام؟ حتى رجال القانون من حقهم أن يتحلَّوا بالمرح، أم أن لك رأيًا آخر؟
الرشفة الأخيرة من القهوة كانت باردة، لم أُرِد فنجانًا ثانيًا، وتناولت قطعة بسكويت ذابت في فمي.

بكل وضوح سمعت فرقة The Turtles وهو يغني أغنية «سعداء معًا» Happy together المتصاعدة من مسجل الأسطوانات. كيف دخلت هذه الفرقة إلى هذا البيت؟
- أعرف ما تريد أن تسأله. إنك مُؤرَّخ، كل زُوَّاري إما مؤرخون أو صحفيون. إجابتي بسيطة للغاية. كنت دائمًا رجلًا يتحدث لغة واضحة. لا ينبغي عليّ أن أخجل من نفسي؛ لأنني عملت قاضيًا. كما تعلم فإنني لم أنتهك مواد القانون، ولذلك أستطيع أن أتحدث عن ذلك بصراحة وحرية. إن الصراحة هي مبدئي، مائة في المائة. هذا أفضل من عشرة أو خمسين أو تسعين في المائة من مشاعر الذنب الممزوجة بهذا الخوف الأحمق من الرأي العام. أتريد كأسًا من الكونياك أم من الشيري؟
أشرت إلى الكونياك، ووضعت ساقًا فوق الأخرى، فواصل «ر» المقابلة الصحفية قائلًا:
إذا أردتَ يمكنك أن تأخذ معك ألبوم قصائدي.

وذهب إلى كومود من طراز «بيدرماير» بجانب باب الشرفة، وأحضر ملفًا، ثم وزنه في يده ووضعه على المائدة بجانب البسكويت.
- هذه نسخة بالطبع تحتوي على منطوق أجمل الأحكام التي أصدرتها، وأكثر الحثثيات أصالةً وابتكارًا. كنت آنذاك سريع الانفعال وأصغر سنًا. هل يهكم أن تطلع عليها؟

أومأت، وظل هو يتحدث بحماسة عن الموضوع نفسه.
- تكاليف النسخ باهظة بالطبع، لا أستطيع أن أهديها لك. لا بدُّ من أن أتقاضى منك للأسف ٤٩ ماركا.

أومأت، وأخرجت ورقة نقدية من المحفظة، فأرجع لي ماركا ثم نقش حرف الرء المنساب على الصفحة الأولى.

- الإهداء مجانًا بالطبع. ولكن، فلنترك الهذار جانبًا. لك بالتأكيد علاقات جيدة مع الصحافة. أتعرف، آنذاك كان الصحفيون يُمنعون من حضور جلسات المحكمة للأسف الشديد، في الحقيقة لم تكن هناك صحافة حقيقية، ولذلك عليّ أن أستدرك ما فاتني. إنني

مهتم جدًا بأن أتعاون أكثر مع وسائل الإعلام، كما قلتُ لك: الصراحة مبدئي. وخصوصًا التليفزيون، ألا تعتقد أنني غنيمة بالنسبة للتلفزيون؟ لكن الجرأة تنقصهم على ما يبدو لي. ربما تستطيع أن تُوصي بي هنا أو هناك. ما أتمناه هو حديث مع مقدّم البرامج جونتر جاوس في القناة الثانية ZDF.

أومأت ونهضت.

– ليس هناك أية أسئلة أخرى؟

هكذا سألني وقد خاب أمله قليلًا، ثم أضاف:

– أم تسمح لي بدعوتك إلى زيارة القبو؟ القبو الذي أمارس فيه هوايتي؟
للحظة لم أستقر على رأي.

– فلنترك المزاح جانبًا، ليس لدي جُثث في القبو، كما أن الزمن تغَيَّر. اليوم يمشي الخونة أحرارًا طلقاء. اليوم ...

وعند الباب: أسعدني لقاءك. مع السلامة!

أي لحظة كانت هي اللحظة المناسبة لإنهاء اللقاء؟ هكذا تساءلتُ عندما استيقظتُ من النوم، قبل مواعي في شليزفيج بأسبوع. هل بالفعل لم أنطق حرفًا؟

في الغرب أعرف أعدائي

عند ميدان صوفي شارلوته مثلاً، في أي يوم من أيام العمل في الخمسينيات، لنُقل في خريف ١٩٥٧م: وسط تزاخم البشر الذين يصعدون الدرج في ساعات العصر الأولى، خارجين من محطة مترو الأنفاق شبه المظلمة إلى «زاوريتس-شتراسه». امرأة طويلة رشيقة، نظّارة، ترتدي ملابس غامقة ورمادية مثل الجميع، قد يعتبرها مَنْ يقابلها مُعلّمة في مدرسة ابتدائية. يراها المرء هنا ثلاث مرات في الأسبوع، بين الواحدة والثالثة، وهي تصعد الدّرج متجهةً إلى رصيف «كايزردم»، شاحبةً ومنهكةً مثل كل الآخرين. لا يَلِفُ شيء فيها الأنظار سوى شنطة تسوّق ممتلئة مصنوعة من الجلد الاصطناعي الرخيص، وكيس من القماش ممتلئ هو الآخر.

تحرص أناليزه جروسكورت على عدم ملء الحقائب إلى آخرها. تحمل مواد غذائية، ولا تريد أن يلحظ أحد ذلك. كما أنها لا تريد لفت الانتباه كامرأة لا تأتي بحملها من الـ «كورفورستندم» الراقي، بل من القطاع الروسي البعيد، الذي يسمونه ديمقراطياً، تأتي من العمل في «ناليبه شتراسه» في حي شونيفايده، من التسوق في «ألكسندر بلاتس»، و«كارل ماركس أليه». ليس هذا مخالفاً للقانون، لا في الشرق ولا في الغرب، لكنه، رغم ذلك، يكاد يكون جريمة مقرونة بفضيحة الخيانة المُجلّلة. لم تُعدْ تخشى أن يهاجمها الناس ويقتلوها دون محاكمة، لكنها ما زالت حسّاسة تجاه النظرات الشزراء وشتائم الرّعاع والشبهات والوشاية والتحقيقات، لقد مرت بكل هذا كثيراً. لا تريد أن يلاحظ أحد في شارلتنبورج أنها تحمل مُعلّبات من الشرق. حتى برطمانات الخيار المخلل من منطقة شبريفالد كانت تُعدُّ من المحرّمات هناك.

منذ عام ١٩٥٣م تسير ثلاث مرات في الأسبوع حاملةً حقائب مملوءة من محطة مترو الأنفاق «كايزردم»، وتواصل سيرها خمس دقائق حتى تصل إلى منزلها على ناصية

بحيرة ليتسن، ثم ترتقي الدرج إلى الطابق الثاني. عبر سنوات طويلة لا يحمل عنها أحد العبء، عبء حمل ونقل مواد غذائية بالقطار ومترو الأنفاق عبر نصف المدينة، وعبر دولتين مُتعاديتَيْن.

تسألني كاترين: ولماذا كل هذا؟ لماذا لا تتسوق من أمام بيتها عند «بوله» أو في محل آخر؟

— من دخل العيادة كانت تدفع الإيجار والتأمينات، لكنه لم يعد يكفي للحليب والخبز.

— دُخلٌ طبيبة ممارسة عامة؟

— طبيبة يَصْمُونَهَا بالشيوعية، وتُطْلَقُ عليها الصحافة لدى كل قضية جديدة «بوق البروباجندا الحمراء». مثل هذه الطبيبة لا يتزاحم على باب عيادتها المرضى من خارج نطاق التأمين الصحي. ثم لا تنسي الديون لدى المحامين.

— ولكن الطبيب لدى التأمين الصحي لا يموت من الجوع؟

— إذا نظرنا إلى الأمر نظرة وضعية سنقول: إن مشكلتها هي استقامتها، فهي لا تُحَاسِبُ التأمين الصحي إلا على الأشياء التي تَعْتَبَرُها ضرورية، الأشياء التي قامت بها فعلاً. إنها تحتقر الأطباء الذين يتميزون بالابتكار لدى كتابة الفواتير أكثر من اتصافهم بالابتكار أثناء العلاج. اعتراضاً على نهب الأموال الذي يقوم به بعض الزملاء تُفَضِّلُ هي — بكل عناد كعادتها — أن تحسب أقل من اللازم. إنها تعتبر زيارة المريض في المنزل، حتى في منتصف الليل، شيئاً عادياً تماماً، ولذلك لا تطالب بأجر إضافي. في الفترة التي لم تكن تمتلك فيها سيارة، كان يَحْتَمُّ عليها أن تقطع مسافات طويلة بالتاكسي، فكانت أجرة التاكسي أعلى من الأجر الذي تحصل عليه. وعندما يحاول شخص أن يشجعها على أن تكون أقل صرامة في الحسابات، كانت تردُّ غاضبة: لستُ أنا من يفعل ذلك! أنا لستُ شركة تجارية!

— هل كان مسموحاً بنقل المواد الغذائية ببساطة هكذا من الشرق إلى الغرب؟

— ليس ببساطة. في مطلع الخمسينيات كان آلاف البرلينيّين الغربيّين يشترون المواد الغذائية الرخيصة التي تُصبح أكثر رخصاً إذا ما أخذنا في الاعتبار سعر التحويل، وهو أربعة ماركات شرقية مقابل المارك الألماني الغربي. كانوا بلذّة سارق يقومون بشراء كل ما في محلات الشرق، من لحم وسجق وجبن ومعلبات وخبز ومخبوزات وعَرَق؛ أي إن المحلات كانت خاوية والناس ساخطين، ثم صدر قرار بمنع ذلك، وحصل البرلينيّون الغربيّون الذين يعملون في الشرق على بطاقة تَسَوُّق؛ ولأنّ الفلوس التي كانوا يكسبونها في الشرق لم

تكن لها قيمة في الغرب، كانوا يعتمدون على التَّسَوُّق هناك، ونَقْل المواد العينية إلى الغرب بعد تفتيشها على الحدود. كَثُر عدد الذين يعبرون الحدود ممن كانوا يعيشون في الغرب ويعملون في الشرق، أما عدد الذين يقطعون الطريق المُعَاكِس فكان أكثر. كانوا ثلاثة أطباء من الغرب يعملون نصف الوقت في عيادة الإذاعة. لا بُدَّ من صرف النقود هناك، في الشرق. البذخ الوحيد الذي يستمتعون به هو تفصيل ملابس لهم عند خياط في شارع «أونتر دين ليندن».

– وشُرطة برلين الشرقية؟

– كان اهتمامها منصباً على الذين يحملون حقائب يد مشبوهة؛ أي على الهاربين.

– وشُرطة برلين الغربية؟

– كانوا يسجلون بكل اجتهاد أسماء الذين يعبرون الحدود بانتظام والذين يحملون حقائب مُتَحَمَّة. كانوا يُعارضون دخول المنشورات الدعائية، ولكن لا اعتراض لهم على لحم الخنزير أو ثمار الليتشو المجرية. لم تَلَفِ السيدة جروسكورت النظر بشدة إلا بعد بناء سور برلين. لم يعد يعبر الجدار من المواطنين الغربيين إلا قلائل كانوا — أيًّا كانت دوافعهم — يرفضون التقسيم، كائنات شاذة تثير الشبهات.

– وهكذا كانت تحمل قدرها بيديها، بكل معنى الكلمة؟

– في عام ١٩٥٩م أهدتها أمها سيارة من ماركة DKW، نصف أوتوماتيكية؛ لأنها كانت مرعوبة من تبديل السرعة بطريقة يدوية. لم تَعُد بحاجة إلى أن تحشر نفسها في عربات القطارات بأكياس مملوءة بعد أن حصلت على تصريح لمرور «إنفالدين-شتراسه». في تلك الأثناء تحسَّن دخلها أيضاً في شارلتنبورج، ولم تَعُد مُرَغمة على شراء كل لوازم الطعام من الشرق. ولم يمر وقت طويل حتى تمكَّنت من شراء وجبات غربية للمرة الأولى، كانت تُقدِّم باحتفال وكأنها طعام فاخر لذيذ، مثلاً علبه مكرونة رافيولي.

لم تكتفِ كاترين بما قلتُ وواصلت السؤال: ما لا أفهمه: لماذا لم تَبَقْ هناك ببساطة؟

بدون قضايا ولا إذلال ولا أكياس؟ بالتأكيد كانوا سيعرضون عليها وظيفة محترمة؟

– النظام الاشتراكي جميل، ولكنَّ بناءً أمر بشع، هكذا قال لها أحد أصدقائها، طبيب من الغرب كان يعمل في الشرق أيضاً.

– يعني لم تكن شيوعية في يوم ما؟

– ولا حتى شيوعية بورجوازية راقية. لم تقرأ حرفاً لماركس. ربما قرأت صفحات قليلة من بلوخ؛ فهي كانت على صداقة جيدة مع إرنست، ومع كارولا بلوخ على وجه الخصوص،

منذ أن كانوا يقضون معًا الإجازات في جبال الإترس مطلع الخمسينيات. صداقة عائلية، كانوا يتبادلون الكتب والآراء، وتوطّدت علاقتها بآل بلوخ عندما بقوا في الغرب.

– يعني لم تشعر بإغواء أن تعيش حياة مُريحة في ألمانيا الشرقية؟

– إنها تعشق الحرية! والرافيو، و«مبدأ الأمل»،^١ والسيارة نصف أوتوماتيكية. تطرّق الحديث إلى موضوع الانتقال إلى الشرق عندما كان رولف وأكسل يواجهان مدرسين يستمتعون بمضايقة أطفال المرأة الشيوعية. لا، حسبما أعرف، لم تفكر في الأمر تفكيرًا جدّيًا أبدًا. كانت بفطرتها تعرف – هذا هو تقديري – أن من الأفضل ألا تصبح طرفًا في الصراعات الداخلية في ألمانيا الشرقية، وألا تواجه ضغطًا من أحد الأحزاب المشبوهة لكي تنضم إليه. بغض النظر عن الأقارب والأصدقاء في الغرب، كان شعورها بالتعب من السياسة والقضايا والكفاح يزداد يومًا بعد يوم. بحدسها كانت تعرف أن عقيدتها المُسالمة لن تهم أحدًا في ألمانيا الشرقية أيضًا. ثم يتناهى إلى سمعها كيف تتلاعب الدولة بصديقها هافمان. كانت تحب ترديد الجملة التالية: في الغرب أعرف أعدائي. ثم لا تنسي عرقها البروسي. مُعادة الفاشية والنزعة العسكرية والطب، كان ذلك يكفيها.

– ولكن لماذا ظلت حتى اليوم تعالج الناس الذين ينشرون البروباجندا؟

– إنها لا تعالج هؤلاء وحدهم. كطبيبة تتحلّى بأخلاق أخرى. لم تكن اليوم ستحتاج إلى ذلك على الأرجح. لا بدّ أنها فعلت ذلك عرفانًا وشكرًا عندما أنقذوها. كانت في أسوأ حال عندما عرضوا عليها الوظيفة في الإذاعة في «مازورين-أليه». وعندما انتقل مبنى الإذاعة ظلّت على وفائها للذين أنقذوا. وعندما بُني السور تَمَسَّكَ بموقفها. لا يتخلّى الإنسان عن الضعفاء، حتى لو كان المعنيّ هنا دولة ضعيفة. والآن، وهي ترى هافمان ينقلب من ستاليني مائة في المائة إلى مُنشَق مائة في المائة فإنها تُصر على مبدئها. كل هذا سيّئ، ولكن على الأقل لا يحكم في ألمانيا الديمقراطية شخص مثل كيسينجر.^٢ تنطلق بالسيارة كعادتها في اتجاه «إنفاليدين-شتراسه» و«ناليبا-شتراسه»: الإنسان لا يتخلّى عن المرضى.

آنذاك، عندما خُصّت مع كاترين مثل هذه الأحاديث المتذاكية لم نكنْ نعرف أنه كان بإمكان السيدة جروسكورت أن تكسب نقودًا أكثر طوال تلك السنوات، لو كانوا قد منحوها نصيبها من دخل الأدوية التي طوّرها أو حسّنها زوجها. مثلًا دواء «الكاتاليسين»، أو «الأوفيلين»، وهو دواء يُستخدم في حالات الربو الحادّة، دواء يعرفه كل طبيب وما زال استخدامه شائعًا حتى اليوم، اخترعه الصيدلي جونتر، وطوّره الدكتور جروسكورت. على الأقل كان بإمكان هذا الشريك أن يتذكر الأرملة، لو كانت الأمور تسير على ما يرام. ولكن ماذا يسير على ما يرام؟

لا بد للأمر من نهاية

لن تذهب أنا ليزه جروسكورت إلى السجن. حالفها الحظ؛ ولأنها كانت خلال القضية الجنائية مُشتَبَهاً بها، ومُدَّعى عليها، تقريباً عميلة، فقد تمهلت محكمة الولاية في النظر في دعاوها بشأن التعويض. ثم هناك القضية الأخرى في المحكمة الإدارية العليا بخصوص جواز السفر. ورغم أن الطبيعة أوضحت للمحكمة الإدارية العليا بلغة موضوعية مَنْ هم المُحرَّضون على الحروب وَمَنْ هم الفاشيون، فإن السادة القضاة تمهلُوا عامّاً كاملاً قبل أن يُرسلوا إليها قائمة بعشرة أسئلة حول لجنة جروسكورت، طالبين منها الإجابة عليها في غضون أربعة أسابيع؛ لأن الموضوع يحتاج إلى توضيحات أكثر. يُطلب منها مثلاً أن تُسلّم المحاضر الكاملة لكافة جلسات لجنة جروسكورت، وأن تُقدّم كذلك أوراق اللجنة بخصوص كافّة الحالات التي تم تقديم المساعدة فيها لأشخاص أفراد وفقاً لأهداف اللجنة.

تعنّت ومضايقات، أشياء متقادمة لا تعلم عنها السيدة جروسكورت أي شيء. إنهم يريدون التنصت ومعرفة كل شيء، يريدون تخويفها، لا شيء غير ذلك. ولكن كيف يكون ردُّ فعلها بعد أن خارت قواها تماماً بسبب القضايا الأخرى؟ هل تجيب بأنها لا تستطيع إطلاقاً الإجابة على معظم الأسئلة المطروحة بخصوص اللجنة؟ وبذلك تجلب لنفسها الجرعة التالية من السُّم، أم سحب الدعوى؛ لأن القضايا الأخرى أكثر أهمية، قضايا وجودية؟ هل تستسلم إذن، وهي المنهكة إنهاكاً تاماً من جرّاء تكرار الحُجج نفسها في كل مرة؟ ولأنها ستدفع هنا أيضاً مئات من الماركات؟ هل تستغني عن جواز السفر؟ عن السفر إلى الغرب؟

كلّاً، لم تُعدّ قواها تتحمّل ثلاث قضايا. تعرف المحامية طريقاً منقّداً. لا تقوم بسحب الدعوى، لن تمنح رئيس الشرطة الفرصة ليشمت منتصراً. يجب صدور الحكم في القضايا الأخرى أولاً التي تتعرض لنقاط الخلاف نفسها، ولهذا تطلّب تعليق هذه القضية مؤقتاً. ولكنها لا تنعم بالهدوء؛ في ديسمبر ١٩٥٧م كان قد مرّ عام كامل على النزاع حول «الإضرار بالحياة والإضرار بالحرية»، الحجج تزداد وتتكسر.

لا ترى المحامية سوى فرصة وحيدة. الابتعاد عن المصطلحات المتداولة في صراع الحرب الباردة. ولأن كل رأس من رؤوس الأفعى يثبت بصره على صورة الشيوعية المتنكرة بخبث شديد، تُذكر المحامية القضاة بأن ما أثر في السيدة جروسكورت تأثيراً طاعياً هو ما عايشتُه في «الاتحاد الأوروبي»، وما مرّت به بسبب مصير جيورج ووالدها، وليس أيديولوجية بعينها: لا تتصف المدعية بطبيعة قتالية على الإطلاق. إنها في الحقيقة إنسان غير سياسي، بمعنى أن الصراع السياسي بمصطلحاته الدعائية ولغته التي تجنح كثيراً إلى المبالغة الضرورية أمر لا يتفق مع طبيعتها. إنها طبيبة عن ميل واقتناع، ومهنتها تشغل وقتها كله. بعد فصلها من مكتب الصحة في حي شارلتنبورج كان عليها أن تؤسّس عيادة لكي تطعم أطفالها ونفسها. لقد مُنعت آنذاك من الحصول على أي نوع من أنواع الدعم، إنها لم تحصل على دعم حتى لأطفالها. في ذلك الموقف لم يكن لديها الوقت الكافي لكي تخوض بشكل فعّال كفاحاً سياسياً، أو أن تقوم بمبادرة خاصّة من وحي أفكارها. من ناحية أخرى كانت لديها أذن منتبهة للتحذيرات الواضحة التي صدرت عام ١٩٥١م والتي كانت تشير بقوة إلى إعادة تسليح البلاد.

تشير المحامية إلى المنع المُثير للجدل للاستفتاء الشعبي، إلى الفصل غير القانوني، والعصبية التي سادت شطْرَي برلين في السنوات الأخيرة، وعدم موضوعية الصحافة في الشرق والغرب معاً، والتعتيم على الفضائح التي تُرتكب داخل كل بلد. أيّاً كانت الظروف التي أدّت إلى حوادث الخامس عشر من أغسطس ١٩٥١م فمن الثابت أن ما حدث آنذاك مرفوض جملة وتفصيلاً. لا بُدّ من التحقيق في الحوادث، ولا سيّما وأن صحافة برلين الغربية صمّتت عن جزء منها صمّت القبور، أو غصّت النظر عن بشاعتها ولم تُقَم بالكشف عنها. في مثل هذا الموقف العصيب استجابت أناليزه جروسكورت إلى طلب أفضل أصدقاء زوجها، روبرت هافمان؛ لأنه يمثل بالنسبة لها سُلطة أخلاقية.

يُرفقان الكلمة التي ألقته السيدة جروسكورت في أوشفيتس أمام أمهات القتلى وأراملهم وأيتامهم، وخطاباً ألقته عام ١٩٥٢م في مُلتقى المُلاحقين من النازية، وكذلك الكلمة التي اعترضت بها على حكم محكمة العمل عام ١٩٥١م، لم تستخدم الطيبة كلمة هجوم واحدة على النظام الأساسي الديمقراطي الليبرالي للبلاد، ولا كلمة دفاع عن سياسة ألمانيا الديمقراطية، قد يكون وضعها «بين الجبهات» غير مألوف. ولكن موقفها واضح: لا للفاشية والحروب، نعم لتحقيق وصية زوجها المضحى بذاته، ولكنها ليست ضد النظام الديمقراطي الليبرالي.

وبينما راحت محكمة الولاية تفحص هذه الحجج، أو تدّعي فحصها، تحرّرت أناليزه من الخوف: لم يسبق لمذكرة قانونية من المذكرات الكثيرة التي قُدمت أن كانت بمثل هذه الموضوعية، وبمثل هذا الاتقان والوضوح والتفصيل والحماس، لن يستطيع أحد الآن أن يُشهرّ بها باعتبارها شيوعية شريرة.

عندئذٍ تبخ عليها أفعى مصلحة التعويض جرعة السم الجديدة القديمة: نازية! الرابطة النازية للنساء! كذابة!

تَمَرَض، لم تُعدّ تستطيع؛ لقد مرّت بثلاث قضايا، وأُجبرت على خوض قضيتين. القضيتان تُوجَلان، وملفها يتضخم مع الأيام. شرحت كل شيء مئات المرات، وعليها أن تشرحه مئات أخرى. ولكن أن تفتري عليها محكمة الولاية وتصفها بالنازية، فهذا شيء يصيبها في مقتل ويجعلها تترنح ويؤقف نبض قلبها. طوال خريف ١٩٥٧م وحتى منتصف الشتاء كان عليها أن تُصارع وباء الإنفلونزا، ليلاً ونهاراً، غرباً وشرقاً. المَرَضَى أولاً ثم القضايا، شعارٌ كثيراً ما أثار غضب محاميتها النشيطة. والآن ها هي الأنفلونزا الرهيبة ترمي بها هي أيضاً على الفراش، طيلة شهر يناير، العيادة مُغلقة، لا بدّ من البحث عن طبيب ينوب عنها. تُصارع للبقاء على قيد الحياة. محمومة ترى نفسها وسط أدغال آلاف الإهانات الوضيعة التي أصابتها من الأحكام القضائية والمذكّرات القانونية، خلال حرب الاتهامات، تعود بها الحمى إلى إرهاب المكالمات التليفونية الليلية، إلى الأيام التي كانت تسمع فيها سباب الزملاء والمَرَضَى. تقذّف بها الحمى إلى سنوات الماضي الذي لم تكن تريد أن تتذكّره أبداً، زنازين الانتظار الانفرادي قبل أن يحقق الجستابو معها في قبو «برنتس ألبرشت شتراسه»، الصمّت أثناء التحقيقات، الليالي التي قضتها وهي تسمع صفارات إنذار الغارات في الطابق الأعلى من سجن الشرطة، عندما سُمح لكل السجناء بالنزول إلى المخبأ، ولم يسمحوا لها. محمومة تقف أمام محكمة الشعب العليا، وتسمع صوت فرايزلر، وترى

المنشورات. لا، لا، لا تريد مرةً أخرى أن تشعر بوخزات ألم تلك المنشورات السياسية. روبرت هو الوحيد الذي يستطيع مساعدتها اليوم، لا بُدَّ أن ينقذها روبرت.

أخيراً استطاعت الاتصال بالصدّيق. يكتب إقرارًا شارحًا لماذا كانت العضوية في الرابطة النازية للنساء ضرورية للتصويه آنذاك. يُوضّح عمل المجموعة، يتحدّث عن اليهود الذين خبّأهم آل جروسكورت في شقتهم، يمتدح — مبالغًا بعض الشيء — المساعدة متنوعة الأوجه التي قامت بها أناليزه لدى تقديم المخبأ لليهود وإمدادهم بالمواد الغذائية، في الحصول على أموال وفي تزوير الجوازات واستخراج شهادات طبية مزوّرة، وكذلك في توصيل المعلومات. يصف روبرت الأخطار التي عرّضت نفسها لها من أجل المجموعة. يشرح بالتفصيل الأسباب التي حملت المجموعة على الإلحاح عليها للانضمام إلى الرابطة النازية للنساء. ويعلن عن استعداداته للشهادة بذلك.

تظن أن الإقرار هو خلاصها، لكن المحامية تطالب بالمزيد: هل هناك يهود نجّوا من الملاحقة؟ أسماء؟ مَنْ زوّر الجوازات؟ مَنْ وزّع المواد الغذائية؟ مات الشهود، لم يبق أحد بالبحث والتقصّي عن نشاط المجموعة، والشبكة التي اعتمدت عليها، أفراد يمكن عدّهم على أصابع اليد الواحدة، هم الذين ما زالوا يعرفون مجموعة الاتحاد الأوروبي. رغمًا عنها تستكمل شرح روبرت، وتصف بالتفاصيل الوضع المأساوي الذي وجد جروسكورت فيه نفسه بعد أن طالبه هيس بالانضمام للحزب. كلما تذكّرت تفصيلًا، وخزّها الألم.

وبماذا يجب رجل القانون في مصلحة التعويض؟ إنه يتحدّث عن أعمال مقاومة مزعومة، ويدّعي أنها لم تتعرض لمدة الحبس القصيرة بسبب عدائها للنازية. إن مدة الحبس القصيرة دليل على أنها لم تكن مُلاحقة؛ أي إن منطقته هو: ما داموا لم يقطعوا رأسها، فلا بد أنها كانت نازية!

مثل هذا المنطق قد يتبناه محامي الخصم، وليس قضاة محكمة الولاية. القضاة، أين هم؟ ماذا يفعلون؟ فيم يفكرون؟ إنهم يتكئون باسترخاء على مقاعدهم، طوال أشهر، يدرسون الأحكام الصادرة من محكمة العمل والمحكمة الإدارية، يستقصون الأمر لدى المحكمة الإدارية العليا فيما يخص الجواز المُعلّق، طوال أشهر كانت تنتظر خلالها تعويضًا هي في أمس الحاجة إليه.

وأخيراً تقرر صدور الحكم في جلسة ١٠ / ١٩٥٩ م. بعد ثلاث دقائق لا غير؛ إذ لا بُدَّ للأمر من نهاية، رُفِعَت الجلسة للمداولة. تعرّض المحامية إذ إن المحكمة لم تناقش موضوع القضية في أي جلسة من الجلسات حتى الآن، ولا سيّما وأن المدعية حضرت للإدلاء بأقوالها، وكما جاء في إخطار المحكمة. الأفعى الرئيس تبقى باردة، لقد تمّ شرح كل شيء

في المذكرات القانونية التي قُدمت، وسوف تنظر هيئة المحكمة فيها بالعناية الواجبة. هيا، إلى المنزل! وبعد ساعتين نضج الحكم: رُفِضَت الدعوى.

يريد السادة القضاة أن يكونوا أكثر معرفةً بمقاومة النازية من روبرت وأناليذه وكل الخبراء: لم يتضح للمحكمة سبب عضوية زوجة أحد المقاومين في الرابطة النازية للنساء، ولماذا كانت هذه العضوية تموياً لكفاح زوجها. طوال ثلاث صفحات والأفعى تُطلق تكهناتها وتواجهها بالاتهام التالي: لم تَقْمِ المدعية بعرض وقائع تسمح بالتوصل إلى نتيجة مُفادها أنها كافحت ضد النازية، مُعرضة حريتها ونفسها وحياتها للخطر. إلى ذلك، وعبر سبعة سطور، يتم الحط من شأنها مرة أخرى باعتبارها شيوعية تُحارب النظام الديمقراطي الليبرالي، وكالمعتاد باسم الشعب.

متقاعد ومعه كلب في شليزفيج

عندما شققتُ طريقي في الملفات حتى وصلتُ إلى هذا الحكم، تَفَتَّتْ فجأةً نيتي الطبية في التَّخَلِّي عن العنف. إذا كان قضاة برلين لا يستطيعون التفرقة — بعد عشر سنوات، بعد عشرين سنة من الديمقراطية — بين النازي وغير النازي، عندما يُبرِّتُونَ القَتْلَةَ ويُدينون الضحية، فلا بد من أن يوضَّح أحد هذا الفارق على نحو مُدَوٍّ يَلِفْتُ انتباه الجميع. لا بُدَّ عندئذٍ من الإشارة بالأصبع إلى الجاني الحقيقي، حتى لو كان الأصبع مسدسًا. وهكذا برزت خطط الاغتيال مجددًا. هل ينبغي عليَّ أن أتخلَّى عن فعلتي، وعن هذا التوضيح للأمور لا لشيء إلا لخوفي من النقد المحتمل الذي سيوجهه آل جروسكورت لي، أو خوفًا من الصحافة التي قد تستهزئ بي باعتباري مَحْض مقلد وراكبًا للموجة؟

كانت كاترين في لندن عندما سافرتُ إلى شليزفيج وهذه الأفكار تملأ رأسي؛ لم نستطع التوصلُ إلى حل وسط. وهكذا كَلَّفْتُ نفسي من جديد بالتكليف القديم: مراقبة الضحية ووضع خطة دقيقة. بعنادٍ نادر أردتُ أن أبرهن لنفسي على أنني لستُ كالمثقفين الذين يُوجِّلون الفعل ويتهربون من الخطوات المحددة اللازمة لتنفيذه.

أتذكر فندقًا رخيصًا بالقرب من محطة السكك الحديدية، ولسببٍ ما سخيْف، لا أزال أحتفظ في رأسي بثمان الغرفة، ٢٥ ماركا. نظرة واحدة في دليل التليفون تكفي للعثور على العنوان المطلوب. عند الغروب تخَفَّيْتُ في هيئة مُتَنَزِّهٍ ورحلت أسير الهويني في حي الفيلات؛ حيث يسكن — كما يُشاع — عديد من رجال القانون. عثرتُ على بيت «ر» سريعًا، وأثناء المرور عليه سَجَلْتُ في ذهني: شجيرات متوسطة الارتفاع، ورود في الحديقة، منزل مُتَّسِع رَحْبٌ من مطلع القرن العشرين، السقف مغطَّى بالبوص كما هو شائع في مَنَازِل شمال ألمانيا، الضوء يسطع من وراء ثلاث نوافذ.

كانت حِسْبَتِي بسيطة: القاضي المتقاعد له عاداته الثابتة. لو كانت كاترين معي لكنتُ راهنتها، وكسبت الرهان:

الإفطار في السابعة والنصف، بعدها بنصف ساعة يذهب للتمشية. في الثانية عشرة والنصف يتناول طعام الغداء، وبعدها يتمشى للمرة الثانية. في السابعة يحصل على عشاءه، وربما قبله أو بعده يتمشى تمشية مسائية.

نحو السابعة والنصف صباحاً كنتُ في موقع المراقبة، جالساً في السيارة أمام عيادة طبيب أسنان، ألقب في صفحات الجريدة المحلية. لا يبعد منزل «ر» سوى مائة متر تقريباً. لم يعد باستطاعة المرء أن يفعل ذلك في أيامنا هذه، الجلوس في حي الفيلات في سيارة ذات أرقام برلينية، عدة مرّات خلال يومين، على الفور سيثير المرء شبهات الشرطة وسكان الحي، وسيوضع تحت المراقبة. لم أكن أخشى شيئاً من الجيران في تلك الفترة البكر قبل سنوات الإرهاب، وإلى ذلك في المناطق الريفية، وأمام عيادة طبيب أسنان.

في الثامنة إلا خمس دقائق خرج الرجل القصير الذي كنتُ أعرفه من الصور في الصحف، مرتدياً معطفاً رمادياً وقبعة رمادية. سار على الرصيف ومعه كلب طويل الشعر من فصيلة «دكل»،^١ مربوطاً، ألقى نظرة سريعة إلى اليمين في اتجاهي، ثم اتجه يساراً. لم أتبعه، لم أرد لفتَ انتباهه. قضيت فترة قبل الظهر متفرّجاً على معالم شليزفيغ السياحية والفايكنج والموميאות التي عُثِرَ عليها في المستنقعات. في الظهرية عُدتُ إلى حي الفيلات، تركتُ السيارة في شارع بعيد، ولعبتُ دور المتمشي.

في الواحدة والنصف، أمام بوابة حديقته، كاد «ر» أن يصطدم بي، لم تكن المسافة بيننا تزيد عن مترين أو ثلاثة، الزوجة يساراً، والكلب يميناً. واصلتُ سيرتي بخطوات ثابتة. وجه مريض مفزوع. في المساء — كنتُ في تلك الأثناء قد ذهبتُ لرؤية اللسان الممتد من بحر البلطيق في المدينة، كما تفرّجت مرة أخرى على الفايكنج — بدأ «ر» جولته الثانية في السادسة والنصف. ليس بصحبته سوى الكلب. خلال مراقبتي له في اليوم التالي أيضاً جرى كل شيء كما توقعت، حافظ «ر» على برنامجه الثابت: الثامنة، الواحدة والنصف، السادسة والنصف، في كل مرة كان ينعطف يساراً. كنتُ في غاية الحرص على ألا يكشفني. إنني أتساءل اليوم: هل شعرتُ بالتعاطف مع الرجل؟ لم يصل شعوري إلى هذا الحد؛ لأن وجهه كان يبدو كاعترافٍ. تعارض وجهه تماماً مع ما قاله أمام المحاكم لتبرئة ساحته. أثبت الوجه أنه يشعر بانتهاكه القانون. نعم، رجل مُسن، لماذا كل هذا الجهد؟ لماذا أُعلي من قيمته بالقتل؟ هذه الفكرة كانت تخطر على بالي كثيراً، ولا سيّما في دقائق الانتظار

أثناء المراقبة. غير أنني أجهدتُ نفسي كي لا أرى في «ر» المتقاعد الخواف، بل المنفذ، المجرم النازي، الشريك في ٢٥٠ جريمة قتل. جلاّد جروسكورت الذي حصل منذ نهاية الحرب على معاش شهري بلغ حتى الآن ٢٧٠ ألف مارك ألماني، إلى أن تَمَّت ترقّيته ليشغل منصباً قضائياً في شليزفيج الجميلة، حيث يعيش عديد من النازيين القدماء الذين عملوا في دولة القانون؛ حيث تَمَّت ترقية ممثل للنّياية العامة في المحكمة الشعبية العليا — وهو الذي رفض طلباً تقدم به جروسكورت يلتبس فيه الرحمة — إلى درجة نائب عام أول لدى محكمة الولاية العليا؛ حيث قام الأصدقاء القانونيون في شليزفيج بجمع مبلغ ٢٠٠ ألف مارك ألمانيّاً كفالةً حتى لا يُحبس «ر» خلال قضيته في أحد الزنازين. كان سِجِلُ الذنوب فظيلاً إلى درجة أن الرُّجُل الذي توارى خلفه بداً نحيفاً، مكروباً، بلا كرامة، دمية من دمي القانون. لقد أردت، هذا ما كنت سأعترف به أيضاً للمحلل النفسي في المحكمة، أن أشعر بنفسي بجانبه كمناضل صغير من حركة المقاومة، فدائي لا يضئُ ثانية في التفكير في وجوه أعدائه أو حالتهم الصحية. طلقة رعب في مدينة المومياءات!

كنتُ أفضل بالتأكيد أن أُرديه قتيلاً أمام مبنى الولاية العليا في برلين، أو في قصر فخم آخر من قصور القضاء. في سكون حي الفيلات، نحو الثامنة صباحاً أو نحو السادسة والنصف مساءً. كانت الخطة تبدو فقيرة الخيال، غير أنني لم أكن أستطيع أن أختار مكان ارتكاب الجريمة، ناهيك عن الكواليس السياسية الرمزية المناسبة التي يفضلها صنّاع الأفلام. الخطة بسيطة: أن أقرب منه بالسيارة ومعِي السلاح، ثم أنزل في اللحظة المناسبة، وثلاث طلقات، كل شيء يتوقف على الدّقة.

أعرف، يبدو كلامي متزناً وحكيماً، غير أنني بهذه الموضوعية التي أُوحيّت بها إلى نفسي، استطعتُ أن أسيطر على وخزات الضمير. الاغتيال الذي اعتقدتُ أنني أُمِرتُ به من مذبح محطة القطاع الأمريكي ومن الأحكام الظالمة التي أصدرها القضاء، الاغتيال الذي كنتُ قد نبذتهُ وها أنا أفكر في تنفيذه مرة أخرى، هذا الاغتيال لا بدُّ من أن يتم إعداده وتنفيذ كل دقائقه ببرودة وعقلانية.

خلال رحلة العودة، وسط الضجيج الرتيب الذي كان محرّك السيارة «الفيات» يصدره على طريق الأتوستراد، لم أكن أفكر إلا في مزايا الخطة. وبينما كانت السيارات الأخرى تسبقني، كنتُ أنتشي بالتصفيق الذي سأجنيه والمكافآت التي سأحصل عليها. عليّ تحمّل المرحلة القاسية، السجن خمسة أو ستة أعوام، وربما تكون فرصة طيبة لكتابة الكوميديا الشيطانية. أنت على العموم — هكذا فكرت وسيارتي واقفة في زحام السير قبل مدينة

قاتل لمدة عام

«مارينبورن» — قد نجوتُ من الخدمة في الجيش، ووفرتُ عامًا ونصف عام من عمرك بين الجنود، الآن ستقوم بالتعويض عن ذلك، إن ما تفعله خدمة للديمقراطية، لمدة خمسة أو ستة أعوام.

مهم للحرب

حالي جيدة، هكذا كتب الطبيب في شهر فبراير من زنزانة الموت إلى حماته في فيردا، السيدة إيلزه بلوميه التي كانت ترعى مع أخته لويزه شئون ولديه، حياتنا هنا منظمة نظاماً غير عادي، وهو ما يساهم في الشعور بالراحة. أناام جيداً، تقريباً ١٢ ساعة يومياً، صفارات الإنذار لا تزعجنا. خلال النهار أكتب أبحاثاً علمية، وأقرأ، أحياناً في الطب، وأحياناً قراءات عامة. وهكذا يمكن تحمّل فقدان الحرية. وستفهميني بالتأكيد عندما أقول إنني أشعر بالاختناق أحياناً بسبب الغموض الذي يكتنف مصري.

في مارس وأبريل سيكون هناك بعض التغيير؛ إذ سُنقل عندئذٍ مكبلاً بالقيود إلى برلين ليستمع إلى أقواله شاهداً أمام محكمة الشعب العليا. أما الثلاثة الآخرون الذين ينتظرهم حكم الإعدام فيُنقلون في سيارات أخرى، كلٌّ على حدة، ليس هناك فرصة لنظرة أو إشارة أو كلمة. أمام رايات الصليب المعقوف يرى جيورج المتهم هاتشيك العصبي مرة أخرى، ويحاول أن يشهد لصالحه. لكنه اعترف بكل شيء، هذا ما يلاحظه على الفور، إنه مُحطَّم الأعصاب. لقد أخطئوا؛ لأنهم لم يتصرفوا بصرامة بعد الانطباع الأول الذي تولّد لديهم؛ لأنهم لم يقولوا «لا» قاطعة وحاسمة، ويتجنبوا هاتشيك كليةً. رأى أيضاً الطبيبة رومانوفا والرجل الطيب تسادكيفيتش، الوسيط بينهم وبين عمال السخرة الروس. يبدو أن الجستابو لا يعرف أن رجال الاتحاد الأوروبي استطاعوا في بعض الأحيان أن يحذروهما من حملات الشرطة. ويرى القاضي القصير مرة أخرى الذي يبذل كل جهده لكي يزأر بحدة مثل فرايزلر. كلُّما علا صياحهم بالسباب والشتيمة، اقتربت نهايتهم.

يقوم الجلال روتجر بفلاحة حديقته، فيما جيورج يُجري أبحاثاً عن العلاج بالحديد، وعقار البروجينون. جروتز، صاحب شركة الأدوية — الذي يتعاون جيورج معه منذ عشر سنوات، وطوراً معاً عقار الأوفيلين — يكافح يوماً بعد يوم لتأجيل تنفيذ الحكم.

يتحدّث مع مُمثلي النيابة لدى محكمة الشعب العليا ورجال الادعاء العام في وزارة العدل، ويمتدح الباحث الممتاز الذي يطرح مشكلات جديدة تمامًا ويستطيع حلّها بفضل تبجّره في الفيسيولوجيا والكيمياء والفيزياء. يستطيع أن يبدأ في تنفيذ أحد عشر مشروعًا مهمة للحرب، بل لقد بدأ في بعضها، وذلك للوصول إلى طرق علاج أفضل لفقر الدم، والتيفوس، والالتهاب الرئوي، والتسمم بثاني أكسيد الكربون، واضطرابات الدورة الدموية. وباستطاعة جروسكورت أن يقدّم توضيحات أكثر بشأن الموت تجمّدًا، وسُبل إطالة مفعول الكافيين، ومستحضرات الحديد التي تزيد من الصفائح الدموية. إنه يقوم بأبحاث هدفها تحديد مفعول الغازات الحربية ودرجة التسمم الناتجة عنها، مستخدمًا في ذلك وسائل بسيطة مثل تحليل الدم.

ينجح جروتر في الحصول على إذن بزيارة صديقه.

لكن الفوهرر يريد رؤية جثث، يريد أن يرى خلفه موظفين قساة. يُقدّم أعوانه على الفعل؛ إذ إن الفوهرر سيحتفل قريبًا بعيد ميلاده ويريد هدايا. بعد إشارة الإبهام الصادرة من السادة: ألتماير، والدكتور بارنيكل، وكرامر، والدكتور فرانتسكي، وياجر، وتيسين، وفيلمان، يَحِين قرار وزير العدل في الرايخ الدكتور تيراك. من الممكن تأجيل القرار بشأن هافمان قليلًا؛ لذا يحصل على مُهلة قدرُها ستة أسابيع. أصدقاؤه الصيادلة لهم اتصالات مع الطبيب أول في مصلحة تسليح الجيش، بل وحتى مع المارشال كايتل، وفي تلك الأوقات العصبية لا يغضب المرء السادة الجنرالات.

يريد الفوهرر أن يرى رؤوسًا تتدحرج، عيد ميلاده يقترب، ولهذا يأمر تيراك في الثامن عشر من أبريل عام ١٩٤٤م، وبتوكيل من الفوهرر، بتنفيذ الحكم الصادر ضد جروسكورت، ورينتش، وریشتر. يشعر الموظفون بالراحة، عما قريب سيضعون الملفات التي تحوي التماسات الرأفة المزججة على الأرفف.

يوم الحادي والعشرين من أبريل تطلب وزارة العدل من كبير وكلاء النيابة في محكمة الشعب العليا باتخاذ الإجراءات الأخرى اللازمة بأقصى سرعة ممكنة، وتكليف الجلاد روتجر بذلك. وفي حالة تسليم الجثث لمعهد علمي وفق الفقرة ٣٩ من المرسوم الصادر بتاريخ ١٩ فبراير ١٩٣٩م، فالأولوية لمعهد التشريح بجامعة برلين. مع رجاء عدم نشر خبر الإعدام في الصحف أو في مطبوعات المحكمة.

في الحادي والعشرين من أبريل يُنقل جيورج جروسكورت من زنزانته الانفرادية إلى قسم السُل لإجراء تجارب علمية هناك.

في السابع والعشرين من أبريل يُحدّد كبير وكلاء النيابة لدى محكمة الشعب العليا تاريخ وساعة الإعدام، الثامن من مايو، الساعة الثالثة عصرًا، على أن يُبلغ المحكوم عليه بالموعد ابتداءً من الساعة الواحدة والنصف ظهرًا. ويتم تعيين المدّعي العام كورت مشرفًا على تنفيذ الحكم. في براندنبورج يتم دائمًا تنفيذ أحكام الإعدام يوم الاثنين. في الثامن والعشرين من أبريل يؤكد المحامي هندلر أهمية الأبحاث التي ذكرها جروتر لسير الحرب.

في الثامن والعشرين من أبريل يشرح جروتر للجهات المختصة ثلاثة مشاريع أخرى مهمة للحرب: الدراسة الخاصة بقنّاع الغاز، وبحث يجريه عن تخثر الدم، وطريقة جديدة لقياس عدد كريات الدم الحمراء.

في التاسع والعشرين من أبريل يطلب المحامي هندلر من السكرتيرة أن تطبع على الآلة الكاتبة البحث الخاص بـ **زيادة قدرة الإنجاز البدني أثناء العمل بقنّاع الغاز**، ويرسل نسخة إلى كبير وكلاء النيابة في الرايخ.

في الأول من مايو يكتب جروتر إلى المصالح الحكومية أن مدير معهد القيصر فيلهلم للأبحاث الطبية ورئيس الجمعية الكيميائية، البروفسور كون، يرى أيضًا أن دراسات جروسكورت مُهمّة للغاية للحرب، وسيبحث في القريب العاجل بعدة تقارير تبين حيثيات رأيه.

في الثاني من مايو يتلقى الجلاد روتجر تكليفًا بإعدام المحكوم عليهم بقطع الرأس. في الثاني من مايو يتحدث جروتر مع البروفيسور لانج من الأكاديمية الطبية العسكرية الذي يؤكد أهمية أبحاث جروسكورت للحرب، ثم ينطلق لفوره إلى وزارة العدل لإخبار الموظف المختص في الوزارة.

في الثاني من مايو تلتزم الوزارة من محكمة الشعب العليا أن ترجئ تنفيذ الحكم حتى تقدم وزارة العدل توجيهاتها بهذا الشأن.

في الثالث من مايو يُرسل قرار تنفيذ الحكم للمحامين الذين عينتهم المحكمة للمحكوم عليهم جروسكورت، ورينتش، وريشتر، وكذلك بطاقات تسمح لهم بحضور الإعدام. عليهم التزام الكتمان التام وارتداء البديل الداكنة.

في الثالث من مايو تصل الدراسة عن **زيادة قدرة الإنجاز البدني ... إلى كبير وكلاء النيابة**.

في الثالث من مايو تُعرض مرة أخرى حالة جروسكورت وكذا رأي جروتر وتقارير الخبراء الجديدة على وزير العدل في الرايخ الذي يقرر: كلا، إن الأبحاث ليست مهمة إلى هذا الحد بالنسبة للحرب.

في الرابع من مايو يطلب كبير وكلاء النيابة من الوزارة أن تفيده بشأن ما إذا كانت رسائل جروتر قد أُرِجأتُ تنفيذ الحكم المقرّر.

في الخامس من مايو تَرُدّ الوزارة بقرارها الصادر في الثالث من مايو: ليست الأبحاث مهمة للحرب.

في السابع من مايو يقوم جروتر بإخطار الوزارة بأن البروفيسور الطبيب مونتش يشدد هو أيضًا على الأهمية القصوى لأبحاث جروسكورت بالنسبة للحرب، وأنه سيرسل تقريرًا بهذا الشأن في أقرب وقت.

في ليالي تلك الأيام كان عدد لا يحصى من القنابل يسقط على برلين، ولكن السُعاة كانوا في النهار يجدون طريقهم وسط الأنقاض، بين الوزارة في «فيلهلم-شتراسه» ومحكمة الشعب العليا في «بلفو-شتراسه»، وسجن براندنبورج-جوردن.

لا تكن جباناً مثل شتاوفنبرج

في حديقة الحيوان رحْتُ أتاَمَلُ في القتل.

نهاية أبريل، الربيع يطالب بأفعال جديدة، والخضرة تندفع إلى البراعم. كنت أجلس في المكتبة العامة عازماً على أن أغدو قاتلاً في منتهى العقلانية. لقد جمعتُ معلومات عن جروسكورت وهافمان، ولكني لا أعرف إلا القليل عن هربرت ريشتر، وباول رينتش، لم أكن قد تحدّثتُ مع الأرملتين بعد. لا بدُّ أن أهتم أكثر بالمعماري وأخصائي الضوء ريشتر الذي صمم قبل عقود نظام الإضاءة في حديقة الحيوان، قبل أن يكلفه جورينج بتصميم وإخراج الحفلات التي تُقام بمناسبة عيد ميلاد المسيح، وبتقدير الأضرار التي أحدثتها القنابل خلال الحرب، وربما يكون قد اطلع عبْر مساعد جورينج على أسرار مثلما حدث مع جروسكورت والأخوين هيس وكيلر وقادة المقاطعات.

كان من الظلم ألا أقدّم له ولرينتش التكريم الكافي، ولكن هل سأحمّل نفسي أكثر من هذا؟ كان حكم براءة «ر» قد صدر، لم يُعد هناك شيء يمكن تحليله، أليست هذه مهمة رجال القانون؟ عليّ ألا أتعقّق أكثر من ذلك في دراسة المجموعة، أليست هذه مهمة المؤرّخين؟ حان وقت إصدار كتاب والقيام بفعل، أليست هذه مهمتي؟

النظرات كانت تهرب إلى الخارج، لم تكن حديقة الحيوان بعيدة. تركت الكتب، لملمتُ ملاحظاتي، وسرت إلى المحطة عابراً الميدان الصغير واشتريتُ تذكرة دخول. بين الحين والآخر كان رجال الاتحاد الأوروبي يلتقون مع معاونيهم سرّاً في حديقة الحيوان، أما أنا فكنْتُ أبحث عن الأماكن التي تحدّثوا فيها، حيث قام كل منهم بفحص نيّة الآخر وأهدافه. فكرة غبية، هذا واضح؛ لأن حديقة الحيوان دُمّرت خلال الحرب، لم يُعد شيء موجوداً على حاله، ولا حظيرة جمال واحدة، أو جحر حيوان، أو عُش طيور، أو عمود نور صممه هربرت ريشتر. وحتى الأشجار القديمة لم يُعد لها وجود، الطُرق تم تبليطها

من جديد، الأسوار الخشبية، أحواض الشرب، الدُّكَّ، اللافئات، كل شيء كان مختلفًا عن حديقة تلك الفترة.

تَمَهَّلْتُ في سيري عبر طرق الحديقة، مارًا بالحمير الوحشية والثيران الأفريقية، ثم الزرافات البرية وصولًا إلى النعام والدَّيْبَة التي تتغذى على النمل، إلا أن خيالي خذلني ولم أستطع أن أتصور هافمان، أو جروسكورت، أو ريشتر على إحدى تلك الدُّكَّ، أو بين زحام الزُّوار وهم يُطعمون الدببة القطبية. وعندما قابلني رجل بنظارة سميكة الإطار يشبه باول رينتش، تخيلت طبيب الأسنان يتسلم من الشرطي المتقاعد جوارًا مزورًا أمام بيت الزرافات.

استغرق الأمر فترة ما إلى أن صرفت النظر عن خداع النفس الذي أمارسه، وتوهَّمي أنني سأقوم في هذا المكان أيضًا بجمع المعلومات لكتابي. رحتُ أستمتع بهذا التناقض الجميل: في الخارج، خلف سور حديقة الحيوان، هتافات الثورة، هراوات الشرطة، الشعارات، الأحجار، التجاوزات وأعمال الشغب اليومية التي كانت الصحف تُضخمها وتحفل بها بأفعل التفضيل. وهنا، في قلب المدينة، بين الأشجار وأقفاص الطيور، البيئة الوديعة التي يعيش فيها ألف حيوان، لا شيء سوى الرعي، والالتهام، والاجترار، والمشي، والإغفاء، والحملقة، والنوم، سلامٌ مُسَكَّر خلف قضبان الأقفاص.

في بيت القروء كل شيء كالمُتَوَقَّع، قروء الشمبانزي تغيط وتُعَابِث وتُخيف بعضها بعضًا، الجمهور يضحك. أحسستُ بالراحة عندما رأيتُ مرة أخرى مجموعة من الوجوه السعيدة. ذكرني شمبانزي عجوز بالقاضي العجوز المتضائل «ر». هل أستطيع قتل قرد؟ توهَّمتُ أن قتل «ر» أسهل.

يلح السؤال علي: هل أقدر على اغتياله؟ جلست على دكة وأخذتُ أتفرج على قفزات القروء. يبقى القتل محرَّمًا، ولكن الاستثناءات لا بُدَّ منها. جولفيتسر قال بعد «معركة الحجارة» في «تيجلر-فيج»: الفاشيون وحدهم هم الذين لا ينظرون إلى العنف باعتباره مشكلة، أما الاشتراكي فعليه أن يبرر دائمًا وظيفة العنف. إن أي شكل من أشكال العنف ضد البشر هو لا إنساني؛ إذن لا بُدَّ من أن أبرر فعلتي. موافقًا على كلام جولفيتسر رحتُ أقول لنفسي: أنت لا تريد سوى الانتقام، تنفيذ حكم، ليس هدفك هو دفع الاشتراكية إلى الأمام، بل دفن الفاشية. ولا ننسى أن يهوديت — مثلًا — قتلت أليفانا.^١

ولكِبْتُ خوفي مما أنوي فعله، شغلتُ نفسي بالتخطيط لعملية القتل. إذا حان الوقت، فستذهب — قبل الانتهاء من كتاب جروسكورت بقليل — إلى النجم الأزرق في

«شتوتجارتير بلاتس» وفي جيبيك ٥٠٠ مارك، وتشتري مسدساً وذخيرة، قبل ذلك ستستعلم عن مثل هذه الصفقات. ثم الانطلاق بالسيارة، التدريب قليلاً في مراعي لونبورج، ثم مواصلة السفر إلى شليزفيج، التَّربُّص بالقاتل، والأفضل أن أطلق عليه الرصاص من السيارة. طلبة على الأقل ستصيبه في مقتل.

تعلمتُ تدريجياً أن أهدئ من تأنيب الضمير الذي كان ينتابني ليس فقط في بيت القروء. لا ينبغي عليك أن تطلق النار على الرأس أو القلب، كنتُ أقول لنفسي. ليست كارثة لو أصبته فقط، ليس من الحتمي أن تقتله، إن محاولة اغتيال ناجحة تستحق أيضاً الجهد المبذول. هذا يعني خوفاً أقل من الندم اللاحق والالتهامات المستقبلية التي يوجهها الإنسان لنفسه باعتباره قاتلاً، وعقوبة أخف من هيئة المحكمة. كن مستعداً لكل الأمرين، كن مستعداً لكل شيء، ولا تخطط كثيراً.

المشكلة الوحيدة هي نقل المسدس عبر حدود ألمانيا الشرقية.^٢ أكثر حراس الحدود صرامة في العالم بسؤالهم الأبدي: أسلحة، ذخيرة، أجهزة لاسلكية؟ كان من حقهم تفتيش السيارة والأمتعة وقتما يحلو لهم. ليست هذه هي القاعدة، إلا أن ذلك يحدث كثيراً. فكَّرت في أن أخفي المسدس في شنطة بها كتب، رغم أن الكتب تحديداً كانت تثير الشبهات، أكثر من مرة أوقفوني لكي يُقْلَبُوا ويفتشوا في حقيبة الكتب. ربما يكون كيس مليء بالملابس الوسخة أفضل، المسدس بين الجوارب. أو في معطف أردتديه. لكنهم سيعثرون عليه عندئذٍ. لا بدُّ من بعض الترقُّب والارتجاف، قلتُ لنفسي في جسارة، ثم حَيَّيت الفيلة وسرت في طريقي إلى بوابة الخروج.

شيء واحد لم أكن أريده أبداً: أن أكون جباناً مثل شتاوفنبرج.^٢ لقد أدرك متأخراً جداً أن الاغتيال ضروري، غير أنه فعل ذلك قبل دقائق من الهزيمة الكُليَّة، ولإنقاذ ما لم يعد إنقاذه ممكناً، متأخراً جداً — كان شجاعاً، بالتأكيد، ثم خطط كل شيء تخطيطاً كاملاً، وانتَهز الفرصة المناسبة، ووضع الحقيبة المحشوة بالمفجرات بجانب زعيم كل عصابات القتل — وفي النهاية، بدلاً من أن يَضْحَى بنفسه لإنقاذ ملايين، وبدلاً من أن يضمن تنفيذ ما حَظَّط له، تراجع وأنقذ ذاته، لعدة ساعات. لا، لستُ مغروراً إلى هذه الدرجة حتى أقارن نفسي بشتاوفنبرج، أو أن أقارن القاضي «ر» بزعيمة الأعلى، إنني أرى فقط أن شتاوفنبرج خان شجاعته العظيمة بجُبْنه الأعظم. على الإنسان أن يضحي للقيام بمثل هذا الفعل، ليس من حقه أن يحمي نفسه، وإلا فَقَدَ الفعل قيمته.

في تلك الأسابيع سجَّلتُ الفكرة التالية في عقلي: الاغتيال الكامل هو أن يظل الفاعل مصمِّماً على فعلته حتى النهاية.

الطعن مرفوض

لا بد أن هناك قضاة آخرين في برلين: أوجستين، وإنجلهارت، وجالشكه من محكمة العمل، وكوستر، وشيلينج، وشميت من محكمة العمل في الولاية، وبرتهولد من المحكمة الابتدائية، وبيدرمان، وكلاوس، وكلمروت، وبرويس، وشيفر من المحكمة الإدارية، وبيترس، وبلومكه، وفون شتاين، وتسفايجرت من المحكمة الإدارية العليا، وبلاكوشر، وريشرس، وفالديك، وتسولسدورف من محكمة الولاية، ٢١ قاضياً من ست محاكم أصدروا خلال تسع سنوات أحكاماً ضد السيدة الدكتورة جروسكورت. الاستثناء الوحيد هم السادة المختصون بالعقوبات الجنائية في محكمة الولاية، هؤلاء هم الوحيدون الذين حكموا وفق الوقائع لا الأحكام المسبقة. هناك إذن قضاة في برلين.

لا تستطيع أن تقبل أن يصموها بالنازية. ولا حتى بالشيوعية أو محاربة النظام الديمقراطي الليبرالي، لا لشيء إلا لأنها قالت عدداً من الجمل ضد النازيين والحروب. ناهيك عن أن يكون السبب تشويه سمعة جيورج ومقاومته للنازية.

إذن، الاستئناف لدى محكمة برلين العليا. مبنائها يقع بعد ثلاثة مبانٍ من بيتها في «فيتسليبن-بلاتس». تَخَيَّلْتُ أناليزه كيف سيكون الأمر لو ذهبَتْ ببساطة إلى المحكمة ودَعَتِ السادة المسؤولين إلى الجلوس معها على دكة في المُنْتَزَه المَطْل على بحيرة «ليتسن»، والنقاش حول كل شيء بهدوء. أن تقوم بلطف بتوعية رجال القانون، وأن تُحدِّثهم عن النازية والمقاومة والسلوك التأمري الحذر. أن تُحدِّثهم عن الأنشطة الكثيرة الصغيرة، عن المشاوير التي قامت بها، عن الحصول على أموال، الشهادات الطبية، المخابئ. أن تقترح على القضاة دعوة شهود آخرين بعد هافمان، أي الأعضاء الآخرين من الاتحاد الأوروبي الذين نجوا من الموت، مثل: السيدة رينتشر، والسيدة جروجر، والزوجين اليهوديين الوحيدين اللذين يمكن تحديد هويتهما بين مَنْ نجوا من اليهود. لكن القضاة لا يريدون الجلوس

على دك في المُتَنَزَّه، ينبغي عليهم أن يقرءوا مذكرات قانونية، وأن يلتهموا دوماً المزيد من المذكرات.

مساءً، في طريقها إلى المَرَضَى الساكنين في منطقة البحيرة، كانت ترفع بصرها في ذلك الشتاء إلى النوافذ العالية للمبنى الرمادي الضخم. لا يمكن أن تسكن إحدى الأفاعي خلف هذه النوافذ المُطَلَّة على البحيرة. سينتهي الأمر على خير، تسعة أعوام والأفعى تسرح وتمرح، هذه المرة سينتهي الأمر على خير. تعتقد أنها نجت: قريباً ستحصل على نقودها، وسيستطيع الابنان أن يغادرا المنزل ويبدأ الدراسة، سيُعيدون لجيورج اعتباره، قريباً ستحتفل مع محاميتها وتنسى المذكرات والأحكام نسياناً تاماً ونهائياً.

الإجراءات في محكمة ولاية برلين العليا تسير بسرعة، تحدد الموعد في التاسع من مارس ١٩٦٠م. لا تريد المحكمة النظر في قضية الاتحاد الأوروبي، بل إنها تصدق السيدة جروسكورت في أقوالها بشأن المقاومة الفعلية التي قامت بها، وأنها للتصويه انضمت إلى الرابطة النازية للنساء. تشهد الأفعى لها بسخاء أنها — كما شرحت — ساهمت بنصيبها في مقاومة الاشتراكية القومية. ومن هذا المنظور لا يمكن إنكار وجود ملاحقة نازية للمُذَّعِبة. تتلطف الأفعى معها، ولا تلومها حتى بسبب مُساهمتها المتواضعة في الاعتراض على إعادة تسليح ألمانيا. لكن نفحة السم توجَّهها الأفعى إلى مَنْ قام بهذه الأفعال ضد الجمهورية الاتحادية، رغم أن المنطقة الشرقية أعادت تسليح نفسها أيضاً. انطلاقاً من ذلك يمكن — على الأقل — استشفاف موقف المُذَّعِبة السلبي تجاه النظام الديمقراطي الليبرالي للجمهورية الاتحادية.

لأن السيدة جروسكورت عملت على التوصل إلى هدف يتبناه حزب الاتحاد الاشتراكي أيضاً، فإنها — حسب رأي الأفعى — تُمثِّل خطراً على نظام البلاد. إن المواطنين الراشدين الذين قد يتصرفون انطلاقاً من روح الديمقراطية لا يعرفون رءوس أفعى محكمة برلين العليا، إن الطيبة التي فاتها أن تنتقد في أبريل ١٩٥١م إعادة تسليح المنطقة الشرقية لا يمكنها أن تتوقع الحصول في ربيع عام ١٩٦٠م على تعويض من الغرب بسبب الأضرار التي لحقت بحياتها وحريتها خلال النازية.

انتهى الكلام. ويتم رفض طلب الاستئناف.

رغم ذلك يتجرأ المحامي كاؤل — رجل القانون البرليني الشرقي الذي أنقذها من السجن، والذي يلقي تقديراً مهنياً كبيراً رغم عضويته في الحزب الاشتراكي الموحد — ويرفع شكوى إلى المحكمة الاتحادية العليا للسماح لموكلته بالاستئناف. في ديسمبر ١٩٦٠م

يتم رفض الشكوى. لا يختلف القضاة الخمسة في كارلسروه في أحكامهم عن القضاة الأربعة والعشرين في المحاكم الأقل درجة.

شكوى دستورية لدى المحكمة الدستورية العليا، مارس ١٩٦١م، محاولة المحامي الأخيرة لتصحيح أخطاء القضاة التسعة والعشرين السابقين. يختار لهجة منبرية: السلام بدلاً من الحرب، الصداقة بين الشعوب بدلاً عن الكراهية، التطلع إلى المساواة بدلاً من الزعم بوجود جنس متفوق وجنس مُتَدَن. هذا لا يعني على الإطلاق تَبَنِّي كافة الأهداف السياسية للاشتراكية، وهو ما يظهره العدد الكبير من الذين يختلفون اختلافاً بيّناً في مواقفهم، الذين يوافقون على مبادئ عديدة إنسانية من مبادئ الاشتراكية دون أن يكونوا اشتراكيين. ولهذا فإن الشاكية ليست عضواً في حزب اشتراكي. إن تَبَنِّي هذه القناعة علناً — والأمر سواء أين، وفي أي هيئة، وفي أي اجتماع — هو وفقاً للدستور حق من حقوقها التي لا تُمس. إن مُنْعَهَا من التعبير عن قناعتها، عبّر تعريضها للعقوبة وإلحاق أضرار مختلفة الأشكال بها، يعني اعتداءً أساسياً على كرامتها الإنسانية ومساساً بها.

هل تتوقع أناليزه، هل يتوقع أي شخص أن ينقلب الأمر لصالحها؟ الكرامة الإنسانية؟ حرية التعبير عن الرأي؟ أمام أعلى هيئة قضائية؟ في عام بناء سور برلين؟ ما المتوقَّع، إذن؟

مفاجأة من هامستيد

انطلقت كاترين بالطبع تتحدّث بحماس عن لندن، وعن هوجو، وعن البوتيكا، والناس المهذّبين، عن مترو الأنفاق، ونوادي الخنافس، فقط فرقة الـ Freak out لم تعد موجودة. لحسن الحظ أحضرت ما هو أكثر من حقيبة ملأى بالأحكام النمطية، جاءت بحيوية جديدة، liveliness of mind حيوية العقل، مفهوم أهداه هوجو لها، وكانت تُعلّقه على صدرها كما يعلق المرء وسامًا غير مرئي. بدت لي مرحلة بطريقة لافتة عندما استقبلتها في محطة قطارات «برلين تسو»، ورغم تعب السفر الذي استغرق يومًا ونصف يوم: بالقطار إلى هارفيتش ثم بالسفينة عبر القناة ومع قوة رياح بلغت ست درجات، ثم بالقطار من الساحل الهولندي عبر دولتين ألمانيتين حتى برلين. نظراتي المستريبة أجابت عليها بطريقة قاطعة. لا، قالت ضاحكة، لم يكن بيني وبين هوجو شيء، وليس بيننا شيء!

برهن ملاك لندن حتى في مدينته أنه «جنتلمان» كامل ومُرافق كتوم، لم يُعد لها غرفة عند صديقة له فحسب، بل جولات ليلية أيضًا، ولقاءات مع أصدقاء، ووجبات هندية، وأحاديث عن المكسيك والعالم الثالث، كل شيء كان منشطًا للفكر ومثيرًا للتحمُّس. شاركتُه في رحلتين كانتا كافيتين ليتضح لها أنها تشعر بالانجذاب إلى الجنوب، فهذا العالم المُسكر فاقع الألوان ليس صالحًا لمن يصور بالأبيض والأسود. ثم قالت: يوكو أونو هي الوحيدة التي لم أقابلها، لكنها كانت راقدة مع لينون في فراش بفندق هيلتون في أمستردام. يطلقون على ذلك تظاهر من أجل السلام. كنتُ أود أن أسألها عمّا إذا كانت تتذكرك.

– تغارين؟

– وأيُّ غيره! وأنت؟ تغار من جون لينون؟

– وأيُّ غيره!

بدأت كاترين وكأنها قد قرّرت ألا تلومني على ما سبق. لا بُدَّ أن ذلك له علاقة معقدة — جعلتني فيما بعد أستغرق في التفكير — بقرارها الذي ترسّخ في لندن والخاص بالسفر إلى المكسيك والتقاط الصور في الأحياء العشوائية ولدى الهنود الحمر. نهاية أغسطس، هكذا كان مخططاً، ستستقل الطائرة مع صديقتها أستريد، وتطوف ربوع البلاد طوال خمسة أسابيع متباعدةً نصائح هوجو.

في رأسها كانت تتزاحم النظريات الجديدة الخاصة بالتصوير والتي تبدو اليوم كشعارات جوفاء، لكنها كانت تعتبر آنذاك جديدة ودقيقة ومُحرّرة: على الإنسان أن يُقرّر ما إذا كان يريد أن يعرض الحياة أم الموت. كانت قد تفرّجت على معرض صور عن فيتنام، صور وحشية ودقيقة، رءوس مقطوعة، أجساد اخترقها الرصاص، أجزاء عديدة من الثواني تعرض الموت بكافة أوجهه المتنوعة.

— إذا رأيتهم، أربعة جنود، وجوه مثل الوجوه الأخرى التي تنتظر التقاط صورة مثلما يراها المرء في ألبومات الصور. لا بُدَّ أنهم سمعوا شيئاً عن دستورهم الرائع، Bill of Rights، يضعون على وجوههم ابتسامة الصور، اثنان منهم يمسكان برأسين من الشعر، رأسين مفصولين عن جثتين ممدتين أمامهما بقليل. صور هائلة، لها أثر تنويري، أو ربما مُطهر، إلا أنني تعلّمت منها التالي: الحرب والموت، هذه أمور تخص الرجال، ليست شأني. برلين أيضاً تبدو في عينيها كالحرب، كل شخص يحارب الآخر، لا شيء سوى ذلك. إنها تريد، هكذا قالت بالتقريب، أن تعرض الحياة، ولكن: ليست الحياة الرغدة. في المكسيك ستبدأ من جديد، وستبحث عن الحياة النّهمة للتغيير، من منظور امرأة.

المفاجأة، ولهذا أكتب عن رحلة كاترين إلى لندن في اعترافي، هو الكتاب الذي أحضرته لي. كنت نصحتها بالذهاب إلى مكتبة لبيع الكتب القديمة في هامستيد، وفيها يعرض مهاجران من فيينا أفضل الكتب بأسعار مناسبة، ومنها كتب الفن والتصوير. قالت: امسك، أحضرت لك شيئاً، «رجل الظل»، اعتقدتُ في البداية أن الكتاب له علاقة بالضوء؛ أي بالتصوير، وإلا ما كنتُ مددتُ يدي إليه. قلبتُ قليلاً فيه، يوميات من الحرب، أردتُ أن أعيده، ولكن ماذا رأيته هنا؟

وفتحتُ صفحة وأشارت بإصبعها على سطر من سطور الورق الرمادي القاسي: جروسكورت، وهافمان، وريشتر، ورينتش. أخطئوا في كتابة اسم جروسكورت كما يحدث كثيراً.

— وفي الصفحة التالية هناك وصف للطريقة التي أُعدموا بها. فظيع.

لم أكن قد رأيتُ الأسماء الأربعة في كتاب إلا في «التمرد الهادئ» لفايسنبورن. ولم أسمع أبداً عن هذه المرأة، أندرياس فريدريش. ظهر الكتاب عام ١٩٤٧م، وعلى ما يبدو طواه النسيان تماماً. كيف عرَفْتُ هذه المرأة بالاتحاد الأوروبي؟ وماذا كانت تعرف؟ قرأتُ الصفحتين عن إعدامهم في سجن براندنبورج، وظللتُ لمدة طويلة عاجزاً عن الكلام. منذ ذلك اليوم لم تعد كاترين أبداً تشكو من عملي في كتاب جروسكورت. وأنا كنت أدعمُ خُططها للسفر إلى المكسيك، وهكذا بدأتُ أجمل الشهور التي قضيناها معاً، وآخرها.

الثامن من مايو

اليوم الاثنين، الثامن من مايو، كتب جيورج على ورقة. هل هو اليوم الأخير؟ لقد ازدادت الأحداث التي تشير إلى ذلك. يوم الاثنين الماضي جاءني استفسار مستعجل من الوزارة عن الأبحاث التي أقوم بها وأيُّها مُهمّة للحرب. لماذا جاء الاستفسار متعجلاً هكذا؟ هل أراد أحد أن ينقذ رقبتني قبل التنفيذ بقليل؟ يوم الأربعاء كان ذلك المتعلّم المدرس ين هنا، وقال: إنه لا يرى في حالتنا أملاً. لم يتم العفو عن أحد منذ شهر فبراير. كما أنهم أعدموا أشخاصاً كانوا يقومون بأعمال مهمة للحرب خلال فترة الحبس ... يبدو أن ربحاً عاتيةً تكتسح الوزارة. ربما يعاملون هافمان معاملة خاصة. زوجة ريشتر كانت هنا ومستبشرة للغاية بخصوص الاعتراف بأبحاث زوجها. لقد حصلتُ على الفور وبسهولة فائقة على تصريح بالزيارة. لماذا بهذه السهولة؟ هل يعرف الموظف أنه التصريح الأخير؟ يوم الجمعة حضرت أناليزه إلى هنا، أرادت أن تحصل مرة أخرى على ورقة بها عناوين الأبحاث التي أخطط للقيام بها وذلك لتقديمها إلى مجلس البحوث في الرايخ لتأكيد مدى ضرورتها الملحة. إذن، لم تكفِ الأشياء التي قُدِّمت إلى الوزارة! لم يقبلوا طلبات العفو، ولذلك لا يريدون الإبقاء علينا أحياء. في لحظة ما بدت أناليزه حزينة حزناً قاهرًا لدرجة أنني ارتعبت. ربما تكون كلمة الرعب مبالغًا فيها؛ لأن الرعب لم يعد يعرف طريقه إليّ ... بالأمس استمع القاضي إلى أقوالي في قضية شومان. لماذا هم مُتَعَجِّلُونَ هكذا، في يوم الأحد الذي عادةً ما تتعطل فيه المحاكم تمامًا (شومان محبوس منذ يناير وهو البريء تمامًا)؟ عصر اليوم سأعرف الرد.

نحو الواحدة والنصف يدخل الزنزانة المشرف على عملية التنفيذ، المدَّعي العام كورت من محكمة الشعب العليا، وبصحبه طبيب السجن الدكتور مولر. يتم إخطار السجين بأن وزير العدل في الرايخ لم يستجب إلى التماس الرأفة، وأن الحكم سيُنْفذ اليوم، الثامن من مايو، الساعة الثالثة عصرًا تقريبًا. تصرف المحكوم عليه بهدوء وتماسك أثناء إعلان الخبر، هكذا نقرأ في المحضر المطبوع الذي وقَّع عليه كورت لاحقًا ووضَّع عليه ختمًا بالتاريخ، بعد أن سجَّل اسم المحكوم عليه والساعة.

يوتَّق موظف يديه. يجب منع المحكوم عليه بالإعدام من أن يفعل في نفسه شيئًا أثناء اللحظات الأخيرة. رغم القيود سمحوا له بكتابة رسائل. هل يريد راعيًا روحياً؟ بدلاً من قس السجن الذي أُلْفِه جروسكورت يرسلون له رئيس الدائرة الكنسية في براندنبورج. يتفحص الجلاد روتجر المقلصة التي رَكَّبوها في جراج السجن. الحديث الأخير، يوصي جيورج زوجته بأن عليها أن تكون قوية ومتماسكة، مثلما يسير هو قوياً ومتماسكاً طريقه الأخير. البُلْطة حادَّة النّصل، والحبل مشدود. بقطعة قماش سوداء، يغطي أحد الموظَّفين نوافذ الجراج ذات القضبان.

ساموت وأنا في سلام مع الناس، يكتب إلى والدته، ومع الله: لك الشكر الجزيل على كل ما قدمتيه من حُب. أريد أن أكتب حتى النهاية. ساعدوا أناليزه والطفَّلين. إن المصير الذي كان ينتظرني منذ ١٢ عاماً قد اقترب من نهايته. لذلك فإنني أموت في هدوء تام ... وسيموت عديدون إلى أن ينتهي كل شيء. أريد أن أمنحكم كلكم العزاء. يكمل كورت، المشرف على التنفيذ، والدكتور مولر، طبيب السجن جولتهما على الذين تَقَرَّر إعدامهم في هذا الاثنين، ثم يقضيان الوقت حتى الثالثة عصرًا في استراحة يتبادلان فيها الأحاديث ويشربان القهوة مع مدير السجن في مكتبه. من الحائط يُصَوَّب الفوهرر نظرتة الصارمة. ثم كأس عرق في صحة الجميع.

أَيُّهَا الوفية الطيبة أناليزه، لقد حان الوقت إذن. في غضون نصف ساعة سينفذون الحكم. إنني متماسك تمامًا؛ لأنني كنت أتوقَّع ذلك طوال الوقت (معذرة لخطي السيئ ولكنَّ يديَّ مقيدتان). كيف لي أن أشكر على كل شيء؟ كيف لي أن أبوح لك بكل الحب الذي كنت دومًا أشعر به ناحيتك؟ حتى في أيام الحبس الصعبة منحتني فيضًا من الحنان والحب اللامتناهي، لقد شعرتُ بعظمتك الإنسانية الكبيرة. ابقي على ثباتك كما كنتِ دومًا. أنتِ تعلمين أن الأمر لم يكن مصادفةً، إنه قدرِي. ليس لديَّ ما أندم عليه سوى الألم العظيم، الألم الذي كنتُ بسببه حزينًا

طوال هذه الفترة هو أنك ستعيشين وحْدَك الآن. لا أستطيع طبعًا أن أقدم لك نصيحة بشأن مستقبلك، ربما إذا أُتيحت لك الفرصة تستطيعين أن تتزوجي. ولكن من فضلك افهميني: إنني لا أقول شيئًا كهذا وسط ما تشعرين به من آلام إلا لأن ساعتني قد حانت. سيكبر الطفلان بدوني أيضًا، وسيساعدك كل من يحبني في ذلك؛ ولذلك فإنني أموت هادئ النفس تمامًا.

إنني أسمع الآن صليل المفاتيح! تحياتي إلى كل مَنْ وقف بجانبني، آل جروجر، وفرنتسه، وأناليزه الصغيرة، والأنسة آدم، ومارتا، وكراوتفالد، والرئيس لاور، وماير، وبروموند، والسيدة لاست، وأختي إيفا، ولويزه والآخرين. وتحياتي أيضًا إلى إيفا بلومبه وعائلتك. وقولي للآنسة الدكتورة ماير إنني فكرتُ فيها كثيرًا. وقدمي الشكر لهندلر، وجروتر وكل الذي حاولوا أن يُقدِّموا لي يد العون. وكذلك السيدة هيلسباخ، والقس بارت.

أعانقك. ولا تنسي أننا نموت من أجل مستقبل أفضل، من أجل حياة بلا كراهية. لقد أحببتُ الناس حبًّا جمًّا، ولو كان العمر قد امتدَّ بي لفعلتُ خيرًا كثيرًا. ولكن القدر لم يُرد ذلك. بين أوراقني تجدين وصية كتبتُ فيها كل شيء باسمك. جهاز أشعة إكس الخاص بي موجود عند كولينج، ونورينج. وستحصل السيدة شومان على مبلغ قدره ٦٠٠ مارك.

أمامي خمس دقائق!

لا أستطيع الآن أن أكتب إلى كل أفراد العائلة. أبوك العزيز الطيب وأمك، أتمنى لهما دوام الصحة والسعادة. يا أمي الحبيبة الوفية الطيبة، لا تحملي الهم؛ إنني أموت مرفوع الهامة وفخورًا بما فعلت. لقد أنجبتُ ابنًا مُشرَّفًا. أعانق فيلهلم، وكيته جروسكورت في أونترهاون، وهيزل، ولويزه، وياكوب وكل أهل فيردا، وباشكيس، كانوا دائمًا بشوشين وودودين معي.

ولك قُبلاتي. أتمنى لك حياةً ملوَّها البهجة مع الطفلين. ستحكين لهما كل شيء، وستقولين لهما بأن والدهما لم يرتكب شيئًا مُشينًا. لا بدُّ أن أنهي كلامي. أيتها الخيرة ذات القلب المحب النبيل، إنني متأكد من أنك ستفعلين الصواب. لا تقنطي أبدًا. فكّري فيما كنتُ سأفعله. أعانقك، وأعانق كل أحبائي. جيورج.

في الساعة الثالثة عصرًا يدخل موظفان، ينزعان القيود ويأمران: اخلع ملابسك، واترك اللباس! ثم يُقيِّدان الأيدي خلف الظهر، ويقودانه عبر ممر سرِّي إلى الفناء أمام

الجراج. شيئاً فشيئاً يأتي عشرة رجال آخرون إلى الفناء، كلهم عراة، باستثناء اللباس القصير. نظرات خرساء بين جيورج، وباول، وهربرت. يقف المحكوم عليهم في صف واحد ويرتجفون برداً. تُنَزَع القيود. ينتظر الجلاد روتجر مع معاونيه الثلاثة في الجراج. لم يظهر أحد من المحامين.

كل دقيقتين يرسلون أحد المحكوم عليهم إلى الفناء. يلتزم المدَّعي العام بالترتيب الأبجدي، ويسأل: هل أنتَ فلان ...؟ بعد أن يهز المحكوم عليه رأسه بالإيجاب يقرأ المدَّعي الجملة المحورية في الحكم: «العقوبة بالإعدام.» ثم: «أَيُّهَا الْجَلَّادُ، نَقِّذْ مهمتك!» على المحكوم عليه أن يخلع لباسه خلف ستارة سوداء ويُطَبِّقَه ويضعه على كوم من السراويل الداخلية، ثم يسير عارياً إلى المقصلة. يمسك المُعَاوِنُونُ به، يضعونه على اللوح، ويوثقونه. يشد الجلاد الحبل، فتهوي البلطة. ضربة مكتومة. يتأكَّد الطبيب من الوفاة. يقوم المُعَاوِنُونُ بتنظيف المقصلة. في تلك الأثناء يكون التالي قد نُودِيَ عليه، يخلع لباسه، ويضعه مطوياً على الكوم، ثم يُقَاد إلى البلطة.

فيما بَعْدُ يُوقَّع المدَّعي العام على المَحَضَّر المطبوع، نسخة منه تُرْسَل بالبريد المُسَجَّل إلى وزير العدل في الرايخ، وأخرى إلى المحامين: بعد التَّأَكُّد من تَطَابُقِ الشَّخْصِ المُقَاد مع المحكوم عليه، قام المشرف على الإعدام بتكليف الجَلَّاد بالتنفيذ. المحكوم عليه، الذي كان هادئاً متماسكاً، رقد على المقصلة دون مقاومة، إثر ذلك قام الجلاد بتشغيل البلطة وقطع الرأس، ثم أعلن تنفيذ الحكم.

استغرقت عملية التنفيذ — منذ مجيء المحكوم عليه حتى الإعلان عن التنفيذ — ثواني. تَرَكُوا مكاناً شاغراً للرقم الذي دَوَّنه المدعي العام: ٩.

وابل من السّباب ينهال على برلين

كان أبطال العالم في القتل أبطالاً للعالم أيضاً في التدوير. حتى في السجن، قبل قطع الرأس بالمقصلة، لم يكن مسموحاً بتبذير المنسوجات وتلوّثها بقطرات الدم. كانت الدولة النازية في حالة بائسة لدرجة أنها لم تستغن عن خرقة أو لباس. من زناناته القريبة من جراج الموت كان الرسام أوسكار فيشر يراقب طقس الإعدام الذي يتكرّر كل اثنين. كان فيشر يُزوّر الأوراق لصالح الاتحاد الأوروبي ويطبع المنشورات، غير أنه استطاع إنكار كل شيء طوال فترة التحقيق التي استمرّت شهوياً. أُفرج عنه، وعاد إلى دار النشر، وهناك أسرّ بما عايشه لزميلته روت أندرياس فريدريش التي قامت بنقل تقريره في كتابها «رجل الظل»، وهو الكتاب الذي أدين بالفضل في الحصول عليه لرحلة كاترين إلى لندن.

هالتني البشاعات التي ارتكبوها لدى إعدام جيورج جروسكورت وأصدقائه، وكأني صبي مراهق يكتشف خسة العالم للمرة الأولى. فاق الاستياء سخطي على سلسلة الأحكام الصادرة ضد أناليزه جروسكورت، كما كان أعظم من الغضب الدائم الذي يشتعل في صدري بسبب حيثيات براءة «ر».

في بداية مايو مرّت خمس وعشرون سنة على الإعدام، وما زلت أتذكر كيف أن هذه العلاقة المبتذلة بين التاريخين — طويلة هي المدة، لا، بل قصيرة — أشعرتني بطعم المرارة في فمي وبموجات جديدة من الاستياء والسخط التي راحت تضرب صدري. عندما يزدحم صدر الإنسان المُسالِم بالكراهية، فإن ذلك يصيبه في الغالب بالفزع أكثر من غيره؛ لأنه لا يريد أن تكون له أي علاقة بهذه القوى الهدّامة. لذلك لم أرغب في لفت الأنظار، ولم أجروّ في تلك الأيام على رؤية السيدة جروسكورت، أو أكسل، أو كاترين.

لم أرد أن أبتلع غضبي في صمت كالمرضى؛ لذا أخذت سيارتي وانطلقتُ بها — ولا أعلم لماذا — إلى «جبل الشيطان». زدتُ من سرعة السيارة، كانت تنهب الطريق نهباً، أردتُ

أن أعلو هذه السحابة الرمادية القذرة، كنتُ في حاجة إلى الريح النقية والنظرة الطليقة وإلا اختنقت. فوق هامات أشجار غابة «جرونه» البعيدة حاولتُ أن أهدئ نفسي، وأن أتوحد مع أنفاس الطبيعة. رغم ذلك بقيت الكراهية تسكن رأسي، لم أستطع أن أطردها، ولا أن أوقف هذه الحمم المتقاذفة. في دهاليز المخ اضطرمت في نفسي — وهو شيء أجده اليوم محرّجاً، بل مضحكاً — عداوة طفولية ضد أشجار الصنوبر وهذه الغابة الدائرية، الغابة المهدّئة للنفوس، المنتصبة في شموخ، غابة الجنود، الغابة البروسية المُعتنى بها، إلى آخره. وتلّحّ الفكرة مجدداً: قدامى النازيين، الذين لم يتقدّموا في السن بعد، البرابرة المُعرّف بهم من الدولة، عُشّاق المقصلة، أثمان وأرباع وأثلث الجلادين، جيوش الشركاء في جرائم القتل. لماذا لم يتم التخلص منهم؟ لماذا لم يُعيّنوا تحت الاختبار في إدارة الغابات، أو في الدرجات الوسطى في مصلحة البريد، أو في أكشاك التحويلة لقطارات السكك الحديدية، بدلاً من

تقليدهم مناصب في المصالح الحكومية والوزارات والمحاكم؟ لماذا لم يحدث ذلك؟ عندما استدرت لألقي نظرة على أسطح المدينة من عل، تنفّستُ عميقاً لأشعر في إطلاق وابل من السباب، وهو شيء لم أفعله إلى الآن حتى في أشد أحلامي رغبةً في تصفية الحسابات: مدينة عبيد ملعونة هذه التي تمتد تحتي، عبيد القيصر، عبيد هتلر وأمثاله، عبيد الرُّوس، بل وحتى عبيد الأمريكان، يا مَنْ تتواءمون وتتكيفون مع كل شيء بمحض إرادتكم، أيّها المتزلّفون، الجبناء، لماذا تنكّمشون وتتضاءلون تحت الأسقف؟ وأنتم، نعم أنتم، يا منتهكي عرض القانون، يا قراصنة البنود وال فقرات القانونية وترزية القوانين، أيّها المحتالون على العدالة والمُدنّسون للحرمان، أنتم أسوأ أنواع العبيد، بل إنكم تزدادون من جيل إلى جيل حيلةً ومهارةً ودناءةً، مع أن أحداً لا يرغمكم اليوم على ذلك، ليس إلا حق القوة المُستمد من شرف مهنتكم، تحكمون على الناس مستخدمين لغة بائسة، تحكمون على ألمانيا حتى الهلاك بعبارتكم المكررة ودوافعكم الدنيئة، بأحكامكم المُسبقة الخسيسة، وعندما تجدون بنداً واحداً، مريحاً ومطاطاً، فإنكم طوعاً تسجدون بخنوع أمام سُلطته. هل تعرفون تلك الصورة المُعلّقة في مكان ما، في نورنبرج أو ميونيخ، القاضي المرتشي الذي سلّخ جلده بناءً على أمر من الملك قمبيز، بعد ذلك أمر الملك بكساء مقعد القاضي بجلد المرتشي قبل أن يُعيّن الابن خليفةً له؟ ألم تجلسوا أبداً على جلود آبائكم المرتشين؟ ألم تُفسدكم أبداً أحكامكم المُسبقة؟ ألم تفكروا أبداً في إمكانية تعذيبكم أنتم بمواد القانون؟ وأنكم رشوتم أنفسكم بأنفسكم؟ بجلدكم الوظيفي السليم؟ ماذا تعلّمتم من التاريخ ومن فترة الخدمة التي قضيتها تحت إمرة عصابة من المجرمين؟ ماذا تعلمتم من الموتى؟

من القنابل؟ لم تتعلموا شيئاً، ولا تقبلون أن تتعلموا من الدروس التي ألقته عليكم هذه المدينة، المدينة المدمّرة الواقعة تحت قدمي، خلال خمسة عشر عاماً تراكمت الأنقاض التي حملتها مئات الشاحنات، مكوّنةً جبلاً يزداد اليوم ارتفاعاً، في كل يوم تعلو تلك القمة في الناحية الأخرى، بكل ما خلّفته الحرب من نفايات وركام، الحرب التي كان من الضروري أن تُهزّكم بعنف وتوقظكم من سباتكم، وتخلّصكم من عجزتكم، ولكن كلاً، إنكم — بلونكم الأسود — باقون على كراسيكم، ولا حتى إعادة إعمار المدينة علمتكم شيئاً، إذا انفجر بركان، وتحوّلت برلين الشبيهة بأثينا إلى مدينة مثل بومباي، ماذا يمكنكم أن تعرّضوا على العالم بعد ألف سنة، ماذا يتبقى على الجدران سوى ورق الحائط المزين بالزهور، سوى قرون الأيائل الملتفة، وابتسامة المغني هاينتشه البلهاء؟ ماذا استفدت من الديمقراطية إذا كنتم لا تستخدمونها؟ ماذا استفدت من الحرية إذا كنتم لا تستعملونها؟ ماذا استفدت من القانون إذا كنتم تخنقونه؟ إن برلين مريضة وراء الدرع الذي تحصن به وهي تقول: لا يستطيع أن يمسنّي أحد! إنها مدينة عمياء بجُمّلتها الشهيرة: برلين منورة، مُحاصَرة بشعارها: برلين تبقى برلين، حمقاء منقسمة، برلين في سحابة الغبار، في غبار الماضي، وسط الضباب، في ثلوج القطب الشمالي، وهي في حالة «النيرفانا»، حيث الصحافة الحرة ليست حرة، في بلد البطاطس حيث لا تهيج المشاعر إلا بسبب الشيوعية، وممارسة الجنس بدون ورقة زواج، ومنع تقطيع البطاطس بالسكين، أما الإنجازات فلا يقدمها سوى حارس المرمى سيب ماير بحركاته البهلوانية، بيكنباور بتمريراته العرضية، ومولر بأهدافه، هذا ما يقود مباشرة إلى الفردوس الأرضي؛ وحتى يظل كل شيء مُسالماً تحت الأسقف وتحت الهوائيات يغني هاينتشه أغنيته «ماما، لا تبكي على ابنك»، ولكن كل ذلك لن يفيدكم في شيء، ستبكون، نحن الأولاد سنغير بعض الأشياء، سنغير كل شيء، وأنتم ستبكون، ينبغي عليكم أن تبكوا على أولادكم، ولن يختلف الأمر.

بهذا الأسلوب، رُحّت أسبُ عصابة القانون، بصوت عالٍ أو شبه عالٍ، أخذ استراحة ثم أواصل. رُحْتُ ألعن المدينة، بل البلد كلها، ولحسن الحظ لم يسمع أحد كلامي المثير للاستهزاء.

أكسل شبرينجر شاهدًا على عدم تواجدي في مكان الجريمة

غضبي والكراهية الساذجة ضد كل شيء — هذا ما أدركه اليوم — كأننا تعبيرًا عن وخزات ضمير متزايدة. حوّلني قضاة محكمة المحلفين إلى قاتلٍ ومنتقمٍ بعد أن حكموا على «ر» بالبراءة. هذا الحكم الفج في عنفه مُتَعَسِّفٌ للغاية. لقد كان بإمكانهم أن يصدروا حكمًا مختلفًا تمامًا، وهو ما أعرفه اليوم.

في عام ١٩٥٦م قدّمت أنا ليزه جروسكورت طلبًا لإلغاء الحكم الصادر ضد جيورج، وذلك حتى تُسرّع من إجراءات التعويض. أما حكم مجلس العقوبات الثاني في محكمة الولاية فكان مختصرًا وقاطعًا: إن نوع الجريمة يُبيّن على الفور أن حكم الإدانة لم يصدر إلا لأسباب سياسية. وهكذا تم إلغاء حكم الإعدام. نصري الوحيد، هكذا قالت.

كان الأمر سيكون بسيطًا: أصدر فرايزلر و«ر» أحكامهم لأسباب سياسية، هذا أمر يتضح على الفور. لماذا تخلّف قضاة محكمة المحلفين الذين أصدروا حكم براءة «ر» في ديسمبر ١٩٦٨م عن حكم زملائهم في محكمة الولاية الصادر عام ١٩٥٦م؟ هل يفهم ذلك أحد رجال القانون؟

ولكن لماذا أجبروني على الاغتيال؟ لماذا حكموا عليّ بتنفيذ فعلتي؟ لم تكن موهبتي كبيرة في مجال الكراهية، ولهذا كان غضبي عارمًا على هؤلاء الذين فرضوا عليّ الكراهية، الذين — وهذا شيء أكثر جنونًا — حوّلوني شهيدًا، وهو دور كنتُ أنظر إليه بضيق متزايد. لو كان القضاة، على الأقل، ذكروا حيثيات قانونية سليمة في حكم البراءة، ولم يُبرّروا أفعال

المجرمين السابقين، لربما صرّفوا اهتمامي عن فعلتي. كانت تلك فرصتي الأخيرة. والآن، لم تعد ثمة عودة، وهذا ما كنتُ — دون وعي مني — أخذه عليهم بشدة.

مايو ويونيو ويوليو، في هذه الشهور دوّنت الخبرة التي مررتُ بها في الشتاء. لم يستجب الناشر لرغبتي في إصدار الكتاب أواخر الخريف. كان يُريد استلام المخطوطة في نوفمبر والنشر في مارس. تأجيل الاغتيال حتى صدور الكتاب، أم تأجيل كتاب الاغتيال طوال هذا الوقت؟ كنت أريد أن أنجز كل شيء بأسرع ما يمكن. لقد أثار التأجيل غضبي، وأضعفَ عزيمتي.

تزداد في مطلع الصيف الأعلام التي كنتُ أبحث خلالها عن حلفاء. بخيال واسع بذلت جهداً كبيراً للحصول على البركة، من أي سلطة، للقيام بفعلتي. أتذكر أحاديث طويلة مع وزير الخارجية فيلي برانت ومع رجل الدين جولفيتسر ومع الناشر شبرينجر. بالطبع كنت أدير دفة الأعلام على نحو يجعل السادة مُقتنعين بقضيتي، ويوافقون على رأيي. كان أكسل شبرينجر، صديق إسرائيل، أكثر من ربّت على كتفي بلطف بينهم، واستيقظتُ وقد استولى عليّ شعور بالسعادة: ستدافع عني صحيفة «بيلد».^١

في هذه المرحلة الهوجاء فكّرت — لأسباب تكتيكية — في الذهاب إلى الطبيب بين الحين والآخر. كانت الحسبة بسيطة: إذا أردتُ أن أبرهن للمحكمة على أنني بحثتُ قبل الجريمة عن مساعدة طبية كي أنفض عن كاهلي هذا الأمر بالاغتيال الذي وجّهه لي مذيع الأخبار، فإن ذلك سيكون في صفّي، وسيدفع المحكمة إلى الرأفة بي.

ولكن إلى أيّ طبيب؟ ليس إلى ذلك الذي يعرفني، الذي سيكتب تشخيصه على أنني فقدتُ عقلي. ولا إلى المُختصّين في قسم الأمراض النفسية؛ لأنهم لن يتركوني سريعاً أهرب من بين أصابعهم، وسيحشونني حشواً بالأدوية، مُستقبلين إياي في معرض حالاتهم الجميلة. أما مَنْ يخلون سبيله، فيبقى مريضاً نفسياً، ليس في كامل قواه العقلية، مشتبّها في أمره، إنساناً لا يستطيع السيطرة على ذاته، ليس هذا ما أريده!

وهكذا ذهبتُ في النهاية إلى طبيب أعصاب في شتجلتس، وعرضتُ عليه مُعاناتي: أمّرني صوتُ من الراديو بأن أهتمّ بحالة المجرم النازي «ر». لم أحكِ شيئاً عن أمر الاغتيال. أوماً الطبيب وسألني: منذ متى؟ كم مرة؟ ووصف لي دواء الهالدول، دون حتى أن يسأل عمن هو «ر».

لم أثق في هذا العلاج المُنشط، هدّدتني النشرة المرفقة بآثار جانبية: الدوخة، وضعف التركيز، وتشنجات العضلات، والرعدة. لا، لن أسمح لأحد بتعطيل قدراتي، بأن يجعلني

أكسل شبرينجر شاهدًا على عدم تواجدي في مكان الجريمة

مريضًا، من الأفضل في هذه الحالة أن أنفذ جريمتي الخيرة الشريرة! يُستخدم هذا الدواء في حالات المرض بالوسواس القهري. لا، لن أسمح للأطباء بفرض مرض نفسي عليّ! ومنذ متى تُعتبر مكافحة النازيين القدامى وسواسًا؟
نَحَيْتُ الدواء جانبًا، ولكن كان معي إثبات براءتي.

ثلاث أرامل في حديقة شبه ظليّة يتحدّثن بوع عن همفري بوجارت

صورة من ألبوم الذاكرة: ثلاث نساء بفساتين صيفية مزهرة أمام تعريشة وسط إحدى الحدائق البرلينية الصغيرة الخاصّة والتي تسمح بها اللوائح القانونية. أشجار تفاح وكرز يمينًا ويسارًا إلى جانب سور من السلك الشبكي، وفي الخلفية نبات عنب الثعلب، وأحواض النباتات، وأدوات الفلاحة في الحديقة. أمام التعريشة المطليّة باللون الأخضر الداكن مائدة مفروشة، وكراسي في الظل الذي تنفذ إليه أشعة الشمس عبر أوراق الشجر. أمام المائدة أرض مُعشوشبة لا يزيد عرضها أو مساحتها عن غرفة معيشة برلينية. وكلبان يروحان ويجيئان، كلب «دكل» بُنيّ، وكلب صغير من كلاب الصيد أسود اللون، إذا لم تخنّي الذاكرة. كانت السيدات الثلاث اللاتي يقتربن من الستين يشربن القهوة ويأكلن جاتوه الفواكه مع الكريمة. تتعارض ألوان فساتينهن تعارضًا صارخًا. أناليزه مع صديقتها هيلده وكليره، المزاج رائق، والجو دافئ في ذلك الأحد من شهر يوليو ١٩٦٩م.

عندما دخلنا — أكسل وأنا — عليهن، كنّ يتحدّثن عن الرحلات. التّقطتُ أذني بعض الأماكن: بالي، المغرب، بحيرة جنيف. يأكلن الجاتوه بالكريمة باستمتاع ويشربن القهوة، يملأنّ لنا طبقين، ويطعمنّ الكلبين. يُخططن، ويحلّمن بيت في سويسرا. طوال خمسة عشر عامًا كانت هيلده تكتب المذكرات القانونية لأناليزه خلال ساعات ليلية لا تنتهي، تبحث عن براهين وأدلة، وتشعر آلاف المرات بالغضب من موكلتها الفوضوية، المشغولة للغاية، الموكّلة التي سئمت القضايا. الآن تربط الصداقة بينهما. كانت كليره تعمل سائقة تاكسي، وقامت بإخفاء رجل يهودي لديها. بعد الحرب تزوّجا، وقبل خمسة أعوام توفّي. لم يساعد أناليزه أحد على الصمود مثل المرأتين. كلٌّ من هيلده وكليره تشعر بالغيرة تجاه

الأخرى، هيلده بطريقتها الراقية، وكليده بالطريقة البرلينية الشعبية، كلُّ منهما تريد أن تكون أفضل صديقات أناليزه، وخزة هنا، عبارة مُتهكِّمة هناك، لعبة مكشوفة لهن جميعاً، ولذلك لا تتعكر الأجواء بينهما. تريد هيلده السفر إلى الدار البيضاء، أما كليده فهدفها فنلندا. في تلك الفترة كانت أناليزه قد نجحت في الحصول على جواز سفر. لم تحصل عليه إلا في عام ١٩٦٣م عندما لم يَعد السفر إلى دول أوروبية عديدة يتطلب جوازاً. عندئذٍ لأنَّ رئيس الشرطة؛ لأنها لم تنشط سياسياً خلال السنوات الأخيرة فهو لا يريد أن يكون عائقاً في طريق التوصل إلى تسوية، بشرط تحمُّل مصاريف القضاء. ابتزاز مرةً أخرى، هذه المرة عبر المصاريف. مسألة سمعة وكرامة، فالشرطة لا ترتكب أبداً أيَّ خطأ، ولا تتحمل أبداً أيَّ ذنب. اعتبروا النزاع القضائي منتهياً، وحصلت على الجواز وإشعار بالدفع. مسموح لها الآن أن تشارك في مباراة الدار البيضاء ضد فنلندا. تنحاز إلى المغرب؛ لأنها أرخص. كليده تعترض بسبب الحر. ولكن ليس في ديسمبر! تستمر اللعبة. لحظات من السعادة.

بالأسئلة التي تحوم في رأسي أشعر وكأنني هايم اللذات ومُفرِّق الجماعات. لحسن الحظ تركتُ في السيارة الجريدة التي أحب قراءتها يوم الأحد، صحيفة «تاجيس-شبيجل». غير مسموح أن يقع نظر الأم على هذه الصحيفة، قال أكسل؛ إذا رأته تغلي المرارة في أعماقها مجدداً بسبب ما حدث عام ١٩٥١م. بسبب الافتراء عليها تُفضَّل حتى اليوم قراءة «دي فيلت».

أرسلُ البصر إلى أناليزه جروسكورت بين صديقتها، مسترخية كما لم أرها من قبل، مرتديةً فستاناً أصفر، امرأة جميلة، سريعة البديهة، في الستين من عمرها، بشوشة مع الجميع، امرأة مرحة تقوم بالتحكيم بين فنلندا والمغرب. متى تتحرر من الشعور بأنها تُعاقب مدى الحياة بسبب الفترة القصيرة التي قاومت فيها النازية؟ إنها الآن — على الأقل — لا تكافح وحدها، الآن حصل رولف، وأكسل على حق التعويض.

بعد المغرب و«كازابلانكا» كان لا بُدَّ أن يأخذُن الحديث إلى الفيلم المشهور. ثلاث أرامل يتحدثُن بولع عن همفري بوجارت، عن عينيه، ومشيته المسترخية، وسخريته، وقبعاته. في سلام وألفة رُحَن يُعَبَّرُ عن إعجابهن بالرجل، مثلما عبَّرَ عن إعجابهن ربما وهُنَ مراهقات بالمثل فيلي فريتش. لقد لعبتِ الدراما الألمانية بحياة النساء الثلاث كما حلّا لها، كلُّ منهن تستطيع تقديم فيلمها في هوليوود. كم من حكايات في جعبة كليده بلوخ؟ المسلسل البوليسي مع الرجل الغريب في البداية، الذي أمسى الحبيب في الشقة المكوَّنة من غرفة واحدة، الحيل والأكاذيب حتى لا ينتبه حارس الوحدة السكنية، إنها بالتأكيد تنتظر

ثلاث أرامل في حديقة شبه ظليلة يتحدثن بولع عن همفري بوجارت

شُبَّانًا راغبين في المعرفة كي يسألوها عن قصتها. وجعبة المحامية، كم فيها من حكايات؟ المحامية التي تقاضت أجرًا بائسًا عَطَشَى إلى التقدير، تقدير صبرها وحرصها على التوازن في صياغة الجمل، مُقَابِلَ تلك اللغة الحربية الباردة التي يستخدمها القضاء. ولكن على مائدة القهوة، في ذلك الأحد الصيفي، بدا كل شيء له علاقة بالنازية مُحَرَّمًا، منفيًا، وكأن الصديقات اتفقن على عدم التحدث عن ذلك يوم الأحد أبدًا. في عصر ذلك اليوم لم أَتَجَرَّأ على طرح أي سؤال، أو طلب أي شيء، فقط قطعة ثالثة من جاتوه الكرز.

إنهاء الحرب الباردة

ما لم أكن أعرفه: في تلك الأشهر تحديدًا التي كنتُ أقتفي فيها آثار حكايات جروسكورت، تجرأتُ أناليزه على محاولة أخيرة لاستعادة كرامة زوجها وسُمعته، وللحصول على راتب التقاعد والتعويض. مرّت تسع سنوات منذ عام ١٩٦٠م؛ أي منذ صدور حكم محكمة الولاية في برلين، وفي تلك الأثناء أصبح المجتمع ينظر إلى النازيين نظرة أكثر نقدية، كما شَرَعَ في احترام حركة المقاومة، وأمسى يَتَقَبَّلُ الآراء المخالفة على نحو أسهل.

نصحها المحامي كاؤل بأن تُكَلِّفَ مكتب محاماة في مدينة إسِنَ بكتابة تقرير عن الحكم الذي أصدرته محكمة ولاية برلين، وعن فضائح القضاء خلال سنوات الخمسينيات. لماذا إسِنَ؟ كَلَّا، ليس لأنها وُلِدَت هناك، بل لأن هناك مكتب محاماة في إسِنَ، هكذا فُكِّرُوا، عَمَلٌ فيه يومًا غوستاف هاينمان الذي أصبح منذ عام ١٩٦٦م وزيرًا للعدل في ألمانيا الغربية. كل السبل القانونية كانت قد استُنفِدت، ولم يَعُدْ من الممكن رفع دعوى أخرى. ولكن التقرير من إسِنَ كان مُرفَقًا بالتماس مُوجَّه إلى مصلحة التعويض في برلين ووزارة الشؤون الاجتماعية في بون. وقد كتب الالتماس — وهذه فكرة تكتيكية أخرى — محامٍ مشهور من برلين.

حدث ذلك في الوقت الذي أُتِيحت لي فيه فرصة التحدث مع السيدة جروسكورت ودراسة ملفاتها. لم تُقَلْ لي كلمة واحدة عن المحاولة الجديدة، ولماذا تفعل؟ ربما لم تُرد بعد هذه السلسلة من الإحباطات التي ضَيَّقت الخناق عليها أن تثير في نفسها أو في نفس الآخرين أي بصيص من الأمل. في مارس ١٩٦٩م، ما زلت أتذكر، فوجئت السيدة جروسكورت (لن أقول: شعرت بالبهجة؛ لأن ذلك سيكون أكثر من الواقع، فالبهجة فقدتها بسبب كل الأحداث السياسية) عندما تم انتخاب هاينمان — الرجل الذي كانت دومًا تشير

إلى موقفه بخصوص إعادة تسليح ألمانيا — رئيسًا لجمهورية ألمانيا الاتحادية: أول رجل شريف في هذا المنصب.

لا بد أن أناليزه كانت في ذلك الأحد من شهر يوليو تعرف محتوى تقرير الخبراء. لا بدّ أنها بعد أن قرأت الحجج المكتوبة شعرت بأن أحدًا يفهمها، يُقدّر حق قدرها: إن أفعالها وأقوالها لم تُعبّر أبدًا عن ارتباط سياسي حزبي، كما أنها لم تكن يومًا موجّهة ضد دستور برلين. إن موقفها من إعادة التسليح كان عاطفيًا وتلقائيًا، انطلاقًا من بُغضها للحرب والعنف، وليس بهدف ممارسة السياسة؛ فليس معنى أن يعمل أحد على الوصول إلى هدف يتبنّاه أيضًا الحزب الاشتراكي الموحد، أن يُحسب فورًا على المعارضين لنظام البلاد، هذا هو أكبر أخطاء محكمة ولاية برلين. لقد كان هدف الصحافة والمصالح الحكومية في الغرب لسنوات عديدة — بل وكادت تصل إلى هذا الهدف — تدمير حياة الطيبة عبر تشويه سمعتها واغتيالها معنويًا، ولهذا لم يكن أمامها اختيار آخر غير البحث عن سند لها في لجنة جروسكورت.

تمّت صياغة هذه الحجج، إضافةً إلى جمل أخرى من المذكرات القانونية السابقة، بنبرة موضوعية، ولكنها حاسمة في توجيهها الليبرالي. يا للعزاء الذي لا بدّ أنها شعرت به عندما قرأت هذه الجملة الطويلة المعقدة البشعة والتي يصل الالتماس بها إلى ذروتها:

إن تبني كل هذه الأهداف يُعتبر اليوم أمرًا مشرّفًا للغاية. ولهذا نلتمس؛ إذ إنّ تهمة انتهاك نظام البلاد الديمقراطي الليبرالي لا يمكن الاعتداد بها من منظورنا اليوم؛ ولأن السيدة جروسكورت قد تصرّفت على الدوام باعتبارها مواطنة رشيدة انطلاقًا من المفاهيم الديمقراطية، متبينةً في ذلك أهدافًا سياسية كان يتبناها آنذاك أفراد آخرون أيضًا (وكما نرى في موقفها بشأن إعادة التسليح الذي تبناه الرئيس الحالي لجمهورية ألمانيا الاتحادية هاينمان)، كما أن هذه الآراء أصبحت اليوم محل إجماع من عدد كبير من المواطنين والسياسيين — نلتمس الموافقة على طلبها بشأن تعويضها وفقًا لقانون تعويض الموظفين المتضررين من النازية، وهو ما قد يُنهي هذه الحرب الباردة السائدة أيضًا في الإدارات الحكومية والقضاء، هذه الحرب التي عبّرت عن نفسها في صورة تكاد تكون نموذجية في الأحكام الصادرة ضد موكلتنا.

في بحر من الهدوء

طوال الليل أمام التلفزيون لِنتابع الحدث العظيم. إلى هذه الدرجة من الجنون كُنَّا ذات يوم. أول سفينة فضاء تدور حول القمر. في شقة كاترين الضيقة احتفلنَا بالحدث، وضعنَا الجهاز أمام السرير، وأخذنَا نحتمي النبيذ الأحمر ونستمع — بعد أن استلقينَا على السرير — إلى شرح المذيع التلفزيوني عن مراحل الهبوط وأخطاره. لم يكن الأمر لعب عيال، كما يتراءى لنا اليوم، فهم لم يهبطوا على القمر؛ لأن الوقت قد حان في عام ١٩٦٩؛ كَلَّا، إنها أعظم مغامرة عبَّر كل العصور، هكذا تم تقديم الحدث المصحوب بآلاف الأخطار، كل شيء من الممكن أن يتعطلَّ، ونحن نتابع على الهواء. تم إخراج الحدث كأنه مباراة رياضية هائلة، لذلك وجدنَا أنفسنا نتفَرَّج ونخاف ونأمل، رغم النابالم ورءوس الفيتناميين المقطوعة. كانت المسألة مسألة حياة أو موت، فقد يتوقَّف جهاز حساس أو يُصاب جهاز التكييف بالعطب، قد يهبط الضغط، أو تنفصل التوصيلات، التقنية لن تكون أبدًا كاملة، وحتى رائد الفضاء قد يُخطئ. وسواء نبَح شعورنا من الانبهار بالحدث أو من الرغبة في الخوف، فقد تابَعنَا الحدث وكلنا قلَق.

انبعث من الشاشة توترٌ إيروتيكي، هكذا سأقول اليوم، ونحن نتابع علنًا فضَّ بكاره قمرنا الحبيب. إشعال صاروخ الهبوط، كبُح السرعة، وتوجيه السفينة «إيجل»، البحث عن مكان صالح للهبوط؛ لأن المكان المخطَّط كثير المرتفعات والمنخفضات، مُخاطرة التلامُّس الأول مع سطح القمر، أخطار استقرار السفينة على سطحه، إذا انغرَزَت السفينة في أرضه أو هبطتْ هبوطًا مائلًا، فلن يستطيع الرواد استخدام السفينة في الصعود مرة أخرى أبدًا، أو إذا كان الأكسجين أقل من اللازم. ثم يهبطون بأمان كبير على التراب البكر وسط بحر الهدوء. لا يثير عجبني أن كَلَّا منَّا كان منجذبًا تجاه الآخر في تلك الليلة. ما حدث في الأعلى

كان يسير ببطء شديد، انتظار طويل، تأجيل، استراحات. وحتى في الصباح الباكر عندما كان كلا الأمريكيين يقفزان فوق رمال القمر، كانت الرغبة ما زالت منتصرة على الشعور بالتعب.

بعد أن نمنا طوال الضحى، قررنا ألا نعمل، وأن نخصص هذا اليوم الصيفي الدافئ لأنفسنا ولرجال القمر الذين توجب عليهم أن يلتحقوا في المساء بالمركبة الرئيسية، ويبدءوا رحلة العودة إلى الأرض.

اقترحت كاترين أن نطلق إلى شمال المدينة ونزور آل هومبولت. رحلة غير مألوفة، انطلقنا بالسيارة إلى تيجل، مارين بالمطار الفرنسي، ثم سِرنا على طول مرسى البواخر، واشترينا كيلو من الخوخ، ثم مشينا مشياً وثيداً إلى أن وصلنا قصر هومبولت. تذكرة الدخول بعشرة قروش. وسرعان ما وجدنا أنفسنا راكدين في الركن الخلفي من عشب المتنزه وقد استولى علينا التعب من جديد، فاسترحنا هناك من الإجهاد الذي أصابنا مع الهبوط على القمر.

في تلك الأسابيع كانت كاترين تُعد نفسها إعداداً دقيقاً لرحلتها. كنت مشغولاً بالسيطرة على سيل المعلومات عن جروسكورت، والقيام في الوقت نفسه بدوري كطالب مجتهد، لم أكن أريد أن أعرف كثيراً عن المكسيك. كل شيء كان واضحاً، كل شيء على ما يرام، وإذا غَضَضْنَا النظر عن لقاءاتنا الليلية سار كلُّ منا طريقه. انتابني آنذاك مشاعر مُقْلِقَة، غير أنني لم أكن قد تعلّمت كيف أصغي لمشاعري العميقة. كل ما لاحظته هو أن شيئاً ما يفصلنا، لم أجد كلمات مُعْبِرة، ولا شجاعة لأن أتحدّث عن ذلك، وكأنّ الخوف من أزمة كبيرة شلني.

جعلتنا هذه الليلة — وبفضل جاذبية القمر والأمريكان الأبطال المتقافزين — عاشقين من جديد. في الوقت نفسه كانت ليلة وداع، ولهذا أتحدّث عنها في اعترافي. بعد عدة أيام كان على كاترين أن تسافر إلى منطقة فرانكن لزيارة والديها، ثم تسافر منتصف أغسطس بالطائرة من فرانكفورت إلى مكسيكو سيتي.

شرعت كاترين تحكي عن هومبولت، وعن رحلاته الاستكشافية التي استغرقت سنوات عبر أمريكا اللاتينية والمكسيك، وكيف أخضع كل شيء للبحث والفحص والتمحيص، الأحجار والنباتات والجبال والبحيرات، ثم قام بوصف ذلك باللغة الفرنسية. كانت مبهورة بذلك، هذا ما تريد محاولته بالكاميرا، على نحو أكثر تواضعاً: استكشاف بلد. وأنا بهرني أنها حَصَرَتْ نفسها للسفر بكل هذه الدقة، أنها كانت تتحدّث بلغة مثقفة، بينما أنا الجاهل

لم أكن أعرف من قام بالرحلة في ربوع أمريكا: هل هو ألكسندر أم فيلهلم هومبولت؟ لكن كاترين شرحت لي الأمر. كنا — منهكين من الليلة ومن حرارة عصر ذلك اليوم، ومعنا كيلو من الخوخ — نشعر بالسعادة.

في غمرة تلك السعادة بدأت أحسدها على حُرِّيَتها، على تصميميها الوديع على أن تُخاطر ببداية جديدة وغزو عالم جديد. ربما كان الصاعدون إلى القمر هم المذنبين، على كل حال فقد تلبَّستني — وأنا راقد على عشب ضفاف بحيرة تيجل — حالة من الشوق المُبهم حثتني على مغادرة الدرب المعهود وأن أخطو أرضاً مجهولة. ولأول مرة استيقظت في أعماقي رغبةً في اصطحاب كاترين إلى المكسيك، ربما بدافع التقليد ليس إلا. كان الأوان قد فات؛ إذ إنها رتبت كل شيء مع أستريد، ولم يكن من السهل الحصول على تأشيرة دخول وتذكرة طيران بمثل هذه السرعة، إضافة إلى ذلك لم أكن سأتحمل بسهولة تأجيل مشروعِي، كما أنني — وهذا يأتي في المقام الأول — كنتُ مفلسًا. الأفضل ألا أقول شيئاً وإلا فلن أجنبي سوى غضبها.

مع توهج هذا الشوق شعرت مرة أخرى بموجات الشك العميق التي اجتاحتني. أحسست أن خطط قتل «ر» أصبحت متقدمة، ضيقة الأفق ورجعية، وهي بالفعل كانت كذلك. الثأر من نازي متقاعد، ليس لذلك أي علاقة بجسارة كاترين، أو نيل أرمسترونج. إعادة الاعتبار إلى ضحايا النازية وضحايا القضاء في الخمسينيات، هذا شيء حسن وجميل، ولكنه أمر ألماني جدًّا، أمر جامد، صورة بالأبيض والأسود. مرة أخرى شعرت ب بروز الفكرة التي أصبحت حكمًا قاسيًا كنتُ أستخدمه ضد نفسي في لحظات الضعف: إنك لا تفعل ذلك إلا لرغبتك في أن تكون أفضل أخلاقياً من الآخرين! ولأنك تريد أيضًا أن تحقق مكسبًا أخلاقياً!

لم أتحدث بكلمة واحدة عن كل ذلك. كل ما نويته هو أن أنهي كتاب جروسكورت بأسرع مما خططت؛ أي قبل عودة كاترين نهاية سبتمبر. في الوقت نفسه كنت أخشى الانتهاء من هذا العمل؛ إذ إن ذلك يعني بداية الجد، أي الإقدام على الفعل الذي كلَّفْتُ نفسي به. كنتُ أعاني — في الغالب لدقائق فحسب — من الخوف الشهير، والتوحيد بين القول وشجاعة الذات. أو من الارتباك في حالة نجاح استراتيجيتي المزدوجة، والتوحيد بين القول والفعل، أن أصبح بطلاً أو شهيداً، أن أرغم على القيام بدور عام، على منصات الجامعات والأكاديميات، أمام الكاميرات والميكروفونات، أن أصبح نجمًا مناهضًا للنازية في السجن، أن يحدث ذلك في هذا الوقت تحديدًا، بينما كانت كاترين ورؤاد الفضاء يغرونني بالبحث عن الرحابة والاتساع.

في طريق العودة مررنا بمقبرة عائلة هومبولت، فقرأنا الأسماء: فون هومبولت، فون بيلو، فون هاينتس. قلت لكاترين: يا له من انحدار! فردت قائلة: ومن يعلم كيف سينحدر أحفادنا. ملاحظة تصيب بالحيرة، لم تكن تتناسب مع الفترة ولا مع طريقة تفكيري. هل كانت تفكر في أن تنجب مني أطفالاً؟ هذه النقطة بقيت أيضاً وراء غلالة من الصمت. مضيئاً إلى السيارة حتى لا تفوتنا بقية المشاهد على سطح القمر. نحو السابعة كان من المفروض أن تبدأ مركبة الهبوط رحلتها والالتحام بسفينة الفضاء. هل سينجح النسر (إيجل) في الإقلاع من القمر؟ وهل سيهبطون بسلام على الأرض؟ على بُعد ٤٠٠ ألف كيلومتر من الغبار تواصلت مأساة الموت والحياة والتقنية. أما مأساتنا فلم ندرك كُنْهَها، ولا حتى على بُعد مليمترات. بعد أسبوع، في محطة قطارات «برلين تسو»، ومن خلف نافذة القطار السريع رأيتُ كاترين للمرة الأخيرة. ولأول مرة، هكذا أتوهم اليوم، رأيتُ دموعاً على خديها.

ولا طَلقة حتى الآن

نهاية تقريرى يمكن سَرْدُها سريعًا: لا بُدَّ أن ذلك كان في شهر أغسطس عندما قرأتُ — لا أعرف أين — أن «ر» دخل إحدى مستشفيات القلب في منطقة الألجوي. في المقالة أَلَحَّ الكاتب إلى شكوكه حول ما إذا كانت قضية الاستئناف المرفوعة ضد مريض بالقلب سوف تستمر أو تصل إلى نهايتها.

الجهود التي بذلتها طوال أشهر كي أغتال قاتل والد صديقي على نحو مؤثِّر ولافت للأنظار، هل راحت كلها سُدَى؟ كنتُ ساخطًا: كَلَّا، لن أسمح لـ «ر» بالهرب مني، لن أسمح للجبان بالابتعاد عن مرمى نبراني. شعرتُ بشيء يكبح اندفاعي لتنفيذ مشروعي المزدوج، فرجوتُ قابض الأرواح أن يمنحني الأسبقية، فهذا أفضل للمجتمع وأنفع من النهاية العادية المبتذلة.

أفكار حمقاء لا طائل من ورائها، أخَلت مكانها سريعًا للشعور الهادئ بالارتياح لعدم اضطراري لتنفيذ الاغتيال. لم يكن سبب تَرُدُّدي الخوف من التصويب أو من اغتيال مُتقاعِ نازي، كَلَّا، بل إطلاق الرصاص على مريض بالقلب؛ هذه وضاعة، ليس هذا رمزًا لشجاعة عظيمة، ولا فعلًا سياسيًا مُحَرَّرًا.

في تلك اللحظة اعترفتُ لنفسي بالشكوك الكبيرة التي كانت تسيطر علي. بالتحضيرات التي قمتُ بها بعناية، كنتُ قد أَهَلْتُ نفسي تمامًا لتَقَبُّلِ دوري قاتلًا وشريرًا نبيلًا، أو توهَّمْتُ ذلك. والآن رحلتُ أَتَنَفَّسُ الصُّعْدَاء، وإن سيطرتُ عليَّ أحيانًا مشاعر متناقضة. إن «ر» صاحب القلب الضعيف قد يُعَفِّيني من تمثيل دوري على مسرح الأخلاق.

بعد ذلك حل شهر سبتمبر الفظيع، كابوس متصل بدأ ببطاقة بريدية صارخة الألوان ورسالة مُتحمَّسة بعَثَّتُهما كاترين من المكسيك. راحت تتلو قصائد الغزل في الجاكرانداس، الأشجار ذات الأزهار الزرقاء، وفي ماسحي الأحذية الغافين، وفي الذين يقفون

عند التقاطعات ويُطفئون النيران بأفواههم، ووجوه الشباب الطاعنة في السن، وصفارات رجال الشرطة التي تشبه نغمات الغابات العتيقة، وزحمة المرور ودراجات الريكشا. كانت تتوقع مكسيكيين يحملون المسدسات، حتى الآن ولا طلقة رصاص. لم تقم بتصوير بركان البوبوكاتيبتل حتى تلك اللحظة، وبالنسبة لدوري كرة القدم الألماني فإنها تقترح القاعدة التي يلتزم بها الأزت: 'الفائزون في مباريات الكرة يُقدمون قرابين للآلهة.

مرّت أيام قليلة على قراءتي للرسالة، وبعد أن أصابتني حماستها المرحّة بالعدوى، كان ذلك في الخامس من سبتمبر، اتّصلت أستيريد من المكسيك الواحدة بعد منتصف الليل تقريباً. كاترين في المستشفى، إصابة بالغة، كانوا في طريقهم إلى إحدى أسواق الهنود الحمر في تيبوتزلان، وإذ بثلاثة شبان، أطفال تقريباً، يسرقون منها الكاميرا. جرّت وراءهم، وفي الناصية التالية كانوا قد سحبوا المطواة وطعنوها في البطن. بعد ثلاث ساعات اتّصلت أستيريد مرة أخرى. ماتت كاترين.

مشاعري تجاه الحبيبة، دموعي، كل ذلك ليس له مكان في اعترافي، ولا طقوس الوداع التي نظّمناها عائلتها في ماركتريدفيتس. ليس من حقي أن أكتب إلا عن العواقب. خلال رعشات الحزن، ووسط طوفان الاتهامات التي وجّهتها لنفسِي؛ لأنني تركتها تسافر وحدها إلى المكسيك، لم أعد أريد أن أسمع حرفاً له علاقة بالقتل والموت والاحتضار، لا أريد أن أكتب حرفاً عن ذلك. انتابني شعور مُبهم بأنني مشارِك في الذنب؛ لأنني أطلقت أفكار القتل من عقالها منذ عيد القديس نيقولاولس.

بعد فترة من عودتي من جنازة كاترين من جبال أشجار الشربين، سمعتُ كالمعتاد الأخبار المسائية، كان ذلك في الثامن عشر من سبتمبر. بصوت دافئ مُغرٍ من طبقة الباص قرأ مذيع محطة القطاع الأمريكي النبأ التالي: علمنا اليوم أن القاضي السابق في محكمة الشعب العليا، ريزه، قد لقي مَصْرعه في الخامس عشر من سبتمبر في إحدى مستشفيات الألاجوي إثر نوبة قلبية. وبهذا — أضاف المذيع بنبرة احتفالية وكأنه يَنحني في جلال أمام حكم الموت — يصبح حكم محكمة ولاية برلين نافذاً.

غيّرتُ المحطة، ولم أتحدّث بكلمة واحدة عن كل الموضوع طوال ثلاثين عاماً تقريباً.

خاتمة شبه سعيدة

في سبتمبر ١٩٦٩م انتهى العام الذي قضيته قاتلاً. بعد اغتيال كاترين وموت «ر» تخلّيتُ عن الموضوع بين عشية وضحاها. لم يرجعني شيء إلى كتاب جروسكورت، ولا حتى التعاطف مع جيورج والمقاومة التي أبدّاها، أو تعاطُفي مع أناليزه ومقاومتها.

ولكن الحكايات ظلّت تدور في رأسي كأيام الطفولة: لم أرَ الآن الرأس المقطوع فحسب، بل الجَلَد روتجر ورؤساءه، رعوس الأفاعي البرلينيّين، هافمان في أدوار عدّة، السيدة جروسكورت وهي تُقَطّع سَجق فيردا، وهي تتحدّث عن فرايزلر أو وهي تُبدي حماسها لهمفري بوجارت. مئات من صور كهذه تزاخمت في رأسي.

«لقد تجنّبْتُهم». هذه الجملة من يوميات أُمي جعلتني أبدأ من جديد: عليّ أن أعوضها عن التهميش، أن أحكي حكاية القاتل التي لم يكتبها أحد، أن أجروّ على تقديم اعتراف. للتأخير مزايا عديدة. لم يكن ممكناً آنذاك تكوين صورة كاملة عن القضايا التي رفعَتْها أناليزه جروسكورت. ملفات اكتشفت حديثاً، وأبحاث جديدة سهّلت عليّ وصّف جيورج جروسكورت ومجموعة المقاومة.

والطبيبة ذات القلب الكبير! بعد الطلب الذي تقدّم به مُحامو ثلاثة مكاتب مرموقة: كاول من برلين الشرقية، وهاینمان الابن من إسّن، وشايد من برلين الغربية، كان عليها الانتظار حتى عام ١٩٧٢م. فَحصت الدوائر الحكومية الطلب، وتداولت، وتباطؤوا، ثم عرضوا عليها أخيراً تسوية: لن تحصل على تعويض، ولكنها ستحصل، وفقاً للوائح، على معاشٍ كأرملة، كما سيحصل الأولاد على معاشٍ بصفّتهم أيتاماً. بصورة رجعية، ولكن ليس ابتداءً من ١٩٥١م، كما يقضي القانون، بل بدءاً من عام ١٩٦٠م.

وَأَفَقْتُ. لم تُرد أن تفكر في المبلغ الضخم — نصف مليون مارك — الذي أهدته للدولة التي سامَتْها العذاب طوال أكثر من عشر سنوات. نَعِمْتُ بأربعة وعشرين عاماً خالية من

الملاحقات. ثم كانت بداية رد الاعتبار لزوجها عندما أقاموا مَعْرَضًا في مستشفى موأبيت عن المقاومة، عن جيورج وجماعة «الاتحاد الأوروبي». وامتد بها العمر حتى شهدت إطلاق اسم زوجها على أحد شوارع برلين، وإقامة شاهد تذكاري لزوجها في مسقط رأسه أونتريهون. بالمناسبة: أحد المحامين الثلاثة، وتحديدًا البرليني الغربي الذي قَدَّمَ بِاسْمِ السيدة جروسكورت الالتماس الذي أتى لها بالخاتمة السعيدة إلى حد ما، هو أحد أكثر أبناء مهنته نجاحًا. إنه — وأستميحكم العذر، ولكن هذه المقارنة ليست من اختراعي — هو الذي دافع عن القاضي «ر»، وحصل له على حكم البراءة الذي أُعلن في ذلك اليوم البعيد، عيد القديس نيقولاوس.

خاتمة

قاتل لمدة عام

فريدريش كريستيان دليوس من أكثر الكتاب الألمان اهتمامًا بتاريخ بلده المعاصر، ولا سيَّما فترة الانتفاضة الطلابية والحركة اليسارية في الستينيات. آنذاك كان شباب العالم يغلي بالتَّمَرُّد والرغبة في التغيير، وكان الشعور السائد أن السُّلطة فاسدة في الشرق والغرب معًا. في «قاتل لمدة عام» يرسم دليوس جدارية ألمانية ضخمة عن تلك الفترة وعقود النازية التي سبقتها، جدارية مليئة بالتفاصيل المدروسة جيدًا، لكن القارئ لا يضيع في شعابها. قد يقول قائل: رواية عن النازية والستينيات في شطْرَي ألمانيا، إنها أحداث بعيدة في أرض بعيدة، هل تهمنا؟

لا يعيد التاريخ نفسه، لكنه يقدم دروسًا تتشابه عِبْرُها. هذه الرواية تلقي ضوءًا كاشفًا على حقبة حالحة الظلام في التاريخ الألماني، كما تبين الرواية أن الجناة ليسوا بالضرورة وحوشًا آدمية. إن التعبير الذي استخدمته الفيلسوفة هنة آرنت عن «عادية الشر» يجد له خير تجسيد في هذا العمل الذي يُظهِر بجلاء أن الديمقراطية لا تُولَد بين يوم وليلة، وأن شعبًا سائر الديكتاتور سنوات طويلة وآمن به، لن ينقلب شعبًا حرًا ديمقراطيًا بمجرد إسقاط الطاغية.

أحداث بعيدة في أرض بعيدة؟

«تبقى الإشارة إلي جودة الترجمة التي أنجزها سمير جريس للرواية والتي لا يشعر معها القارئ — شأن كل ترجمات جريس — أنه يقرأ عملاً

قاتل لمدة عام

مترجمًا؛ فسلاسة اللغة، ودقَّتْها تجعلُنا نشعر أن دليوس كتب روايته
بالعربية.»

(منصورة عز الدين، أخبار الأدب)

هوامش الترجمة

صوت حُر من العالم الحُر

(١) أي في السادس من ديسمبر.

(٢) المقصود هنا نوع مُعيّن من الكعك يشتهر باسم «لبكوخن» Lebkuchen يتميز بكثرة التوابل داخله، ومن المُعتاد تَنَاوُلُه في الأسابيع الأربعة التي تسبق عيد ميلاد المسيح والتي يُطلَق عليها في ألمانيا فترة «الأدفنت».

(٣) أنشئت «محكمة الشعب العليا» في الحقبة النازية للنظر في قضايا الخيانة العظمى. وحُوِّكِم أمام هذه المحكمة أعضاء حركات المقاومة في العهد النازي، وأصدرت المحكمة ما يزيد على ٢٠٠ حكم بالإعدام.

(٤) العام الذي شهد تَمَرُّد الطلبة في ألمانيا وبلاد أوروبية عديدة.

قاتل والد الصديق

(١) شهدت السنوات الأخيرة في حياة هتلر عدة محاولات فاشلة لاغتياله، كانت أبرزها المحاولة التي قامت بها مجموعة من الضبّاط والسياسيين والدبلوماسيين المُعارضين بزعامة الضابط شتاوفنبرج Staufenberg. وقد نُفِّذَت المحاولة في العشرين من يوليو ١٩٤٤م؛ لذا أضى هذا التاريخ فيما بعد رمزًا للمقاومة الألمانية ضد النازية، كانت مجموعة شتاوفنبرج تهدف إلى اغتيال هتلر بوضع المتفجرات في مقر قيادته المُسمى «وكر الذئب»، ثم إسقاط الحزب النازي والتوصل إلى عقد سلام مع الحلفاء. بعد فشل المحاولة تم إعدام شتاوفنبرج ورفاقه.

(٢) كورت جيورج كيسينجر Kurt Georg Kiesinger (١٩٠٤-١٩٨٨م)، كان عضوًا في الحزب النازي NSDAP (حزب العمل الألماني الاشتراكي القومي) طيلة فترة

زعامة هتلر، أي من ١٩٣٣ وحتى ١٩٤٥ م. بعد انتهاء الحرب انتُخب عضوًا في البرلمان الألماني عن الحزب الديمقراطي المسيحي، ثم عُين مستشارًا في فترة «الائتلاف الكبير» بين الحزبين الديمقراطي المسيحي CDU والاشتراكي الديمقراطي SPD من ١٩٦٦ وحتى ١٩٦٩ م، وهو ما لاقى معارضة شديدة لدى اليسار؛ نظرًا لماضيه النازي.

حكمة صفائح الزبالة

(١) مجموعة صحف شبرينجر Springer معروفة بتوجهها اليميني، ومنها صحيفة «بيلد» الشعبية، وصحيفة «دي فيلت».

(٢) رولاند فرايزلر Roland Freisler (١٨٩٣-١٩٤٥ م) أحد أكثر رجال القانون النازيين تعصبًا. في عام ١٩٤٢ م رأس المحكمة الاتحادية العليا، وكانت ٩٠٪ من القضايا التي ينظر فيها تنتهي بإصدار حكم الإعدام أو السجن مدى الحياة. في الثالث من فبراير عام ١٩٤٥ م، وأثناء نظره في إحدى القضايا، أُصيب مبنى المحكمة بقنبلة أودت بحياة القاضي فرايزلر، وبذلك نجا المتهم من الحكم المنتظر بإعدامه.

هزيان الساخطين

(١) تولى فالتر أولبريشت Walter Ulbricht (١٨٩٣-١٩٧٣ م) مقاليد الحكم في ألمانيا الديمقراطية من عام ١٩٦٠ حتى ١٩٧١ م، وهو الذي أصدر قرار بناء سور برلين، كما قام بتأسيس جهاز المخابرات الشهير «شتازي». وعندما ضاق معارضوه بأسلوب حكمه الفردي، أجبروه على الاستقالة «بسبب التقدم في العمر». بعد إقالته تولى إريش هونيكر رئاسة ألمانيا الشرقية حتى انهيار السور عام ١٩٨٩ م.

ملاك لندن

(١) أندرياس بادر، وأولريكه ماينهوف هما زعيما مجموعة «بادر-ماينهوف» Baader-Meinhof التي كانت تطلق على نفسها «جناح الجيش الأحمر» - Rote Armee-Fraktion، ويرمز لها بالحروف الثلاثة: RAF. وقد انبثقت هذه المجموعة من الحركة الطلابية، وادّعت لنفسها حق ممارسة العنف في مواجهة العنف الدولة، أما هدفها فهو «مكافحة نظام السلطة الإمبريالي» في ألمانيا. وتعتبر لحظة ميلاد المجموعة هي عملية تحرير أندرياس بادر من السجن في ١٤ / ٥ / ١٩٧٠ م بعد قيامه بإشعال النيران في المتاجر،

وكانت تلك العملية الأولى التي تُستخدم فيها المجموعة الأسلحة النارية. حصلت المجموعة في البداية على تَعاطُفٍ مُثَقَّفِي اليسار الألماني غير أن ذلك التعاطف انقلب معارضة صريحة بعد أن بدأت المجموعة في تنفيذ الاغتيالات لرموز النظام الرأسمالي، وأشهرهم رئيس منظمة أرباب العمل هانز مارتين شلاير الذي لقي مصرعه في ١٨ / ١٠ / ١٩٧٧م. وقد انتهت المجموعة بانتحار قادتها في السجون الألمانية في خريف ١٩٧٧م الذي أطلق عليه فيما بعد «الخريف الألماني».

(٢) المقصود الفِرَق النازية التي اشتهرت بأعمال العنف والقمع الوحشية، وهي على الترتيب: «قوات الحراسة الخاصة»، و«قوات العاصفة»، أو «الصاعقة».

كتاب الاغتيال

(١) كانت كلمة Führer لقب هتلر، وهي تعني «قائد» أو «زعيم»، ونُطِّقُها العربي الصحيح «فورر»، ولكنني فضلت كتابتها على النحو الذي شاعت عليه في المنطقة العربية: «فوهرر». أما كلمة «الرايخ» الواردة في الفقرة الأولى من هذا الفصل فتعني «مملكة». وكان يطلق على ألمانيا خلال فترة النازية «الرايخ الثالث»؛ والنطق الصحيح للكلمة: «رايش».

سبت طويل

(١) عندما زار الرئيس الأمريكي كيندي برلين المقسمة عام ١٩٦٣م قال بالألمانية: «أنا برليني». Ich bin ein Berliner! وهي الجملة التي غزا بها قلوب الألمان. (٢) ألمانيا مقسمة إدارياً إلى ولايات (يبلغ عددها الآن بعد الوحدة ١٦ ولاية)، ولكل ولاية حكومتها وبرلمانها. وهناك ولايات تُسمى بالولايات المدن، وهي: برلين وهامبورج وبريمن، وذلك لأن حدود المدينة هي نفسها حدود الولاية. والحديث يدور هنا عن ولاية برلين (الغربية) وحكومتها.

القلب الكبير

(١) ألبرت شبير Albert Speer (١٩٠٥-١٩٨١م)، مهندس معماري وسياسي في الحزب النازي. تولّى عام ١٩٤٢م وزارة التسليح والذخيرة، وفي العام التالي أصبح مسؤولاً عن التسليح والإنتاج الحربي. لم ينفذ أوامر هتلر في نهاية الحرب الخاصة بتدمير البنية التحتية للمدن الألمانية قبل أن يحتلها الحلفاء، ولذلك نجا من حبل المشنقة وحصل على حكم مُخَفَّفٍ نسبياً في محاكمات نورنبرج (السجن عشرين عاماً).

زيارة عدو الدولة

(١) المطهر (أو اليامبوس) في العقيدة الكاثوليكية هو المكان الذي تُطَهَّر فيه النفس بعد الموت بعذاب محدود الأجل قبل أن تنتقل إلى الفردوس.
(٢) «شتازي» Stasi اختصار يشير إلى جهاز «حماية أمن الدولة»، أي المخابرات في ألمانيا الشرقية سابقاً.

يثرثرون كثيراً عن المقاومة

(١) المقصود بـ «الناحية الأخرى» آنذاك ألمانيا الشرقية.

أنقاض ووجوه

(١) رودي دوتشكه Rudi Dutschke (١٩٤٠-١٩٧٩م): زعيم الحركة الطلابية في برلين الغربية. جرت محاولة لاغتياله، وأُصيب إصابة بالغة ظل يعاني منها إلى أن قضى نحبه قبل أن يتم الأربعين.

بيرة في فريدناو

(١) المقصود هنا لعبة على شكل ملعب كرة قدم، يمسك فيها كل خصم بمقبضين يحرك من خلالهما أشكالاً تمثل لاعبي فريقه مُحاولاً إدخال الكرة في شبكة الخصم.

لا تخافوا

(١) حاول الضابط شتاوفنبرج مع مجموعة من الضباط اغتيال هتلر في العشرين من يوليو ١٩٤٤م لكن المحاولة باءت بالفشل، وتم إعدام شتاوفنبرج ورفاقه. ويعتبر هذا التاريخ رمز المقاومة ضد النازية.

شغل، شغل، شغل

(١) إيريش فريد Erich Fried (فيينا ١٩٢١م، بادن بادن، ألمانيا ١٩٨٨م) هرب مع عائلته اليهودية من النمسا في أعقاب تولي هتلر السلطة في ألمانيا، واستقر في لندن.

نكأ جرح التاريخ النازي لألمانيا قبل أن يندمل، ثم توقّف طويلاً أمام جرائم الجيش الأميركي في فيتنام (ديوان: ثم فيتنام ثم ...) قبل أن يخترق التابو الإسرائيلي الذي يقول عنه في مقدمة ديوانه «اسمعي يا إسرائيل» ١٩٧٤م: «منذ أن مارسّت فاشية هتلر جرائم القتل ضد اليهود، تولّد في أوروبا الغربية شعور جماعي بالذنب له أسبابه المفهومة، هذا الشعور أدّى في كثير من الأحيان إلى امتناع المرء عن توجيه أي نقد لليهود، في الوقت ذاته ساوى الناس بلا أدنى تفكير بين اليهود والصهاينة. إلا أنني أشعر ليس فقط بالتضامن مع كل المُشرّدين والمُضطهدين الأبرياء، وإنما أيضاً بشيء من الاشتراك في المسؤولية تجاه ما يفعله يهود إسرائيل مع الفلسطينيين وباقي العرب.» جلب عليه هذا الديوان النقمة والتشهير، فوصف تارة بأنه «مدافع عن هتلر» وتارة أخرى بأنه «يهودي مُعارٍ للسامية» و«خائن لِدَوِيه». في الثمانينيات نشر فريد أشعار حُب حازت شهرة كبيرة في المنطقة الألمانية.

(٢) ياكوف ليند Jakov Lind (مواليد ١٩٢٧م): هاجر مع عائلته اليهودية من فيينا عام ١٩٣٨م. رحل إلى هولندا، وعاش فترة في فلسطين، ثم استقر في لندن. يمثل الهولوكوست موضوعاً أساسياً في أدبه.

(٣) إلياس كانيتي Elias Canetti (١٩٠٥-١٩٩٤م): عندما ضم هتلر النمسا كان كانيتي يعيش مع زوجته في فيينا. استقر في لندن حتى الثمانينيات حيث انتقل إلى سويسرا. من أشهر أعماله سيرته الذاتية المتعددة الأجزاء، وكتابه «الجماهير والسلطة». حصل على جائزة نوبل عام ١٩٨١م.

(٤) ميك جاجر Mick Jagger أحد مؤسسي فرقة «الرولينج ستونز» الموسيقية المعروفة، من أشهر أغانيها أغنية «تعاطف مع الشيطان» Sympathy for the Devil، وكذلك «مقاتل في الشوارع» Street Fighting Man (1969) التي غدت النشيد القومي للشباب المتمرد في أوروبا.

(٥) يان بالاخ Jan Palach أحد أشهر الطلبة في «ربيع براغ». احتجاجاً على الاحتلال السوفييتي لمدينته وقمّع الحركة الطلابية قام بحرق نفسه في يناير عام ١٩٦٩م.

الرومانسية الغربية العنيفة في شارع هاردنبرج

(١) كان جونتر شابوفسكي Günter Schabowski سكرتير الإعلام في ألمانيا الشرقية، ويمكن القول: إنه هو الذي تسبب بزلّة لسانه في انهيار سور برلين، على الأقل بهذه السرعة،

وهو ما يبين هشاشة الديكتاتورية وُضَعْفُها: كانت القاعة تغص بالصحفيين في مساء يوم التاسع من نوفمبر عام ١٩٨٩م، وكان الجميع ينتظر الإجراءات الجديدة المُزَمَّع اتخاذها لمواجهة أعنف أزمة سياسية مرّت بها ألمانيا الديمقراطية منذ تأسيسها؟ كانت البلاد تشهد آنذاك موجات هروب جماعية إلى الغرب، كما كانت المظاهرات العارمة تجتاح برلين الشرقية والمدن الأخرى للمطالبة بالحريات وبحق السفر وفتح حدود «السجن الكبير» المسمى بألمانيا الديمقراطية. طوال ساعة كاملة راح جونتر شابوفسكي يُرَدِّد العبارات الأيديولوجية المُستهلَّكة، حتى همَّ الصحفيون بالانصراف. وعندما سأله أحد الصحفيين سؤالاً عن الإجراءات التي تعتزم الحكومة اتخاذها، تذكّر أن سكرتير عام الحزب الحاكم كان قد أعطاه قبل المؤتمر ورقة تخص قانون السفر الجديد. وهكذا أخذَ يبحث عن هذه الورقة حتى يستند إليها في كلامه. لم يكن شابوفسكي يعلم أن تلك الخطوات لم تصدر رسمياً بعد، وأن مجلس الوزراء لم يكن قد اعتمدها. كان يظن أنه يقرأ قراراً ساري المفعول، وعندما تعالت نداءات الصحفيين تتساءل: متى سيسري القرار؟ ارتبك شابوفسكي أكثر، وأجاب الإجابة التاريخية: فوراً، منذ الآن! أذاع الصحفيون نبأ السماح لمواطني ألمانيا الشرقية بالسفر، وعلى الفور تدفّق الآلاف إلى حدود ألمانيا الشرقية وإلى جدار برلين العتيد الذي كان قد شُيِّد قبلها بثمانية وعشرين عاماً. وسرعان ما انهار الستار الحديدي الفاصل بين الشرق والغرب.

كم رأساً للأفعى؟

(١) «ميشائيل كولهاز» Michael Kohlhaas قصة مشهورة للكاتب الألماني هاينريش فون كلايست Heinrich von Kleist (١٧٧٧-١٨١١م). ويرمز كولهاز إلى البطل المتمرد الذي يثور ليحصل على حقه.

كم نوعاً من السُّم تَبَّههُ الأفعى؟

(١) في يوم السابع عشر من يونيو ١٩٥٣م وما تلاه اندلعت في جمهورية ألمانيا الديمقراطية (الشرقية) موجة من الاضرابات والمظاهرات والاحتجاجات، وصفت فيما بعد بـ «الانتفاضة الشعبية».

أوسكار وكوبونات الزبد

(١) أوسكار هوت Oskar Huth (١٩١٨-١٩٩١م): موسيقي ورسام كان مشهورًا بالمَرح ونحت وتوليد الكلمات الساخرة، كان ضيفًا دائمًا على حلقات الأدباء والفنانين في برلين بعد الحرب. وكلمة هوت تعني أيضًا «قُبَّعة»، ومن هنا التسمية الساخرة «القُبَّعة الصغيرة». بعد وفاته أصدر صديقه «ألف ترينك» Alf Trenk كتابًا عن هوت يتضمَّن قصة نضاله ضد النازية أثناء فترة الحرب العالمية الثانية.

(٢) كلمة «كورسبوخ» Kursbuch تعني جدول مواعيد السفر (للقطارات والباصات وخلافه)، وهي كذلك عنوان مجلة ثقافية أسَّسها الشاعر السياسي المشهور هانز ماجنوس إنتسنسبرجر عام ١٩٦٥م، وكانت من أهم الأصوات المعبرة عن الحركة الطلابية وحركة المعارضة خارج البرلمان.

سراب على «جبل الشيطان»

(١) جامعة برلين الحرة: تشير هذه التسمية إلى جامعة برلين في القسم الغربي من المدينة. أما بينو أونيزورج Benno Ohnesorg فكان طالبًا في جامعة برلين، وخلال إحدى المظاهرات في برلين الغربية عام ١٩٦٧م لقي مصرعه برصاص أحد رجال الشرطة في ظروف غامضة، وهو أول ضحية تلقى مصرعها في أحداث التمرد الطلابي.

سعداء معًا

(١) انظر هامش رقم ٥.

في الغرب أعرف أعدائي

(١) «مبدأ الأمل»: عنوان العمل الرئيسي للفيلسوف الألماني إرنست بلوخ Ernst Bloch (١٨٨٥-١٩٧٧م). كتب بلوخ هذا العمل في ثلاثة أجزاء بين ١٩٣٨م و١٩٤٧م في الفترة التي قضاها أسيرًا لدى القوات الأمريكية. وقد نُشر «مبدأ الأمل» في الخمسينيات في ألمانيا الديمقراطية (الشرقية).

(٢) انظر هامش رقم ٦.

متقاعد ومعه كلب في شليزفيج

(١) ال «داكل» Dackel كلب ألماني صغير، طويل الجسم، قصير القوائم.

لا تكن جباناً مثل شتاوفنبرج

(١) إشارة إلى سفر «يهوديت» في العهد القديم، وفيه قتلت الأرملة يهوديت القائد ألفيانا، قائد جيش الملك الآشوري نبوخذ نصر الثاني (القرن السادس قبل الميلاد)، وبذلك أنقذت شعبها من الحرب والهلاك. أما رجل الدين البروتستانتي هيلموت جولفيتسر (١٩٠٨-١٩٩٣م) فقد كان من المقرّبين من حركة الطلبة عام ١٩٦٨م، وصديق شخصي لزعيم الحركة في ألمانيا رودي دوتشكه، كما كان الراعي الروحي لزعيمة الجيش الأحمر أولريكه ماينهوف.

(٢) تقع برلين بشطريها وسط ألمانيا الديمقراطية (الشرقية)، أما شليزفيج فتقع في شمال ألمانيا الاتحادية (الغربية)، وبالتالي كان على البطل الذي يعيش في برلين الغربية أن يمر بشُرطة حدود ألمانيا الشرقية مرتين: مرةً عند خروجه من برلين إلى الأراضي الشرقية، ومرةً قبل مغادرته ألمانيا الشرقية ودخوله إلى ألمانيا الغربية والتوجه إلى شليزفيج. (٣) انظر هامش رقم (٣) فصل: (لا تكن جباناً مثل شتاوفنبرج) .

أكسل شبرينجر شاهداً على عدم تواجدي في مكان الجريمة

(١) أكسل شبرينجر يمتلك عدة صحف في ألمانيا يمينية التوجّه أشهرها صحيفة «بيلد»، أوسع الصحف الشعبية انتشاراً في ألمانيا (الغربية آنذاك). وقد لعبت «بيلد» دوراً كبيراً في تهيج الرأي العام ضد التمرد الطلابي عام ١٩٦٨م، وهاجمت عدداً من كُتّاب اليسار مثل: هاينريش بل، وجونتر جراس.

ولا طلقة حتى الآن

(١) آزتك Aztec إمبراطورية قديمة، وأبناؤها هم سكان المكسيك الأصليين.

